أمير عاطف

رواية

طارئ

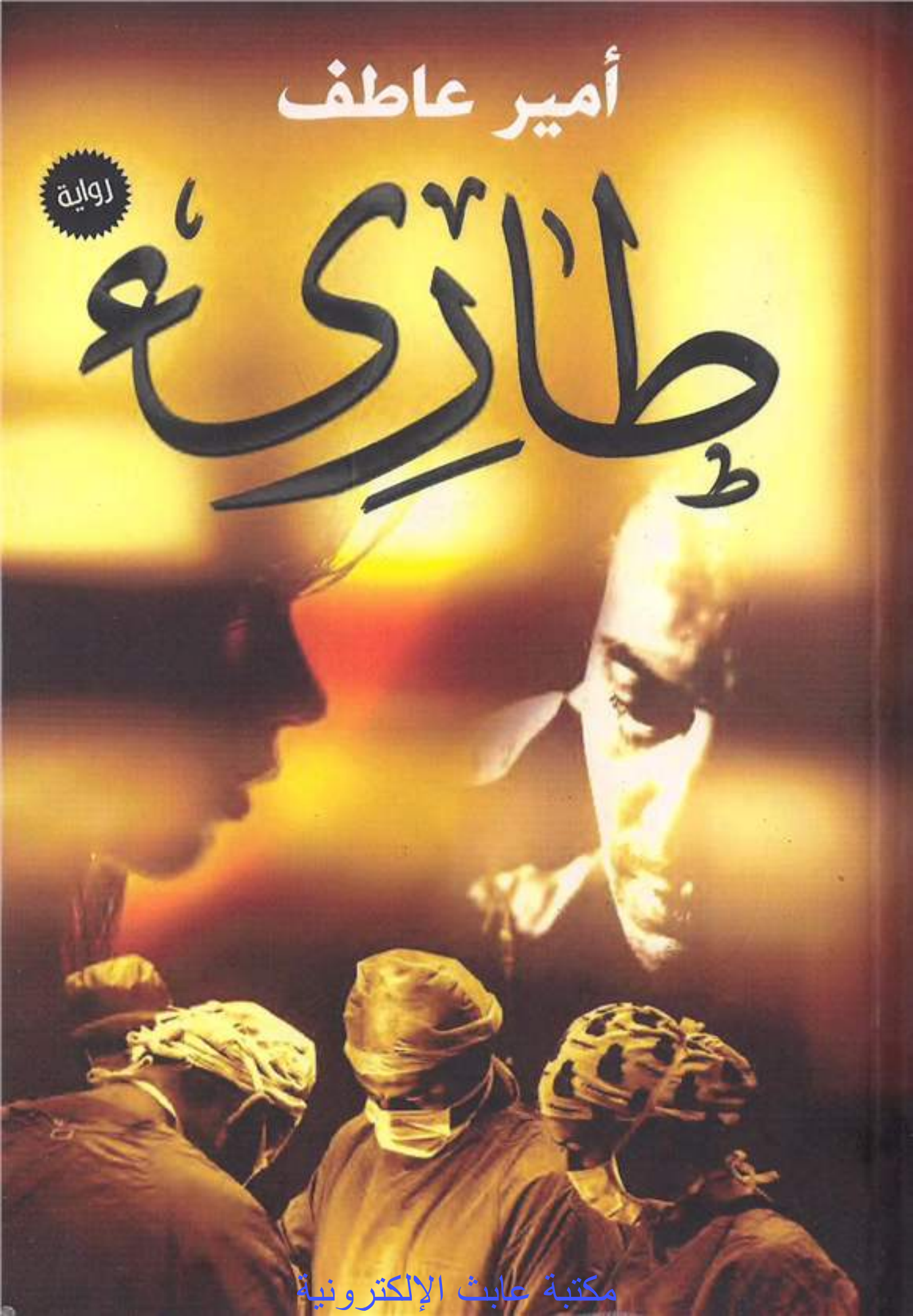

مكتبة عابث الإلكترونية

إهداء

إلى صاحبة القلب الكبير، والصوت العذب

إلى الغائبة الحاضرة ... عندما تغيب

والتي لم تغب أبداً عن ذهني

أعرف جيداً .. وأعترف

أنها تحملت الكثير. كي لا تقتحم عُزلتي

بل كانت تبني لي هذه العزلة... كي أكتب

للعام الرابع وأنا مازلت قابعًا داخل معبدها

أقرأ وأتلو ترانيمها على الملأ. مُعاهدًا نفسي

ألا يخرجني منه سوى الموت

زوجتي العزيزة ... أتنفسك

أمير...

مكتبة عابث الإلكترونية

كم ساعة في الدقيقة الواحدة؟!!

٠٠:٠٠:٥٩:٥٩

إذا أردت أن تعرف إجابة هذا السؤال، فلن تجد شخصًا يجيبك عليه سوى ذلك الشاب، الذي يراقب عقارب الساعة التي أصيبت الليلة بشللٍ نصفي، يلح عليها إلحاحًا لتمر بسرعة، انتظارًا لحدوث شيء هام ومصيري في حياته، والآن تشير على استحياء إلى الواحدة والنصف صباح إحدى الليالي الشتوية الممطرة القارسة البرودة لعام ٢٠٠٣...

انزوى إلى أحد الأركان جالسًا أمام التلفاز، في مقهى بجوار بيته، لم يكن به أحدٌ سواه. بالكاد استطاع الهروب من دعوات أصدقائه، الذين اتصلوا به كي يسهر معهم كالعادة. سكنه الصمت، لم ينبس ببنت شفة، حتى للنادل الذي سأله بعينين مرخيتين ماذا يشرب، فأشار له في شرود بسبابته وإبهامه على أنه يريد فنجان قهوة، فأحضر له شاي "خمسينة"!! ربما هذا ما استنتجه النادل، وربما تعبيرًا عن تبرمه وتأففه من هذا الذي جاء رغم هطول الأمطار في الخارج والبرد القارس ليجلس أمام التلفاز...!

مكتبة عابث الإلكترونية

جلس بعينين شاردتين تنظران يمينًا ويسارًا إلى لا شيء، وصدر يكتنف قلبًا مُفعَما بالعِشق ملتهبًا بالعاطفة، وعقلًا يلح عليه بالتفكير إلحاحًا. كان الضوء خافتًا.. رغم ارتفاع صوت التلفاز، لكنه شعر بهدوء غريب، هدوء اعتراه فجعله يسمع صوتًا وحيدًا، هو صوت دقات قلبه المتلاحقة، بسرعة ١٠٠٠ نبضة/ثانية، وقوة ١٠ حصان، حتى كاد ينفجر بداخله. أرجع رأسه للخلف مغمضًا عينيه، ثم أطرقها فجأة.. شعر باضطراب، وسرت قشعريرة في جسده بالكامل.. بدا وكأنه متخدرا...

كان جبينه يتصبب عرقًا، شعر بسخونة تسري في شرايينه، وأحس بحرارة عالية من شدة التفكير وضخ الأدرينالين في جسده، ليدفع الدم بقوة داخل عروقه الموصلة للمخ. أخذ يتمتم في قرارة نفسه.. يدور شجار طاحن بداخله بين عدة أشخاص يتحدثون بصوته، يتجادلون ويتناقشون حول موضوعٍ واحد.. أخذ يلتفت يمينًا ويسارًا في بطءٍ وملل ،بنظرات شاردة تائهة، يفكر في "مرام"...

تلك الفتاة التي قلبت حياته رأسًا على عقب، من بعد أن رآها في الجامعة. لم ينظر لها بعيني مراهق لمح فتاة عابرة، لكن بعيني حبيب وعاشق.. وجد فتاة طالما حلم بها، ورآها في خياله. منذ ذلك الحين ظل يطاردها لفترة محاولًا - عبثًا - الجلوس والتحدث معها، وكثيرًا ما كان يختلس النظر إليها دون أن تلاحظ لفترة، محاولًا مصارحتها بشعوره الصادق نحوها، وحبه المشتعل داخل قلبه.

فقط هذا النهار، استطاع أخيرًا أن يصارحها بكل شيء بداخله، منتظرًا ردها غدًا...

"طارق عفت الشيمي"، شاب وسيم ذو شعر أسود ناعم، مهندم، جسم متناسق، يلعب كمال أجسام شهرين فقط في السنة، لضيق ذات الوقت، وأيضًا لضيق ذات اليد. يعمل أثناء الدراسة، وجهه مليء بالحماس، نشيط، ذكي، لماح، طموح.. متقلب المزاج، هوائي إلى أبعد الحدود.. كلمة واحدة من شخص ما كافية أن تجعله غاضبا طول اليوم ومتعكر المزاج، أو العكس تمامًا.

إنها حالة لم يمر بها من قبل.. تسكنه مشاعر جياشة نحو مرام، منذ أن رآها والتياع قلبه يؤرقه، يفكر فيها طوال اليوم تفكيرًا ممزوجًا بالخوف من رفضها الارتباط به. لأول مرة يصرح لفتاة عن إعجابه بها ورغبته في الارتباط بها، وتقول له "هفكر وهرد عليك بعد أسبوعين". فيلح عليها متوسلًا أن ترد عليه غدًا، فتوافق على مضض. لا يستطيع النوم، فنزل إلى الشارع تاركًا بطانيته الدافئة، ووسادته الناعمة، وسريره المريح..و جلس في المقهى بمفرده أمام التلفاز قائلًا بصوتٍ خافت بداخله، في محاولة منه للتنبؤ بما سيحدث غدًا:

- لو الأغنية اللي جاية أغنية حب يبقى فال حلو ومرام هتوافق، أما لو كانت هجر وفراق ودموع تبقى دي علامة انها مش هتوافق!

مكتبة عابث الإلكترونية

أخرج سيجارة من علبته وأشعلها، وأخذ يزفر دخانها بتبرم، منتظرًا انتهاء الإعلانات المملة... أكثر من عشر دقائق حتى بدأت الأغنية.. كانت غريبة، لا يدري ماذا يصنفها! هل ستكون علامة على قبول مرام أم رفضها؟! (ع الجراح قادر) لإيهاب توفيق. تتحدث عن روح يائسة بائسة لإنسان ميت بين الأحياء، يراهم لكنهم لا يرونه...

نهض متعجبًا ونادى النادل ليحاسب على الشاي الذي لم يشربه... ولم يطلبه، فوجده نائمًا كأهل الكهف ويطلق "شخيرًا" منتظمًا أشبه بمولد كهرباء، فترك النقود على المنضدة...

ظل يفكر حتى آذان الفجر، أطفأ أنوار غرفته، توضأ وصلى، في مشهد قلما يحدث في غير أيام الامتحانات.. دعا ربه أن توافق مرام على ارتباطهما. بعد الانتهاء من الصلاة، ظل يفكر مكانه، حتى غلب عليه النعاس، متوسدًا أغلى شيء يمتلكه، وأكثر شيء يرهقه أيضًا.. لا شيء مرهق أكثر من تفكير شاب في فتاة اقتحمت حياته فأحبها بصدق.

إن السماء سخية بالفتيات العاديات، تمطر كل ثانية بآلاف منهن، لكنها نادرًا ما تجود بمثل مرام... ربما مرة كل ألف عام مثلًا...

*****

عام ٢٠١٢، في نفس المنزل الذي يسوده الهدوء النسبي. ثلاث غرف وصالة فسيحة، أثاث جديد نوعًا ما، تنبعث من المطبخ رائحة طهي

طعام لذيذة، منتشرة في كل زوايا وأرجاء المنزل، يكفي أن تقتحم أنفك لتدرك مهارة تلك السيدة التي تطهو.

في غرفة المعيشة، جلس طارق ذو الـ٢٨ عامًا على حاسوبه المحمول في غرفته، يشاهد أغنية (ع الجراح قادر) لإيهاب توفيق. متذكرًا ذلك اليوم الذي شاهده في المقهى. اغرورقت عيناه. بادلًا أقصى ما بوسعه حتى لا تسقط دموعه فتراه زوجته إذا مرت أمامه. نقرت مرام توًا على نافذة ذاكرته. فابتسم ابتسامة منكسرة، متذكرًا تلك الأيام الخوالي.. عانى ليرتبط بها، بذل الجهد، ومر بالمتاعب والعقبات التي واجهته لتحقيق ذلك. مَرَّ كل شيء أمام ناظريه كشريط سينمائي، فقطب جبينه متأسيًا يتذكر كيف انتهت علاقتهم بمأساة لم تكن في الحسبان.

كانت مرام وقتذاك في أضعف حالاتها وأحلك أيامها، تحتاجه وتحتاج لحضنه بشدة. هو الآن نادم على ما اقترف.. لم يكن يعلم أنه سيندم كل هذا الندم.. لم يكن يدري حينها أنه يدس يده بين ضلوعه ويجتث روحه بلا رحمة، كان أصغر من أن يَعي عذاب رجل سوف يلتاع بالذكريات فيما بعد... سيغتاله عناء العيش مفتقدًا أهم سبب لبقائه حيًا.. بالرغم من انصرام سنوات كثيرة لم تنجح في دفن هذه الذكريات، ولا طمس اسم مرام المحفور في عقله، يقف كل يوم بين أطلال ذكرياته ينعي قلبه ويحاول مواساته دون جدوى، عاش هكذا لا يستطيع نسيانها، يدور بلا هوادة في فُلك عشقها، يعتصره التفكير فيها.

مكتبة عابث الإلكترونية

القلب الذي أحب بقوة. لا يقدر على نسيان ذكرياته، حتى إن كانت لديه هذه الرغبة. بل كلما زادت رغبته في نسيانها، كلما زاد تعلقه وحنينه إلى هذه الذكريات، وفي النهاية يفشل في ذلك فشلًا ذريعًا، راضيًا ومباركًا لهذا الفشل.

إنها طبيعة البشر: يمر بحياتنا أشخاصٌ كثيرون، نحبهم ونقيم علاقة حب قوية مع بعضهم، وبعد سنوات كثيرة من الفراق، وقد قررنا أن ننساهم جميعًا ونقيم علاقات أخرى، نكتشف أن بينهم شخصًا ليس له أي علاقه بقرار النسيان هذا، أو حتى التفكير فيه، ولا ينطبق عليه من الأساس.

في النهاية عجز عن الصمود أمام إلحاح دموعه، سقطت أول دمعة، فسقط وراءها سيل جارف من الدموع. انتبه لما حوله، حين فوجئ بابنه "يوسف" ذو العام ونصف يخطو إليه ويستند عليه، بعدما شعر بحزنه. وضع قبضته الصغيرة على ركبته، ناظرًا له بعيونه البرينة الصافية نظرة قلقة، فابتسم طارق ومسح دموعه، ناظرًا له في حنو. رفعه من الأرض وضمه إلى صدره وحضنه برفق. فأحس بأمواج عاتية من الحنان قد اقتحمته. قبَّلهُ قبلةً هادئة قبل أم يرمقه بابتسامة شاردة لدقيقةٍ كاملة، متفحصًا ملامحه التي تشبهه إلى حدٍ كبير، ثم أنزله على الأرض وقال له مستخدمًا إشارات يده:

- روح لماما يا يوسف يا حبيبي...

وصلت شظايا هذه الجملة لزوجته بسمة، القابعة في المطبخ تطبو الغداء، فهرعت إليه قاطبة جبينها، وقالت له مزمجرة:

- حرام عليك ياطارق هو أنا ماعرفش أقف في المطبخ خمس دقايق متواصلة من غير ما يوسف يجيلي؟!! هو انت مش ابوه والمفروض تقعد معاه شوية وتسيبك من الزفت اللي بتتفرج عليه وعيدته كذا مرة وتهتم بابنك شوية؟ ده النهارده أجازتك يا أخي....

نظر لها رافعًا حاجبيه في دهشة متحدثًا لها في هدوء:

- في إية يا بنتي مالك انتي بتراقبيني وبتراقبي أنا بتفرج على إيه كمان؟! ماتصلي ع النبي بدال ما أنزل أقعد مع اصحابي ع القهوة ومارجعش غير بليل.

- انت ليه بتهددني؟! كل شوية تهددني إنك تنزل وتسيب البيت وترجع بليل؟ أقعد مع الواد ولو ساعة وشيل عني الحمل شوية.

قالتها بنبرة أعلى وأكثر حدة، فقال لها بنفس هدوئه:

- أومال أنا بعمل اية طول الأسبوع؟ مانا باشتغل وباشقى وبتعب عشان أخليكو مش محتاجين حاجة. مش ده برضه يعتبر مسؤلية؟!!

- اااااه جيب في الآخر الغلط عليا. أنا إيه اللي قلته غلط؟ ده أنا بقولك أقعد مع ابنك شوية..!

مكتبة عابث الإلكترونية

ظلت بسمة تأثر كالعادة بكلام كثير جدًا، رغم تفاهة الموضوع. كثيرًا ما تفعل ذلك، حتى كره طارق البقاء في البيت يوم عطلته. كثيرًا ما يهرب من ثرثرتها هذه لينفرد بنفسه وبلجأ لعزلته ليتذكر مرام، رغم أنه يحاول جاهدًا أن يقاوم شهوة التفكير فيها، لاسيما حال تواجده في المنزل. مرّت دقيقتين كاملتين ولازالت بسمة تتحدث إليه مزمجرة، بينما يجلس جازًا على أسنانه مطرقًا رأسه ضاغطًا عليها بكفيه، إلى أن انتهت أخيرًا وخرجت. هز رأسه ولم يعقب، نهض ملتقطًا سيجارة من علبته ووقف في الشرفة.. سَحَب نفسًا عميقًا ناظرًا إلى السماء، أغمض عينيه، ثم زفره بقوة بعد ثوانٍ... جثمت فجأة على صدره كتلة من المشاعر، هو نفسه لا يدري هل هي سعيدة لأنها تحتوي على مواقفه مع حبيبته القديمة، أم حزينة بسبب خسارته بفقدانها. استدعى صندوق ذكرياته الراقد في أعماق قلبه، وأخذ ينبش في محتوياته...

*****

شتاء عام ٢٠٠٣ - جامعة عين شمس... كلية الآداب أول العام الدراسي ممتلئة عن آخرها، بالأحرى بالطلاب الجدد المنهربن بهذه الحياة الجديدة. كان طارق حينئذٍ في الفرقة الثانية بقسم آثار يوناني. لكنه العام الثالث له في الجامعة، لأنه رسب في أول سنة. في تلك الأيام كان قد مر عام على ارتباطه بـ"نهى" ذات الشخصية القوية الجذابة، التي

تصغره بعامٍ واحد، لكنها وقتذاك كانت تكبره عقليًا بخمس سنوات تقريبًا. كانت معه في نفس الفرقة.

بعض الفتيات تعشقن قيادة الحبيب، والسيطرة عليه وعلى تفكيره وتصرفاته.. نهى كانت كذلك. في بداية علاقتها بطارق، كانت تتحكم في كل شيء في حياته، وهو يبارك هذا ولا يمانع، حيث إنه يثق بها ويعي أنها دائمًا على حق. لكن تدريجيًا تطورت شخصيته واكتملت، فبدأ يتحكم هو في قراراته، ولم تكن مانع في هذا، بل كانت سعيدة لأنها شعرت أنه ينضج أمامها وتكتمل رجولته، كالأم التي تراقب طفلها المدلل يكبر تدريجيًا...

كالعادة، في بداية كل عام، وقف طارق أمام مدرجات كلية الآداب مع صديقه الحميم "إسلام" يتربصان بالفتيات المستجدات، يبحثان عن فتاة متعثرة في أمرٍ ما ليعرضا عليها المساعدة والإجابة عن أي استفسار، معتمدان على أنهما عضوان باتحاد الطلبة بآداب. بداية جيدة لعلاقة بين شاب قديم وفتاة مستجدة في الجامعة، برغم أنه لم يشترك بأي نشاط لاتحاد الطلاب طوال العام، وهذا سبب كافٍ لفصله منه، لكن حال دون ذلك حضوره المميز وسط الطلاب وشهرته وشخصيته المرحة، فهو يستطيع أن يجمع أسماء ٥٠ مشترك في أي رحلة في غضون ساعات.

لمح أربع فتيات يقفن على مقربة منه، محجبات يملكن قدرا من الجمال، بدا على وجوههن الدهشة والانبهار من هذه الحياة الجديدة،

مكتبة عابث الإلكترونية

تداعب رؤسهن أسئلة واستفسارات كثيرة بحاجة إلى توضيح. يُقبل عليهم دون تردد بابتسامة مشرقة، كمرشد سياحي متمرس يقابل فوج روسي ليعرفهم بالأهرامات... قائلًا بلباقة وثقة هادئة:

- ازيكو... محتاجين أي حاجة هنا أو أي استفسار؟ أنا شايفكو تايهين ومحتارين...

نظرن لبعضهن البعض في دهشة، قطعها بسرعة مستطردًا كلامه بابتسامة خفيفة ليطمئنهم:

- أنا اسمي طارق في تانية آداب قسم آثار يوناني، عضو اتحاد الطلاب، وأنا هنا عشان أرد على أي استفسار ممكن الطلبة الجدد يحتاجوه.

ردت إحداهن بعفوية وتلقائية:

- آه والله يا أ. طارق إحنا فعلا محتاسين، مش عارفين حاجة والأقسام كتيرة، مش عارفين نسجل اسمنا في أنهو قسم بالظبط.

- مبدئيًا أنا طارق بس: من غير كلمة أستاذ، احنا زمايل. بصي هو في هنا أقسام كتيرة بس تسجيل اسمكو في أي قسم بيتوقف على المجموع، وكل مجموع بيبقى ليه أربع خمس أقسام، انتي جايبة كام %؟

- أنا اسمي "علا" على فكرة وجايبة ٨٧ % ، وليلى دي جايبة ٨٦ % ، ومنى دي جايبة زيي ٨٧ %.. أما مها دى بقى أشطر واحدة فينا جايبة....

خفتت الأصوات قبل أن يتلاشى صوت "علا" تدريجيًا، وانصرف انتباه طارق عنها تمامًا فتوقف تنفسه، عندما لمح فتاة تأتي من بعيد، ٤٠ متر تقريبًا. لا يستطيع أن يجزم هل هي في طريقها إلى هؤلاء الفتيات، أم سوف تمر بجوارهما قاصدة مكان آخر. متوسطة الطول، آية في الجمال الطبيعي الهادىء، تجبر كل من يراها أن يرفع لحُسنها القبعة. بشرتها خمرية تميل إلى البياض، تخطو خطوات هادئة، يتمايل معها قوامها الرشيق الممشوق، ترمق عيناها بنظرات اندهاش يمينًا ويسارًا انهارًا بهذا العالم الجديد عليها. تتعارك نسائم الهواء التي تمر من أمام وجهها كي تحظى بتقبيلها.

اقتربت، أنفها صغير كثمرة اللوز، شفتاها مكتنزتان ورديتا اللون، صفحة وجهها بها براءة ليست عادية، تجذب عقل من يراها، كبراءة طفل لم يبلغ ربيعه الثالث بعد... اقتربت أكثر... عيناها الواسعتان الصافيتان تشبه عيون المها في سوادها، تحوطهما رموش طويلة متكحلة، شامة خفيفة تحت شفتها.

تسمر مكانه، حبست أنفاسه، تجمد بصره وهو يشاهدها تقترب، سكنه الصمت فجأة، بل احتله، مراقبًا تمايل قوامها وهدوء خطواتها الواثقة. لمعت عيناه وظلتا ثابتتين متجمدتين لا تطرفان لأكثر من نصف دقيقة، سارحًا في وجهها الجذاب المستدير كالقمر المنير في ليلةٍ صيفية. شعر بنبضات سريعة في قلبه. هاجمته فجأة أمواج الحب المتلاطمة دون سابق إنذار، ترميه يمينًا ويسارًا دون أي مقاومة منه.

مكتبة عابث الإلكترونية

رافعًا في هدوء راية الاستسلام.. حاول بعدها - عبثًا - جمع شتات نفسه التي تبعثرت، لكنه فشل...

س: هل فعلًا يوجد شيء يدعى "الحب من أول نظرة"؟

ج: ببساطة نعم... عندما تكون هذه النظرة مصوبة نحوها...

..... إجابة نموذجية مُقتضبة، لسؤال أضاء في عقله حينها.

هناك "أول مرة" لكل شيء ☺ ...حينما رآها اكتشف أنه لم يكن على قيد الحياة من قبل، فهذه اللحظة هي لحظة ولادته. كيف تستطيع فتاة بهذه البراعة الفائقة أن تجمع بين الجرأة والخجل والجمال والإثارة في آنٍ واحد!!... فتاة دقت أبواب قلبه ودخلت هكذا..! دون استئذان!!!

رأى فيها فتاة أحلامه التي طالما داعبته وداعبها في خياله. رآها حبيبته، عشيقته، خطيبته، زوجته وأم أولاده، اسمها سيزين بطاقته كزوجة، وسينقش في قلبه كحبيبة، سيكبران معًا ويكونان حياتهما، ستكون بجواره حينما يلاحظ أول شعرة بيضاء في رأسه، سيكون بجوارها في اللحظة التي سترسم فيها يد الزمان أول تجعيدة على وجهها، سيكون هناك طفلاً له منها .. بل أطفال، سيسهر ذات يوم ينظر لها وهي نائمة بجواره، وستسهر هي على راحته إن مرض، لن يفرق بينهما شيءٌ سوى الموت...

ترتدي جيبة سوداء واسعة، تعلوها بلوزة تركواز اللون، ليست واسعة أو ضيقة، لكنها بالكاد تظهر تفاصيل قوامها المتناسق الرشيق. نهداها بارزان متناسقان مع كامل قوامها، الذي يشبه قوام الغزال التي تراقص أعلى ربوة خضراء مع رفيقاتها.. وردة جميلة لا تحتاج إلى قطرات الندى لتبدو ساحرة تخطف العقول. ترتدي تحجيبة عصرية تلفها كالخليجيات.

تفحصها جيدًا وهي تدنو، تمنى أن تكون صديقة لتلك التي لازالت تتحدث معه بصوتٍ غير مسموع، وأن تأتي لتقف معهم، لتكون فرصة ليتحدث إليها.

بالفعل دخلت قاطعة حديث علا:

- علا أنا جبت من شئون الطلاب ورقة شروط كل الأقسام. مجموعي ممكن يدخلني قسم آثار إسلامي...

- مرااام، أعَرَفِك... طارق في ثانية أثار يوناني...

قاطعها طارق، ولايزال تحت تأثير انبهاره بها، قال لمرام مازحًا: حرام عليه...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

- حرام عليك.... بقالي ساعة باكلمك وانت مابتردش عليا؟!! يا ترى اية اللي واخد عقلك مخليك مبتسم قوي وماسك السيجارة بقالك دقيقتين قربت تحرق صوابعك...

قالتها بسمة وقد صرَّ ما بين عينيها، قاطعة بعنف شديد شريط ذكرياته، الذي يمر أمامه بالتصوير البطيء. أوقفت سيل ذكرياته المتدفق، نَظَرَ لها متعجبًا، مبتسمًا ابتسامة تائهة، شارد الذهن، فلا يزال تحت تأثير مخدر التفكير في مرام. لكن سرعان ما زالت حلاوة ولذة هذا التأثير، مع اقتحام صوت بسمة المزعج العالي فجأة. أطرقت رأسها قاطبة جبينها، هتفت في غضب شديد:

- يانهار أسووووووود عليا وعلى اللي جابوني. طافية سيجارتك وقعت على الأرض؟ والله انا ماعارفة الاقيها منك وللا من ابنك اللي كل شوية عاوز يغير... أه صحيح احنا عاوزين بامبرز. مافيش هنا غير حفاضة واحدة.. انزل هات بامبرز وبالمرة لبن وزبادي وفينو ومسحوق غسيل وكلور، وأوعى أما أمسح الهباب الطافية اللي وقعت على الأرض دي... ماتنساش أي حاجة من اللي قولتهالك وبالذات البامب...

أمر واحد تردده "بسمة" يكفي لأن تجعله موضوعا تتحدث فيه بلا توقف لمدة نصف ساعة. متنقلة بين عدة مواضيع، دون أن يتفوه طارق ولو بنصف كلمة.

بسمة امرأة فاتنة، ذات أنوثة متفجرة، جمالها يافع، مثل ليدي أتت من العصر الكلاسيكي الإنجليزي. طولها الفارع يمثل جزءًا هامًا في جمالها وشخصيتها أيضًا. قوامها مثل قوام عارضات الأزياء. جسدها كامل الأنوثة، تظهر هذه الأنوثة حينما ترتدي قميص نومها الأزرق المثير كاشفًا عن بشرة ملساء ناعمة، تتجلى أنوثتها تحت الأضواء الحمراء في غرفة النوم، وظهرها الأبيض الشمعي الذي يتدلى عليه شعرها الطويل المموج الناعم الكستنائي اللون. تحافظ دائمًا على رشاقتها وقوامها ومعجبة جدًا به.. عينان سوداوان واسعتان، تزينهما رموش كاحلة.. كثيرًا ما تلحظ نظرات النساء الحاسدة لها عندما تمر أمامهن، تسمع تمتمتهن وكلامهن عليها الذي ينم عن حسد وغيرة. اعتادت أيضًا نظرات انبهار الرجال بها عندما تقع أعينهم عليها وتتجول على جسدها وتكوينها المتفجر بالأنوثة، برغم أن ملابسها لا تظهر تفاصيله، فهي اعتادت منذ أن كانت في منزل أهلها أن ترتدي ملابس محتشمة، الشيء الذي أسعد طارق كثيرًا، لأنه يغار عليها ويعتبرها ملكه وحده.

يقولون إن ألفة جسد المرأة يفقد لذة اللهفة عند الرجل بمرور الأيام، لكن بسمة لم تعط هذا الشعور فرصة ليتسلل داخل طارق. كانت دائمًا متجددة، ولم تدع حملها في يوسف أو كثرة ممارستها الحب مع طارق تفسد جمال جسدها أو أنوثتها الفياضة...

مكتبة عابث الإلكترونية

تصغر طارق بحوالي ٥ سنوات، متقلبة المزاج مثله، وحيدة والديها. برغم تدليلهما لها. لكنها لن تنسى أنها عاشت هكذا وحيدة دون أخ أو أخت، وكثيرًا ما كانت تنام باكية بمفردها في حجرتها، لكنها تنسى كل دمعة سقطت منها بمجرد أن تتذكر أن الله عوضها خيرًا، لأنها تزوجت الشخص الوحيد الذي أحبته في حياتها، فقد أحبته منذ أن عرف قلبها الحب لأول مرة...

بالرغم من أن فارق السن بينهما ليس كبيرًا، لكن طارق يعتبره فجوة فكرية بينهما، لذلك كان دائم البحث عن أي كلمة أو تصرف أو فعل يجعلها لا تشعر بهذه الفجوة، فهو عاش فترة شبابه ومراهقته كما ينبغي. وفعل فيها كل شيء يمكن أن يفعله شاب مثله، لذا يسعى دائمًا أن يعوضها عن فترات حياتها التي عاشتها وحيدة، خصوصًا مرحلة المراهقة التي لم تعشها مطلقًا. ويرى أنه ليس من العدل أن ينقلها قطار العمر السريع من مرحلة الصبا البكر إلى مرحلة الزوجة والأم مباشرة، دون أن يمر بمرحلة المراهقة.

كانت بسمة تغير كثيرًا عليه، تقتحم عزلته دائمًا، تخشى أن يتذكر أي فتاة أخرى، خصوصًا مرام التي تعرف عنها أشياء كثيرة، من خلال حكاياته عندما يتحدث عنها رغمًا عنه. كثيرًا ما يجد نفسه يتحدث معها عن مرام لمدة عشر دقائق دون أن يدري، فيصمت ويعتذر، غارسًا في قلبها خنجرًا من الألم مسمومًا بذكريات حبه لمرام. فتبكي في صمت، وما أصعب هذا البكاء...

انتهت بسمة من كلامها لطارق، بعد أن سردت له قائمة كبيرة من متطلبات المنزل وكتبتها في ورقة، أخذها منها في صمت دون أن يتفوه لها بكلمة واحدة، مما جعلها تتأكد تمامًا أنه كان يفكر في مرام لحظة اقتحامها انفراده بنفسه. أخذ مفاتيحه ومحفظته من بنطلون بدلته، وعلبة سجائره من على المنضدة...

وجلست بسمة على سريرها تبكي...

*****

شتاء ٢٠٠٣ - المعادي

في أحد شوارعها العريضة، لا تجد ورقة ملقاة على الأرض. أشجار عالية وارفة عتيقة على الصفين وفي المنتصف لتلقي بظلالها. صوت الطيور يدوي في جميع الأنحاء معلنًا عن مولد يوم جديد، مساكن أنيقة واسعة، بكل عمارة بوابها الخاص الجالس أمام بوابة كبيرة من الفوفورجيه الفاخر، لمدخل فسيح أرضيته سيراميك، شرفة واسعة بكل شقة، تحتوي زاويتها على كراسي تلتف حول منضدة.

في إحدى هذه الشرف تجلس بسمة تحتسي نيسكافيه في شرود، قلبها يخفق بقوة، فاليوم ليس عاديًا؛ إنه الخميس وستذهب بعد ساعة إلى المكتبة الكائنة في آخر الشارع، التي يعمل بها طارق الشيمي ذو الـ ١٩ عامًا يومين في الأسبوع (اثنين وخميس)، يكتب رسائل علمية لصاحب المكتبة، الذي يجمع له كمية من الشغل مقابل أن يكتبها طارق

مكتبة عابث الإلكترونية

ويحاسبه الورقة بـ ٢٥ قرشا. هذه كانت طريقة طارق للحصول على المال، حيث كان يفعل نفس الشيء لمكتبات أخرى في أماكن مختلفة. كان شخصًا عصاميًا، لا يحب أن يطلب من والده المال، حتى لا يقع تحت تحكمه ويكون مبررًا ليتدخل في دراسته وكشف أمر رسوبه أول سنة ويوبخه لذلك.

بسمة، التي تبلغ من العمر ١٤ عامًا في الصف الثاني الثانوي العام، تعرف مواعيد طارق جيدًا، وتذهب إليه في كل مرة بخمس ورقات، متظاهرة أنها مُتعجلة، وتلح عليه أن تقف ليكتبهم لها في الحال، فيوافق على مضض. وبينما ينمك هو في الكتابة، تقف أمامه تنظر له بعيونٍ ممتلئة بالحب والعشق، تتفحص شوقًا تفاصيل وجهه، تشبع عينيها من ملامحه، بالقدر الذي يجعلها تتحمل إلى أن تراه في المرة القادمة بنفس الحجة.

غادرت المكتبة، وسارت في الشارع هائمة شاردة، إلى أن وصلت منزلها. دخلت غرفتها المليئة بالدباديب، التي تشتريها لنفسها في كل مناسبة، على اعتبار أن شابًا معجبًا بها قد أهداها كما تقول لصديقاتها، مضيفة - كذبًا - بعض الحبكات الدرامية ليصدقنها، حتى أنها نفسها كانت على وشك تصديق كذبها.

بالفعل يوجد شباب كثيرين حاولوا أن يتعرفوا عليها لكنها كانت ترفض بشدة وتصُدُّهم حيث كانت تحب طارق، ولا تعترف بشخص غيره...

نظرت إلى الورق الذي كان يمسكه منذ قليل، اشتمت رائحته، فوجدت أن طارق يستخدم نفس عطر أبيها. ذهبت في اليوم التالي للمشتري له زجاجة (original) لتهديها له في المرة القادمة بعد يومين. اندهش طارق كيف عرفت النوع الذي يستعمله، أخبرته في خجل، والحت عليه أن يقبلها. ظل ينظر لها مبتسمًا في صمت، فارتبكت ووضعت العلبة على مكتبه المزدحم بالأوراق، وأخذت ترتبه، بينما هو لايزال ينظر لها مبتسمًا ومعجبًا بما تفعله. استرقت حينها نظرة، فأحمر وجهها خجلًا. قبل أن تنتزع عينيها من وجهه وتمضي مسرعة...

*****

سمعت مفاتيح طارق من خارج الشقة تولج في الباب، ما بين ثانيتين وثلاث ثوانٍ، مسحت دموعها بباطن كفيها في عجالة، وتحولت بسمة من البكاء الشديد المنهمر، إلى الابتسامة والتظاهر بأنها على مايرام. دخل ووضع قائمتها الطويلة على السفرة، دلف إلى مكتبه ملتقطًا في طريقه اللاب توب.. نهضت من سريرها منتفضة، قائلة له في انفعال:

- انت مش هتقعد معايا خالص؟ عاوزة أتكلم معاك شوية، أنا طول عمري وحيدة ماليش أخوات اتكلم معاهم، وانت يوم أجازتك بتسيبني لوحدي في البيت زيي زي أي كرسي أو ترابيزة...

قابل طارق غضبها بغضب أكبر قائلًا:

- يووووووووه بقى، انتي دايما كده لازم تنكدي عليه..

مكتبة عابث الإلكترونية

اقتربت منه بخطواتٍ هادنة، واضعة يديها على كتفه، ثم لفتها حول رقبته.. قبلته قبلة ساخنة، فهم منها بعد جزء من فيمتوثانية احتياجها له، قالت له بابتسامة منكسرة، تعلوها نظرة حزينة في عينيها:

- أنا ببقى مستنية يوم الخميس بفارغ الصبر عشان نقعد مع بعض. وانت عاوز تسيبني وتدخل مكتبك؟

تغيرت ملامحه، وضع يده على خصرها:

- فاكرة زماااااااااان لما كنتي بتستي برررررضه يوم الخميس عشان تجيلي المكتبة؟

- آه فاكرة يا رخم، الظاهر اني هافضل كده طول عمري مستنياك... ومستنية حاجات كتير مفتقداها منك..

قالتها بخجل مطأطئة رأسها، فقاطعها وجذبها إليه برفق:

- ليه بس يا بسمة بتقولي كده؟ منا معاكي أهو يا حبيبتي إزاي الجمال ده كله يروح ويختفي في العياط؟ أقولك على حاجة؟ فاكرة زمان لما جتيلي المكتبة وإدتيني إزازة البرفان ورتبتي مكتبي؟ وبصيتلك لقيتك في ثانية اتبخرتي؟

- آه طبعا فاكرة، عمري ما انسى أي موقف معاك...

مشى بأنامله على شعرها الناعم، حملها كطفلةٍ صغيرة، دخل بها إلى غرفة النوم، وضعها على السرير برفق:

- ساعتها قلت في بالي ايه البت بنت المجنونة دي؟!! وعاوزة مني اية بالظبط؟! ياربتها كانت كبيرة شوية كنت خرجت معاها لكن دي طفلة عندها ١٤ أو ١٥ سنة بالكتير يعني مافيش منها أي رجا، أي نعم جسمها جامد بس الله أعلم عقلها عامل إزاي. ممكن تروح تقول لأبوها، والناس بتاعت المعادي واصلين، وممكن يأذيني لو عرف إني خرجت مع بنته...

ابتسمت واستقرت في حضنه.. كان ساندًا على كوعه ممددًا جسده على السرير:

- كنت عاوز تخرج معايا يا طارق؟

عدل طارق من وضعيته، سند رأسه مسترخيًا في صدرها، واستندت على كوعها مثلما كان يفعل منذ لحظة، فأصبحت رأسها فوق رأسه مباشرةً. قبلته بابتسامة هادئة على جبينه، أردف قائلًا:

- آه. بس مش عاوز أخرج معاكي عشان بحبك بصراحة، انتي كنتي بالنسبالي عيلة صغيرة وأنا كمان كنت شاب في أول سن المراهقة، ١٤ سنة و١٩ سنة.. بنت في ثانوية عامة وواحد في كلية، أنا كان اللي مخليني مندهش هو جسمك الفظيع، كنتي مالكيش حل، ومازلتي يا حبيبتي، ساعتها في نفس الأيام دي... كانت دماغي مشغولة بحاجة تانية

مكتبة عابث الإلكترونية

خالص مخلية حالي متشقلب، في نفس الأيام دي كان أول الدراسة وكنت واقف مع شوية بنات بحاول أتعرف على أي بنت فيهم أكمل معاها السنة بدال نهى، وفجاة لقيت مرام جاية علينا من بعيد، كان نفسي تكون صاحبة البنات اللي أنا كنت واقف معاهم، وقلبي طار م الفرح لما جت وقفت معانا، و.....

*****

لم يأبه طارق لعلا التي كانت تتحدث معه، ناظرًا إلى مرام التي وقفت معهم، لتخبرهم أنها أحضرت ورقة شروط الالتحاق بالأقسام، وجه حديثه لها مازحًا:

- حرام عليكي في حد يدخل قسم آثار إسلامي؟ ده صعب جدًا وفيه سكاشن كتيرة، عندك آثار يوناني أسهل منه بكتير...

حدجته بتعجب شديد واستنكار، لم تجبه أو تعيره أدنى اهتمام، كأنه ليس موجودًا. نظرت لعلا قائلة لها بانفعال:

- يلا يابنتى عشان نصور الحاجات اللي جبتها دي، أنا جبتها بالعافية أساسًا، فيارِيت بسرعة عشان ألحق أرجع البيت بدري...

موقف لم يحدث له من قبل، ولم يتصور أنه سيحدث يومًا ما. شعر بالإحراج، أحس أن جميع طلاب جامعة عين شمس يأتون إليه من كل

فج عميق، يتزاحمون فيما بينهم لينظروا له، ويضحكوا عليه بسخرية. كرر سؤاله لها بنبرة بها حدة على استحياء:

- على فكرة يا آنسة... أنا باسألك... إذا كنتي محتاجة أي مساعدة... أي حاجة في....

بأرت كلامه بنظرة أخرى أكثر حدة، تنم عن مدى شعورها بالضيق من توجيه كلامه لها. شعر طارق بالعرق يقطر على جبينه من نظرتها ومعاملتها له، أحس بسهم من التوتر أصابه في أعماقه حتى فوجئ بنهى وراءه وقد نبتت من عدم:

- يللا يا حبيبي عشان نروح الزعفران مول..

قالتها وهي تشد يده، ناظرة لهن نظرة تحمل لغة تعرفها الفتيات جيدًا فيما بينهن، برسالة منها أنها المالكة الوحيدة له، وفي حقيبة يدها صك يثبت هذه الملكية...

وبالفعل وصلت لهن جميعًا هذه الرسالة، وما إن التفت وراءه ليخبرها أنه سيذهب بعد خمس دقائق، حتى وجدهن قد رحلن. ذهب مع نهى وقد بدا على وجهه الامتعاض والانفعال جراء معاملة مرام له، وبسبب مجيء نهى في هذه اللحظة وطريقتها أمامهن. سألها مزمجرًا:

- مالك يا نهى في إيه؟ هو إحنا كنا متفقين أساسًا نروح الزعفران؟!!

- انت بتعمل إية مع البنات دول؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- هكون بعمل إية يعني؟! بعرض عليهم مساعدتي يمكن يكونوا محتاجين حاجة.. انتي ناسية إني عضو اتحاد الطلاب؟

- إتحاد إيه؟! انت متعملهم عليها؟ ده احنا دافنينه سوا. فاكر لما عملت نفس الموضوع ده معايا؟

- آه فاكر ياختي. عاوزة إية يعني؟

قالها بعدم اهتمام، وهو يلتفت برأسه في كل الاتجاهات باحثًا عن مرام، يريد أن يعرف في أي اتجاه ذهبت، وكيف اختفت فجأة!!

- مش عاوزة حاجة يا روميو، بس خلي بالك لو حاولت تلعب بديلك معرف، وهيكون آخر يوم في عمرك.. يللا نروح الكافيتريا نشرب حاجة، أنا مصدعة من محاضرة اليوناني، وكمان عشان أديلك اللي أنا كتبته، إحنا في أول السنة ولازم أخليك أحسن واحد في اليوناني على مستوى الجامعة كلها.

ذهب معها ساخطًا متذمرًا. كان سيرفض بانفعال، لكنه ذهب معها إلى الكافيتريا، علّه يجد مرام هناك.. لاحظت نهى أنه ليس طبيعيا، أين اشتياقه لها وهو الذي لم يقابلها طوال الإجازة سوى مرتين؟ شعرت حينها بخطبٍ ما، لكنها تظاهرت بعدم الاكتراث.

جلسا على أحد الأرصفة، ولايزال يلتفت في كل الاتجاهات، يبحث بعينين ثاقبتين عنها، حتى رآها في الخارج من خلال سور الجامعة الحديدي. وضع كوب النسكافيه بجانبه في هدوء، ونهض قائلًا:

- نهى باقولك إية أنا عشر دقايق وراجع. خليكي مكانك أنا هرجع قبل ما النسكافيه يبرد.

جغرافيًا، كان بينه وبين مرام بضعة أمتار. لكنه مضطر أن يخرج من أقرب باب، وهو باب حقوق، وفي هذه الحالة يحتاج أن يهرول، بل يعدو مسافة ثلثمائة متر تقريبًا. ليلحق بها عند ترماي عبد العزيز فهمي أو "زقزوقة" كما يطلق عليه طلاب جامعة عين شمس.

كعدّاء في أوليمبياد أثينا؛ أخذ طارق المسافة في زمن قياسي، راكضًا حتى لحق بمرام قبيل محطة الترماي ببضعة أمتار. وقف أمامها معترضًا طريقها، بالكاد يلتقط أنفاسه المتسارعة..

- هـ هـ هـ مـ هـ هـ هـ ممكن أعرف انتي بتعاملينى كده ليه؟ وبتبصيلي كده ليه؟ وبتكلميني بقرف ليه اساسًا؟

نظرت له نظرة جادة... حادة، رفعت حاجبيها قائلة باستغراب:

- أنا أصلا ماكلمتكش خالص، ولا وجهتلك أي حرف!! انت جاي جري عشان كدة؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- آه.. عاوز أعرف أنا عملتلك اية؟ ليه المعاملة الجافة دي؟ ليه بتكلميني من تحت ضرسك؟ عشان حلوة شوية؟ في أحلى منك كتير وماقدروش يعاملوني المعاملة دي... ماحصلتش ولا هتحصل...

- انت أساسا ماتهمنيش في حاجة.. ومايهمنيش كلامك ده كله وبعد إذنك سيبني أمشي...

قالتها له بانفعال، محاولة أن تمر بجانبه، لكنه اعترض طريقها ثانية، قائلا لها مُلحًا:

- طب هوصلك.. بليز ماترفضيش.

- انت ليه مش قادر تفهم؟ أنا مش من النوع اللي انت فاهمه

- منا عارف. بس أنا حاسس إني ضايقتك وماينفعش أسيبك تمشي كده، انتي هتركبي إيه..

اصطدم إلحاحه بحاجز رفضها له، قاطعته بهدوء وهي تنظر إلى الأرض وقد نضبت...

- بعد إذنك سيبني أمشي. أنا مش بتاعة مشاكل ومش بحب أعمل مشاكل...

مرت بجانبه أمام نظراته اليائسة، متجهة إلى محطة الترماي بخطواتٍ حثيثة. بعدت عن نظره شيئًا فشيئًا. سرت قشعريرة في جسده،

مندهشًا من تلك الفتاة التي باغتته بأسطولها وأسلحتها الجوية وقواتها البرية، فاحتلته فجأة دون سابق إنذار، ورفعت لواءها أعلى ربوة قلبه، معلنة السيطرة عليه واحتلاله، فانهزمت دولة قلبه أمام جيشها العتيد.

علق نظره عليها بترقب، بينما أشخاص كثيرون يتحدثون بداخله ويتبادلون النقاش بشأنها، إلى أن غابت عن نظره، ففابت الشمس، وتلبدت السماء بالغيوم، وانهمر المطر فجأة. نظر إلى السماء داعيًا ربه أن يجعلها من نصيبه، ويعيش مخلدًا في جنتها إلى آخر لحظة في حياته. وبينما ينظر للسماء، سقطت قطرة، فاستقرت في عينه.

*****

فوجئ بدمعة سقطت من عين بسمة، فاستقرت في عينه. أدرك أنه ظل لمدة ساعة ونصف يحكي لها بحرقة العاشق المكلوم عن أول حوار دار بينه وبين مرام.. لم يشعر بنفسه وهو - لا إراديًا - يفرد أمامها صفحات ذكرياته المنقوشة عليها أسطورة حبه مع مرام، كنقوش على جدران معبد فرعوني، بينما لازال مستقرًا في حضنها، وهيَ متكئة على كوعها...

يعرف... ويعترف أنه مصاب بمرضٍ مزمن: الحديث اللا إرادي عن مرام. رغمًا عنه حَوَّل حديثه مع زوجته من موقف حدث له معها قديمًا، إلى حديث مفصل عن ذكرياته مع مرام، بينما هي طوال هذا الحديث تنغرط في البكاء بصمت، حتى لا تلفت انتباهه وتقطع حديثه

مكتبة عابث الإلكترونية

الذي يحكيه مبتسمًا هانئًا وهو يتذكر حبه القديم الذي لم يشف من تذكره بعد.

نظر لها متأسيًا، لا يدري ماذا يقول، فأي كلمة تخرج من فيه ستكون حماقة. مد يده ليمسح دموعها، فأشاحت بوجهها الذي يحمل ملامحها المنكسرة عنه في هدوء. عدلت من وضعيتها وخرجت مسرعة. نظر لها في صمت، عاجزًا عن الكلام، عند باب الغرفة وقفت هنيهة واستدارت، نظرت له بعينين حمراوتين غارقة في الدموع...

- آنا آسفة إن دمعتي أزعجتك وخلتك تقطع حديثك عنها. كان المفروض طالما قدرت أمسك نفسي أكتر من ساعة وانت بتحكي، اني أحاول أقاوم شوية كمان وماخليهاش تنزل.

نكس رأسه في أسى، وأردفت هي متسائلة بتعجب:

- لكن إزاي؟!! لو كنت قعدت ساعتين وتلاتة وللفجر ماكنتش هتبطل كلام عنها. عمومًا آسفة مرة تانية، المرة الجاية هحاول أمسك نفسي.. يا أكتر حد حبيته في حياتي.

انخرطت أكثر واكثر في البكاء.. ذهبت مسرعة إلى الحمام وأغلقته على نفسها من الداخل، كل هذا أمام عجزه عن إيجاد كلمة تخرج منه، فهو يعلم تمامًا حجم الخطأ الذي اقترفه رغمًا عنه.

طرق باب الحمام لترد عليه، لكن صوت بكائها كان عاليًا مغلفا بالأسى والحسرة.

"التحدث مع امرأة وهي تبكي كتصفح جريدة وسط عاصفة"

إيمانًا بهذه الحكمة، كفَ عن الطرق، وجلس أمام باب الحمام مستندًا بظهره عليه، بينما كانت تجلس خلف نفس الباب من الداخل.. مشهد معبر عن طبيعة العلاقة التي آلا إليها.

ظلا هكذا لعشر دقائق كاملة، إلى أن استيقظ يوسف باكيًا، فنهض طارق وفتحت بسمة الباب بسرعة مهرولة إلي غرفة نوم طفلها. مرت بجواره، فأمسك معصمها محاولًا جذبها إليه، لكنها رفضت حتى النظر إليه. قالت له باقتضاب وهي تنظر للأرض:

- طارق معلش مش قادرة أتكلم معاك دلوقت.. ممكن تسيب إيدي؟

أرخى قبضته عن معصمها في بطء وهو ينظر لها نظرات شاردة لا معنى لها، دلفت إلى حجرة يوسف لتحضنه، فتبعها ووقف عند الباب، قائلًا لها بنبرة تنم عن أسى:

- ولعد إمتى يا حبيبتي هنفضل....

قاطعته بانفعال:

مكتبة عابث الإلكترونية

- انت بتسألني أنا!! وبعدين ماتقولش يا حبيبتي.. انت تعرف إية عن الحب؟ مش أنا اللي حبيبتك يا طارق... حبيبتك هي مرام لكن أنا ولا حاجة أنا متأكدة من ده... وخلاص أنا عايشة معاك على كده وراضية.. مش بإيدي... أنا عذراك يا طارق، انت بتحب مرام غصب عنك مش بإيدك برضه.

صمتت قليلًا، أمام عجز طارق عن إيجاد كلمة مناسبة تداري خجله، فأردفت:

- بس أنا ذنبي اية.؟ ذنبي اني ماعملتش أي علاقة قبلك أندم عليها أنا كمان؟!! وللا ذنبي إن انت أول وآخر رجل أحبه في حياتي وأول دقة لقلبي كانت ليك؟ تفتكر أنا كنت غلطانة؟!

- لا ماكنتيش غلطانة....

قالها في خجل ثم أردف:

- أنا هانزل اقابل إسلام عشان بقالي كتير.

أولته ظهرها وقاطعته بنبرةٍ متهدجة ولامبالاة..

- مش عاوزة أعرف أي تفاصيل عنك... اتفضل إعمل اللي انت عايزه...

ارتدى ملابسه في تؤدة وهو يفكر ما الذي يفعله؟ أو ما الذي يجب عليه فعله بعد ذلك؟ مشكلة كبيرة ليس لها حل تكتنف بيته وحياته.. أصبحت سماء حياته غائمة بسببه.. ماذا سيفعل حيال أمر مرام التي لازالت تحتل قلبه وعقله؟ ماذا سيفعل حيال بسمة الغاضبة المنكسرة؟

يوجد في عالمنا هذا أسئلة كثيرة خُلقت هكذا بدون إجابة، هذه كانت عينة منها...

انتهى من ارتداء ملابسه، أخذ مفاتيحه ونزل. لم يعرف حقًا أين سيذهب، لكنه شعر بالفعل أنه يحتاج إلى التحدث مع صديق عمره "إسلام"، صندوقه الأسود الممتلئ بأسراره كلها. المسافة بينهما حوالي ساعتين في حالة السير، فقرر أن يسيرها. وقف سائدًا على سيارة، أخرج هاتفه ليتصل به، واتفق على أن يقابله بعد ساعتين في المقهى الذي اعتادا أن يجلسا عليه.

وبعدما أنهى مكالمته، فتح ملفا مخفيا في تليفونه، يحتوي على عدة ملفات مخفية داخل بعضها البعض، بداخلها في النهاية كل الصور والفيديوهات التي فيها مرام. من بين هذه الصور كانت صورة لها بزاوية غير عمودية، يبدو أنها التقطت بدون علمها...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

شهد عام ٢٠٠٣ طفرة في عالم تكنولوجيا الاتصالات، كان الهاتف الخلوي الذي يحتوي على كاميرا شيئًا نادرا، ليس منتشرًا كما الآن، حينذاك كان طارق معه هذا الهاتف، لمح مرام من بعيد تقف عند مدرج "سفلي" خلف أحد الأعمدة، واضعة بجوارها منضدة تستخدمها في الرسم المعماري للمساجد. فالتقط صورة لها دون أن تلاحظ، كي يراها ليل نهار. وبينما كان ينظر لها بتركيز شديد، قطع تركيزه إسلام، قائلًا له في دهشة:

- خلي بالك يا معلم نهى لو عرفت إنك عاوز تكلم البنت بتاعت آثار إسلامي هتخلي أيامك سودة، أنا حسيت من كلامها إنها حاسة بحاجة مش طبيعية فيك.

- انت مش عارف حاجة يا إسلام، مهما حكيتلك مش هقدر أوصفلك بحبها قد إيه!! مافيهاش غلطة...

- ماانت كنت بتقول كده على نهى برضه!

- لالالالا.. دي حاجة تانية أنا متأكد من اللي بقولهولك، عمري ما حسيت بالشعور ده قبل كده

- عمومًا خلي بالك وخلاص، نهى مش من السهل تسيبك تروح لواحدة غيرها.

- سيبها على الله أنا مايهمنيش دلوقتي غير إني أتعرف على مرام واكلمها وارتبط بيها، امشي انت وانا هستناها لحد ما تخلص المحاضرة يمكن اعرف اكلمها...

- مش عارف أقولك اية. ربنا يستر عليك من نهى.. سلام

ظل لأكثر من ساعتين ينتظر انتهاء المحاضرة، حتى وجد الطلاب يخرجون، ولم يجدها من بينهم، دخل بسرعة من الباب الخلفي، فوجدها جالسة تنقل ملاحظات الدكتور في ورقة، دخل عليها مقتحمًا تركيزها واندماجها فيما تكتبه، واضعًا يده على الورقة التي تكتب فيها:

- ممكن أساعدك؟ أنا خطي احسن من خطك، وأسرع منك كمان، هنقلك كل الحاجات دي في خمس دقايق..

- لا شكرًا أنا خلاص خلصت.. قالتها بلهجة حادة مقتضبة، ثم نهضت وهي ترمقه في تعجب. نهض وراءها ليستوقفها قائلًا بإلحاح وتوسل:

- مرام أنا عاوز أقولك حاجات كتير... أرجوكي ماتعاملنيش كده أنا مااستاهلش كل ده أقسم بالله انا...

- انت اية؟!! وفر على نفسك كلام قلته لمليون واحدة قبل كده، أو روح قوله للبنت اللي دخلت كلمتك يومها...

- نهى؟!! مافيش بيني وبينها أي حاجة. نهى مجرد زميـ..

مكتبة عابث الإلكترونية

قالها كذبًا باندهاش ومكر. فقاطعته بهدوء وابتسامة مصطنعة:

- على فكرة أنا ماسألتكش عن اسمها، ولا عن طبيعة علاقتكم ببعض.

مرت بجانبه، وهرولت للخارج بخطوات حثيثة. كل هذا الذي يلقاه منها يجعله أكثر إصرارًا، لم يزده صدها له إلا تمسكًا بها، ورغبة فيها، وعشقاً لها يزيد في قلبه كل دقيقة. فهو لم ير في حياته فتاة يرتبط بها أصعب منها، ويعلم جيدًا أنه لا يستطيع العيش بدونها.

بعد ثلاثة أيام، حوالى الساعة السادسة مساءً، نهى تتحدث معه، بينما ظل متجهمًا شارد الذهن، يفكر في مرام التي لم تخرج من المحاضرة إلى الآن. نهض وقال لنهى إنه يريد أن يرحل، وبينما كانا عند البوابة الرئيسية يستوقف تاكسي، إذا السماء فجأة أمطرت، فأوقف تاكسي وركبت نهى، أغلق عليها الباب وأعطى السائق عشرين جنيهًا، وأخبرها أنه نسي نظارته بجوار المدرج. حاولت نهى أن تفتح الباب من الداخل لتدخل معه مرة أخرى، لكنه منعها، مكررًا ما قاله بلهجة حادة، وأمر السائق أن ينطلق مغادرًا المكان. وما إن تحرك التاكسي واختفي عن نظره، دخل الجامعة مرة أخرى مسرعًا، جلس أمام المدرج الذي فيه مرام، فاليوم محاضرة الرسم المعماري، وكل الطلبة يحضرون بمنضدة الرسم الهندسي، ويدرك مرام تجد صعوبة بالغة في حملها، تسير مسافة قصيرة ثم تستريح، فوجد أنها فرصة رائعة للحديث معها مجددًا، خصوصًا أن الأمطار تهطل بغزارة...

وبعد ساعة تقريبًا انتهت المحاضرة، خرج الطلاب، من بينهم مرام، التي وقفت لثوانٍ تحت تأثير الدهشة، عندما وجدته جالسًا على درجات السلم، ساندًا رأسه على ركبتيه، وقد غلب عليه النعاس.

ذهبت مرام نحوه، ولازالت تحت تأثير الدهشة من وجوده.. ووضعت يدها الرقيقة على كتفه لتوقظه، وارتسمت على محياها ابتسامة خجولة. كشفت عن غمازتين ساحرتين:

- طارق.. اصحا.. طارق.. طارق.. اصحا..

..... *هل شاهدت قبل ذلك لحظة شروق الشمس على الكرة الأرضية؟*

استشرق نور وجهها الساطع أمام عينيه المرتخيتين، فلم يصدق. دَلُّك عينيه غير مستوعب.. لا شيء يمكن أن يحدث له أجمل من أن يفتح عينيه على مثل هذا الوجه، رقة اليد، عذوبة الصوت، حنان النظرات...

احتاج حينها إلى مساحة مشروعة من الوقت كي يفيق من الصدمة وهول المفاجأة، ظل هكذا لثوانٍ بينما تنظر إلى الأرض وقد علت حمرة الخجل وجنتيها عندما لمست شروده فيها، قال في لهفة بحروف غير مرتبة:

- انتي بت.. بتكلم.. بتكلميني؟ أنا مش بحلم؟

- لا مش بتحلم. انت قاعد كده ليه؟... أجابته مبتسمة في هدوء

مكتبة عابث الإلكترونية

- مستنيكي عشان أشيل لوحة الرسم اللي معاكي، واوصلك عشان المطرة النهارده صعبة قوي.

- انت متعود انك تكدب كده على طول؟ قالتها باستياء مصطنع...

نهض بلهفة، وكاد قلبه يشق صدره ويخرج منه، وجد نفسه فجأة أمام حوار مفتوح معها:

- أقسم لك بالله يا مرام أنا دلوقتي في أصدق حالاتي، إية اللي يخليني اقعد لوحدي ع السلم وتروح عليا نومة قدام المدرج اللي انتي جواه؟ أنا معايا جدول محاضراتك كله واعرف مواعيده وحافظه كمان... تحبي أسمعهولك؟ يوم الاحد من الساعة ١٢ لحد..

قاطعته، بعدما لاحت على صفحتها ابتسامة خجولة تنم عن رضا:

- لالالا مصدقاك يا كداب خلاص

سرح في عينيها لبرهة، ارتبكت ملامحها خجلًا، ثم قالت مسرعة وهي ترمق ساعتها:

- أنا هاستأذنك بقى..

مضت مسرعة، فأسرع وراءها يستوقفها:

- رايحة فيييييين أنا قاعد كل ده عشانك، عشان أشيل منك اللوحة، وخصوصًا إن المطرة شديدة النهارده.

أطلقت ضحكة قصيرة لا تخلو من دهشة:

- آه وتديني الجاكت بتاعك وتحطه على كتفي وبجيلك برد والفيلم الهندي ده؟

- أنا ممكن أديلك عمري اقسم بالله ما هتردد، أنا في أصدق حالاتي دلوقتي قولتلك، وأكيد تقدري تحسي بده.

قالها سارحًا مرة أخرى في عينيها الواسعتين وقسمات وجهها الساحرة، قطعت عليه هذه اللحظة قائلة له بجدية وحزم:

- انت عاوز مني إية يا طارق؟

صمت لثانيتين، وقال مرتبكًا:

- مش عارف أبدأ منين!!

- انكلم بكل صراحة، وكل ما هتكون صريح أكتر هصدقك أكتر، بس قول كل حاجة بصراحة من غير تجميل..... ومن غير كدب.

- تجميل؟!! أي كلام يطلع مني ليكي مش محتاج تجميل يا مرام... بس ممكن نمشي من هنا عشان ماتتأخريش؟ ونتكلم وإحنا ماشيين؟

أومأت رأسها بالإيجاب، وخرجا من الجامعة.. سارا على الرصيف المؤدي لميدان العباسية، طوال هذه المسافة يحاول طارق أن يعبر لها عما بداخله، حتى وصلا إلى مسجد النور وقال لها:

مكتبة عابث الإلكترونية

- بس كده يا مرام... قولتي اية؟

- انت طول الطريق عمال تقول كلام مش راكب على بعضه، أنا بصراحة مافهمتش انت عاوز إية... طارق الباص اللي بركبه قرب بيجي

- هقول هقول... أنا بحبك يا مرام... ماتتخيليش حبي ليكي عامل إزاي... ولا متعرفي.. ولا هعرف أشرحلك.. ولا هقدر أصورلك انتي بالنسبة لى إية... عمري ما حبيت حد قدك. عمري ماهحب حد بعدك. أنا في اصدق حالاتي صدقيني... انتي مش متخيلة أنا...

قطبت بغتة، وقاطعته بجدية مصطنعة

- إحساسك جميل يا طارق، بس برضه انت عاوز مني إيه؟

- عاوز أفضل معاكي لحد ما أموت، نخلص الدراسة ونتجوز، ولو عاوزاني أخطبك دلوقت أنا موافق، أهم حاجة أفضل معاكي ماسبكيش أبدًا...

باغتها كلامه، ونبرته التي تنم عن مشاعر صادقة، رغم أنها كانت تتوقعه...

- مممممم طب إديني فرصة أفكر أسبوع أو اتنين وهرد عليك، أنا لازم اختبرك وأتأكد من كلامك ده يا طارق... لازم اتطمن إنك بتحبني بجد مش بتلعب بيا أو ممكن تعاملني زى أي وا..

قاطعها مُرسلًا لها نظرة احتضنتها فغمرتها:

- انتي مش زي أي واحدة انتي ست البنات وأجمل من ست الحسن وبالنسبالي انتي في كفة وكل العالم في كفة تانية.

انبسط وجهها الخمري المستدير، شعرت بشيء من اللذة في كلامه، اقتطعت هذه اللذة عندما رأت الميني باص يأتي من بعيد متمهلًا بسبب مياة الأمطار التي توقفت منذ ربع ساعة بعد أن غمرت الشوارع. شعرت بضيق لم تنجح في إخفائه، فاستدرك قائلًا في عجالة:

- بصى يا مرام أنا مش هقدر استنى كل ده

- خلاص أسبوع يا طارق وهرد عليك

- ولا يومين.. أنا مش هستنى أكتر من يوم...

- إزاااااااااي؟ ماينفعش!

- لا هينفع.. ومش يوم كامل كمان، أنا بكرة هقابلك تقوليلي ردك، ومش هنام لحد بكرة..

اقترب الميني باص أكثر... واستعدت مرام لتستقله... أكد عليها:

- مراااام.. مش هنام لحد بكرة

- مممممم ربنا يسهل.

مكتبة عابث الإلكترونية

- مش هنا!!!!!!!!!م.. مش معرف أنام بجد... هقعد أصلي وادعي ربنا إنك توافقي

أخذت منه منضدة الرسم، أرسلت إليه نظرة ثاقبة، شعر حيالها بخضوع تام ونشوة عارمة. صاحب تلك النظرة ابتسامة على استحياء، قبل أن تستقل الميني باص. ثم تولّت عنه وتركته يصلى نار التفكير.

سار مسافة كبيرة، يفكر ويضع أمامه كل الاحتمالات، خائفًا من ردها، حتى ذهب للبيت. دخل حجرته، وظل لساعتين كاملتين يمشي داخلها ذهابًا وإيابًا. لا يستطيع النوم. رأسه لم يكف عن التفكير، قلبه لم يكف عن الخفقان، اتصل به أصدقاؤه كي يسهر معهم، لكنه رفض بحجة أنه يشعر بالتعب والإرهاق.

أضناه انتظار الوقت وهو يمر كسلحفاة، ومراقبته لعقارب الساعة اللعينة، التي أصابها الشلل ولم تتحرك، أدرك أن للانتظار طعم... لكنه شديد المرارة.

امتلكه التوتر أكثر بمرور الوقت.. لازالت الساعة الواحدة والنصف صباحًا.. ترك حجرته الدافئة، ونزل ليجلس في مقهى بجوار منزله، انزوى في إحدى زواياه أمام التلفاز مباشرةً. برغم برودة الجو، لكنه تصبب عرقًا قرابة ساعتين، ثم نادى على النادل فوجده يغط في النوم غطًا، مطلقًا شخيرًا منتظمًا أشبه بمولد كهرباء، فترك على المنضدة ثمن الشاي "الخمسينة" الذي لم يشربه، ولم يطلبه، عاد أدراجه،

وظل يفكر حتى الفجر. أطفأ نور الغرفة، وصلى في الظلام، وهذا نادرًا ما يحدث، إلى أن غلبه النعاس، فاستسلم طواعية له، ولايزال في مكانه على سجادة الصلاة...

*****

نظر طارق حوله، فوجد أنه قد سار مسافة حوالي كيلومترين دون أن يشعر، اتصل بإسلام ليخبره أنه وصل المقهى، فوجده جالسًا ينتظره.. سافحه وجلس أمامه منكسًا رأسه، فنظر إليه إسلام بقلق:

- يا طارق اللي انت فيه مش صح، انت طبعًا زعلان من مراتك كالعادة بسبب مرام.

- أنا يا إسلام بموت كل يوم مليون مرة، مش ببطل تفكير فيها، على طول بحن لأيامها، ودة مأثر عليا وعلى حياتي مع بسمة.

- طارق انت لازم تشوف حل، أنا عشت تقريبًا كل لحظة معاك انت ومرام، وعارف إنها ماتتعوضش، بس وبعدين طيب؟!! اللي حصل كان خارج إرادتكم انتو الاتنين، انتوا الاتنين غلطتم، بس انت غلطت أكتر لأنك مافكرتش قبل ما تاخد قرار، اتهورت واستخسرت تستخدم عقلك، أنا مش عاوز أبقى قاسي عليك، بس انت غلطت يا طارق ولازم تعاقب، ولازم تدفع تمن غلطتك، تمن الأيام السودة اللي عاشتها مرام بعد ما سيبتها.

مكتبة عابث الإلكترونية

قاطعه طارق في هدوء:

- هو أنا جايلك عشان تعرفني الكلام ده؟ منا عارف يا إسلام وحاسس بالذنب، برغم إني معذور، أنا عارف إنها دلوقتي متجوزة، وإن من رابع المستحيلات إننا نرجع لبعض تاني، أنا بس كل اللي باتمناه إني أقابلها أمسك إيديها ساعة واحدة، ولو كتير يبقى على الاقل نتكلم خمس دقايق، أو حتى دقيقة، أو على الاقل خالص أشوفها من بعيد لمدة نص دقيقة ومش شرط تشوفني هي، أنا بموت يا إسلام وأكيد انت حاسس بيا، أنا عملت أكتر من ١٥٠٠ سيرش ع الفيس بوك عليها، بأسامي مختلفة وبكل الاحتمالات ومالقيتهاش، بمشي في الشارع أدور على وشها في الوشوش اللي حواليا، انت حاسس بيا؟

- طبعًا حاسس بيك، لإني الوحيد اللي يعرف انت كنت بتحبها قد إية، بس في حاجة خايف أقولك عليها عشان ممكن تزعلك، بس لازم أفكرك بيها.

- قول يا إسلام...

قالها بعد أن خرجت دمعة من عينه اليسرى، ظلت متعلقة لم تسقط.

- انت لازم تنساها، انت راجل متجوز وعندك ابن ربنا يخليهولك وزوجة مش ممكن تلاقي زيها دلوقتي، وبتخلصلك.

سكت هنيهة متأسيًا من بكاء طارق، أستطرد قائلًا:

- ضد الصدمة دي مني كمان أحسن ما حد غيري يديهالك.. هيَّ أكيد سعيدة مع جوزها، لأنه عارف قيمتها، ومخلها أسعد إنسانة في العالم...

أنا عارف ان كلامي صعب، لكن انت يا طارق لازم تنزل لأرض الواقع، لازم أعرفك ان مش صح اللي بتعمله، انت خسرت واحدة قبل كده بقلة عقلك وغباءك وبهورك، دلوقتي انت بتحاول تخسر التانية اللي في البيت، بس المرادي هتبقى خسارتك أكبر، هتخسر ابنك.... لو انت كنت اناني زمان مع مرام، حاول ماتبقاش أناني دلوقتي مع بسمة ويوسف، انت قوي يا طارق وهتقدر تنساها..

مسح طارق دموعه:

- أنا في نسيانها أضعف إنسان على وجه الأرض، مهما قلتلي أكتر من كده مليون مرة، مش عارف أبطل تفكير فيها، مش بمزاجي، ماحدش حاسس بيا للأسف... اللي جوايا أساسًا صعب يتوصف أو يتقال...

- هقولك حاجة يا طارق وماتفهمنيش غلط، انت لازم تروح لدكتور نفساني يمكن يلاقيلك حل، واوعدك إن ده هيكون سر بيني وبينك.

قاطعه بصوتٍ أجش...

مكتبة عابث الإلكترونية

- انت إية اللي بتقوله ده يا إسلام؟ للدرجادي انت شايفني مجنون؟!! شكرًا يا عم اسلام، شكرًا على الإهانة، أنا ماشي

نهض في هدوء وانكسار، متعجبًا من كلام صديقه، الذي ناداه محاولًا أن يُصلح ما قاله...

- استنى ياطارق رايح فين أنا مش قصدي والله، إستنى بس.

وقف على بعد أمتار منه، التفت له مبتسمًا:

- أنا آسف إني نكدت عليك يا إسلام، وعارف إنك ماكانش قصدك إنك تقول عليا مجنون، بس مهما رحت لدكاترة الدنيا مش هيعرفوا يخلوني أبطل تفكير في مرام، وأكيد انت عارف كده يا إسلام لإنك عيشت كل حاجة في علاقتنا، سلام وهبقى اتصل بيك قريب...

مضى في طريقه، أمام نظرات صديقه المتأسية المشفقة، عاد أدراجه سيرًا كما فعل ذهابًا، شعر أنه مثل ريشة في مهب رياح الذكريات، تتقاذفها يمينًا ويسارًا كيفما تشاء... ووقتما تشاء..

*****

استيقظ طارق، وجد نفسه على سجادة الصلاة، نظر إلى النافذة، فوجد الشمس قد أشرقت، أخذ حمامًا دافئًا، ارتدى ملابسه، ومضى مسرعًا إلى الجامعة. وصل في تمام الساعة الثامنة والنصف، ظل جالسًا ينتظر مرام، فهو يعرف جدول محاضراتها جيدًا، يجب أن

تحضر الساعة التاسعة والنصف. ظل يفكر، إلى أن رن هاتفه، فانتفض من مكانه ظنًا منه أنها مرام.

مرام؟!! كيف تكون هيَ وليس معها رقمه؟ أخرج الهاتف من جيبه، فوجدها نهى. تسأله هل لازال في منزله أم في طريقه للجامعة. فأخبرها أنه في الجامعة بالفعل. صمتت لثوانٍ، وأردفت بنبرة تنم عن قوة وكبرياء:

- بص يا طارق. موضوع إنك تسيبني امبارح أركب التاكسي وتقفل الباب ورايا وتخليه يمشي مش هيعدي عليا بالساهل، مش أنا اللي بتعمل فيا كده يا طارق وانت عارف كده كويس! انت بقالك فترة حالك متلخبط، ماعرفش مالك، بس خليني أخمن. انت في حد تاني في دماغك أو بتحب واحدة تانية؟

قاطعها مغمغمًا، لا يدري ماذا يقول:

- استني يا نهى انتي فهمتي...

قاطعته بهدوء لا يخلو من عصبية طفيفة:

- استنى انت لو سمحت. أنا ماكملتش كلامي! أنا حاسة إنك بتحب البنت اللي سيبتني عشانها أول السنة وجربت وراها، من ساعتها وإنت حالك مقلوب، وبتبقى قاعد جمبي ومش معايا، بص يا طارق إحنا لازم نتفصل...

مكتبة عابث الإلكترونية

سمع هذه الكلمة فتنفس الصعداء، ابتسم لموقفها وجرأتها في اتخاذ قرار الانفصال رغم حبها له. صمت لبرهة ورد عليها:

- أوكى يا نهى اللي تشوفيه، بس هنفضل أصدقاء...

أجابته بأسى بنبرة تنم عن سخرية:

- آه طبعا يا طارق. ربنا يوفقك، ولو محتاج حاجة ابقى قل لي..

- شكرا يا نهى... بجد شكرًا...

هذه المكالمة وقرت على طارق أشياء كثيرة كان يجب أن يفعلها. لم يعد يشعر تجاهها بأي شيء، سواء وافقت مرام على الارتباط به أم لا، لذلك لم يأبه بالأمر كثيرًا ولم يوخزه ضميره بعدما أنهى المكالمة. ظل جالسًا على سلم آداب يحتسي القهوة ويدخن، أصدقاؤه يمرون أمامه يلقون عليه التحية دون أن يبادلهم إياها، شاردًا مترقبًا وصولها، إلى أن رأى علا صديقتها. سألها عن مرام بلهفة، فأخبرته أنها لا تعرف. نظر إلى ساعته متسائلًا بصوتٍ خافت كيف لم تأت بعد؟!! محاضرتها بعد نصف ساعة! ومن المفترض أن تأتي الآن!..... ولم ينته من سؤاله عنها، حتى رأها آتية من بعيد..

ما هو إحساسك عندما ترى كوكبًا منيرًا على بعد أمتار منك، ضوءه قويًا ساطعًا، يغطي ضوء الشمس؟.....

كل ما أراده في هذه اللحظة أن يدور هذا الكوكب في فلكه للأبد...

استأذنت علا. بعد أن شعرت بخطبٍ ما، متحججة بأن لديها محاضرة، بعد أن صافحت مرام مصافحة عابرة. وقفت مرام أمام طارق، خاليا وجهها من أي رد فعل.. لم يستطع أن ينطق بحرفٍ واحد أمام حضورها المربك، ناظرًا لها بترقب وخوف، وانتظرها أن تبدأ بالكلام...

أرسلت نظرة بعينيها الواسعتين الساحرتين، نظرة ثاقبة كالسهم، ضرب قلبه. برغم هذا، كانت نظرة مطمئنة إلى حدٍ ما، بادرت بالكلام:

- طارق أنا فكرت في كلامك امبارح، وكنت عاوزة أعرف نهى بالنسبالك إية؟

- والله العظيم والله العظيم نهى مش أكتر من...

- أنا يا طارق مش عاوزاك تحلف، بس عاوزة أعرف منك كل الحقيقة.

- نهى بالنسبالي صديقة... (نظر للسماء ثم أردف).. بصي بصراحة نهى بتحبني لكن أعمل إية أنا بحبك إنتي، نهى مش هي البنت اللي بحلم بها، وحاسة إني بحبك، بل متأكدة، ودلوقتي إحنا منفصلين.... مرام أنا عرفت بنات كتير، عمري ما حسيت مع أي واحدة فيهم بإحساسي بيكي. عمري ما سهرت عشان أفكر في بنت وأستنى ردها...

صمت طارق هنيهة أمام صمتها.. ثم استطرد في ترقب وخوف..

- افهم من كده إنك... إنك...

مكتبة عابث الإلكترونية

ابتسمت وأطرقت رأسها، بعد أن تورد وجهها من الخجل...

- مراااااااام.. انتي موافقة؟

لازالت مطرقة رأسها، لكنها اختلست نظرة خاطفة... فكرر عليها سؤاله، فأومأت برأسها إيماءة خفيفة، وأجابته بخجل:

- أه يا طارق... موافقة

- أنا مش مصدق نفسي.. بجد يا مرام؟ أنا بحلم يا جماعة. انا مرتبط بمرام؟ مرام مرتبطة بيا؟ احنا الاتنين مرتبطين ببعض؟

صوته العالي لفت نظر الطلاب، وضعت يدها على فمه، حيث شعرت بالخجل، واستطردت:

- دلوقتي أنا مش بعمل حاجة من غير ما ماما تكون عارفة، عشان نبقى واضحين يا طارق أنا غير أي بنت تعرفها أو عرفتها قبل كده... أنا هتصل بماما دلوقتي وإنت هتكلمها.

قال لها ولا يزال يسمع دقات قلبه الذي كاد أن يخرج من مكانه:

- أي حاجة يا حبيبة قلبي عاوزاني أعملها أنا ممكن أعملها بلا تردد، لو حتى أموت نفسي..

هالها ما قاله، شهقت وقاطعته بلهفة:

- بعد الشر عليك يا طارق

- معقولة انتي بتقوليلي بعد الشر عليك؟!! انا بحلم يا جماعة ده أحسن يوم حصل في حياتي.

- وإن شاء الله يا طارق هخلي كل يوم يعدي علينا أحسن من اللي قبله، بس انت أهم حاجة تراعي فيا ربنا، وتعاملني بما يرضي الله.

- إن شاء الله يا حبيبة قلبي...

نظرت له مبتسمة، واتصلت بوالدتها لتتحدث معه، حيث حكت لها عنه طوال ليلة أمس. تحدث معها، وشكرها على تربيتها لمرام، وعاهدها أنه سيعاملها بما يرضي الله.

بعد المكالمة، ظلت تنظر مرام إلى هاتفها وتقلبه في خجل، وقد ارتسمت ابتسامتها المشرقة على وجهها الساحر، سألها:

- بتبصي على الموبايل ليه يا حبيبتي؟ أنا عاوزك تبصيلي أنا...

- كنت عاوزة أقولك حاجة، بس ماتبصليش وأنا بتكلم ولا تقاطعني..

- هههه ماشي قولي.

- فاكر اليوم اللي شوفتك فيه واقف مع علا ومها اصحابي؟ أنا شوفتك قبلها بيوم وأعجبت بيك... وحاجة تانية، أنا كان نفسي تيجي ورايا بعدها، وساعتها كان نفسي أكلمك بطريقة حلوة لكن كنت

مكتبة عابث الإلكترونية

مخنوقة منك بسبب البنات الكتير اللي تعرفهم، ووقوفك عند باب المدرج تكلم دي وتكلم دي...

- يعنى انتي كل ده كنتي بتمثلي عليا انك مش طايقاني؟

- مش قولتلك ماتقاطعنيش؟

- مهههه أوكى كملي يا نور عيني

استطردت ولا يزال الخجل مرسومًا على وجهها:

- كنت مبسوطة جدًا لما طلعت لقيتك مغمض عينيك إمبارح قدام المدرج، وكان نفسي لما قولتلي إنك بتحبني أقولك أنا كمان بحبك، بس كنت محتاجة أتأكد من حاجات كتير. ماقدرتش أسيبك أسبوعين أو حتى أسبوع من غير ما أرد عليك وأقولك إني موافقة.. عشان كده أنا ماعترضتش لما انت إمبارح قولتلى إنك مستني أرد عليك تانى يوم اللي هو النهارده.

صمتت ثانيتين، ثم أردفت:

- طارق... خاف عليا وخد بالك مني، عاوزة أحبك أكتر وأكتر، عاوزة أحس إني ماليش غيرك، أنا مفتقدة للأمان يا طارق، انت أول شخص أحبه، طول عمري قافلة قلبي رافضة أي حد يحاول يكلمني، مستنية اللي يقتحمه، وده اللي انت عملته من غير ما تقصد، اقتحمتني.

- عرام أنا عاوز أقولك إنى عمري ما هخليكي في يوم محتاجة لحد غيري، هبقى كل حاجة ليكي. آه صحيح هو انتي ليه ماخلتنيش أكلم باباكي؟

- بابا متوفي من وأنا في تالتة إعدادي. من ساعتها وأنا مش حاسة بالأمان زي ما قولتلك، مش بأمن لأي حد وخايفة من كل الناس..

- مممممم ربنا يقدرني يا حبيبتي وأعوضك عن كل الناس. وأكون بالنسبة لك كل شيء في الدنيا.

- ربنا يخليك ليا يارب...

سارا، لا يعرفان إلى أين سيذهبان، لكنهما تحدثا في كل شيء، حتى أذنت الشمس بالمغيب، وصار فوقهما قرصها راسمًا وراءهما خيالًا امتد بعيدًا...

*****

الساعة الثانية صباحًا، وصل طارق بيته مكلومًا، حزينًا، شارد الذهن. فتح الباب بهدوءٍ شديد، دخل غرفة النوم وبدل ملابسه، وجد بسمة نائمة محتضنة يوسف، رفع الغطاء من كتفها إلى أعلى رقبتها، ثم قبل ابنه قبلة رقيقة.. مد يده ليضعها على شعر بسمة، التي كانت تتظاهر بالنوم وتراه بعينٍ نصف مغمضة في مرآة التسريحة، لكنه تردد، وسحبها مرة أخرى. فأغمضت عينيها حزنًا..

مكتبة عابث الإلكترونية

ذهب إلى غرفة نوم يوسف، ملتقطًا غطاءً كانت قد وضعته له على الكرسي. ظل يفكر في كلام إسلام ونصيحته أن يذهب إلى دكتور نفسي، ربما يستطيع أن يشخص حالته، أو يجد لها علاجًا ما. ويدفن ذكرياته في بئر عميق. ويردم عليها برمال النسيان، رغم أنه يعي تمامًا أنه لا يوجد شخص في هذا العالم لديه القدرة على أن يجعله يكف عن التفكير في مرام أو نسيانها، حتى لو اجتمع على ذلك جميع أطباء العالم. لكنه - عبثًا - بدأ يفكر في الموضوع، متعللًا بأهداب واهية... حتى داعبت أطياف النوم جفنيه، وسافر في سبات عميق...

*****

شقة دوبليكس ٦٥٠ م٢. آخر دورين في برج شاهق الارتفاع. في شارع جامعة الدول العربية. هدوءها المخيف وصمتها الرهيب يكتنفون أرجاءها. كل شيء مرتب وموضوع مكانه بنظام شديد. لا يوجد أي شيء شاذ أو ليس في مكانه، أشبه بفيلا. بها طباختان من جنوب شرق آسيا، مديرة منزل خريجة إدارة أعمال، مربية زنجية.

كسر الهدوء المسيطر على غرفة السفرة الفسيحة صوت "ندى"... طفلة عمرها عامين، تجري باكية مهرولة من مربيتها كيلا تطعمها، فاصدة والدتها، فاصطدمت بأبيها الذي يجلس على السفرة يحتسي فنجان قهوته، فانسكبت نقطتان على جاكيت بدلته الأنيقة، فغضب وثار على المربية لتركها الطفلة تجري هكذا وتحدث فوضى، ثم أمسك طفلته وصاح في وجهها منفعلًا:

- أنا مش قلت لك مليون مرة تنامي الصبح؟ في حد يلعب دلوقتي ويجري؟ هو أنا ناقصك وللا ناقص أمك؟ أعمل فيكي إية دلوقت؟ جاتك القرف عليكي انتي وأمك...

طفلة في عمر عامين، بالتأكيد لم تفهم ما يقوله لها، لكنها تدرك أنه يوبخها. نظرت له نظرة تحمل الكره والسخط، خائفة أن تبكي. الأطفال في هذا السن لا يعرفون إخفاء مشاعرهم طويلا. فانفجرت فجأة في

مكتبة عابث الإلكترونية

البكاء، فوضعها بقسوة على الأرض. حملتها والدتها واحتضنتها كي تهدأ، وقالت له بدهشة رافعة حاجبيها:

- تفتكر بنت عندها سنتين تفهم اللي بتقوله ده؟ هل ده صح إنك تشتمها وتزعقلها بالشكل ده؟!!

- ماهو يا هانم لو كنتي مهتمة إن ده ميحصلش كنتي نظمتي مواعيد نومها بحيث إنها ماتبقاش صاحية الساعة ٧ الصبح تلعب وتجري كده.

- انت مدرك اللي بتقوله؟!! لا بجد مدرك؟ دي طفلة ومتوقع تصحا في أي وقت وتلعب زي ما هي عايزة!!

- انتي هتديني محاضرة وللا إيه؟ إزاي تردي عليا بالمنظر ده؟ انتي نسيتي نفسك يا حيوانة؟ لما أرجع بليل هعرفك إزاي تردي عليا كده. لكن هقول إيه ماهو أهلك ماعرفوش يربوكي!!

قالها بصوتٍ عال أمام مديرة المنزل والمربية والخادمة، نهض ملقيًا بطبق تجاهها، فارتطم وتناثر الأكل وانسكب فنجانها عليها. صعد إلى أعلى كي يبدل ملابسه، فتبعته بقلق بالغ مديرة المنزل مهرولة، حتى كادت أن تنكفئ بوجهها على السلم، لتجهز له بدلة أخرى بنفس اللون، في أقل من دقيقة.

بكت الطفلة أكثر، فحضنتها أمها وهي تبكي هي الأخرى، فربتت المربية على كتفها في حُنُوّ. أخذت منها الطفلة، وقالت لها في شفقة وأسى:

- معلش يا مدام مرام، استحملي.

- لحد امتى هستحمل القرف والذل والمهانة دي؟ عمري ماشفت رجل قاسي كده على مراته، طب بلاش أنا، بزعق لبنته اللي عندها سنتين! ده عاوز يعقدها. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا معتز...

- معتز قطب؛ زوج مرام، وصديق أخها المهندس محمد... رجل متجمد الملامح، قاسيًا فظًا محبًا لذاته، طويل القامة، له هيئة رياضي ، بغض النظر عن بوادر كرش يحافظ دومًا على ألا يبرز أكثر، بذهابه كل شهر إلى Gold's Gem ليدفع اشتراك شهر كامل مقابل مرة أو مرتين يذهب فيهما للتدرب. ذكي، عيناه حادتان يقفز منهما ذكاء نادر.

مواعيده منضبطة جدًا، يهتم بأدق التفاصيل؛ يقضى النهار بين المستشفى الاستثماري الخاص التي يمتلك ٧٥ % من أسهمه، وبين عيادته؛ أما الليل فيقضيه في أحد بارات الفنادق الكبرى مثل شيبرد أو سميراميس أو هيلتون مع أصدقائه، وغالبًا ما ينتهي بليلة حمراء مع إحداهن. رغم تعليمه العالي ومركزه المرموق، لكنه فظ سيء الأخلاق، سليط اللسان.

لم تكن مرام تعرفه قبل الزواج بشكلٍ كامل،كانت تسمع عنه فقط، وإجراءات الزواج تمت بسرعة شديدة، كانت حينئذ أضعف من أن

مكتبة عابث الإلكترونية

تأخذ قرارًا. كرهته قبل أن تحبه.. صدمتها أخلاقه ليلة الدخلة؛ عندما وجدته سكيرا، وبمجرد أن أغلق باب غرفة الفندق، حاول أن يجتذبها إليه مقتحمًا خجلها بغشم، فتملكها الرعب، وبدا كذئبٍ بشري يلتهم فريسته في نهم، إذ ألقاها بقوة على السرير، ولم يأبه لتألمها من شدة ارتطامها به.. نزع طرحتها من رأسها، وفستانها من على جسدها في تعجل، واغتصبها بعنف بالغ، أخذ ينهش مفاتن جسدها طوال الليل حتى أنهكت قواها وهي تتأوه باكية، وهو فوقها يهز ذيله يمينًا ويسارًا، يعوي افتخارًا بقوته وسيطرته، وهي تكاد أن تغيب عن الوعي من شدة الألم والحسرة على كرامتها وأحلامها.

طارق ومعتز الآن شخص واحد في نظرها، اقتحما حياتها بالتناوب، وأحالاها إلى جحيم، كغزالة وديعة هاجمها صياد أهوج، فذبحها بسكينٍ غير مسنون، وتلاه مباشرةً آخر يسلخها دون رحمة، بينما لا تزال تتلوى متخبطة في دمائها...

استبدل بدلته ببدلة أخرى، ونزل مسرعًا وهو يتمتم بكلمات غاضبة، فسيطر الهلع على المربية، فأخذت ندى ودلفت إلى إحدى الحجرات مسرعة في غضون ثوان.

وقف معتز متجهمًا لنصف دقيقة أمام مرام التي تنتحب، نظر لها بعينٍ شاخصة قائلًا:

- أنا مش قولتلك كذا مرة تخلي ندى تصحا بعد ما أمشي؟ عاجبك اللي حصل ده؟

- إزاي طفلة في السن ده أتحكم في نومها وصحيانها؟ ندى نامت امبارح بدري فبالتالي صحيت الساعة ٦!! إيه اللي ممكن أعمله لطفلة في سنها؟ أزعقلها وأشخط فيها وأجيبلها عقدة نفسية من صغرها؟

- لا إزاي سيبيها تصحي وتدلق القهوة عليا واتأخر عن مواعيدي!!

- انت عندك بدال البدلة أكتر من ٧٠ بدلة. إية مشكلتك بقى؟!!

- انتي بتردي عليا كلمة بكلمة؟!! مهو أبوكي الشحات لو كان رباكي مكنتيش هتتجرني...

قاطعته بصوتٍ عالٍ ونبرة حادة

- مالكش دعوة ببابا، الكلام معايا أنا، ليه تدخل بابا الله يرحمه في الموضوع؟

- إيه؟!! ده على أساس إن السيد الوالد كان سفير مصر في ألمانيا؟ ده انتو عيلة شحاتين! بما فيهم أخوكي اللي حفي ورايا عشان أشغله مقابل انه يجوزني حضرتك... البيه فاكرك صوفيا لورين، ياريته كان سابك تتجوزي الواد اللي كنتي ماشية معاه، وكنتي عيشتي في شقة ٥٠ متر، مش شقة أكتر من سووووتومية متر ماكنتيش تحلمي تشتغلي خدامة فيها.

مكتبة عابث الإلكترونية

- أولًا أحب أقولك إنى مكنتش ماشية مع حد، اللي بيمشوا دول هم الأشكال الواطية اللي انت تعرفهم أو بتسهر معاهم كل يوم لوش الفجر وبتنام معاهم، اللي بتتكلم عنه ده أنا كنت مرتبطة بيه بعلم أهلي، وأساسًا انت ماتعرفش عن الموضوع ده أي حاجة، ولا حتى فكرت تسأل، ثانيًا الإنسان مش بفلوسه، ناس كتير جيوبهم مليانة فلوس لكن من جوة فاضيين.

جَنَّ جُنونه ولم يستطع التحكم في نفسه، رفع يدها فصفعها صفعة قوية على وجهها، سقطت على الأرض وسال الدم من أنفها...

- انتي بتقوليلي أنا الكلام ده؟ أنا هوريكي الأيام السودة شكلها إيه يا مرام، هخليكي تتمني الموت وماتلاقهوش، همعرفك إن الفاضي من جوة ده ممكن يخليكي تعملي إيه في نفسك.

قالها ورحل، تاركًا بصمات أصابعه محفورة على نصف وجهها الأيسر.. أغلق الباب بقوة، فانتفضت رعبًا، وانخرطت في البكاء حتى كادت تغيب عني الوعي...

*****

في شركة M.E EXPRESS إحدى أكبر شركات البريد السريع ونقل الطرود على مستوى الشرق الأوسط، جلس طارق في غرفة مكتبه الفسيحة، بعد أن أغلق بابه المعلق عليه بافطة ذهبية اللون مكتوب عليها "رئيس قسم الشئون الإدارية"، سانِدًا يديه على مكتبه، واضعًا

رأسه بين كفيه ضاغطًا عليها، صداع نصفي يخترق لب عقله، كاد أن يقضي عليه من كثرة التفكير، هل حقًا من الممكن لدكتور نفسي أن يعالجه مما هو فيه؟ يخشى الإقدام على خطوه كهذه، يخشى أن يعلم أحد أنه يتردد على دكتور نفسي، فنحن في مجتمع يرى الذي يفعل ذلك مجنونا أو مختلا عقليًا، يرتدي جلبابًا فضفاضًا أبيض، يعض أصابعه، وينتفض فجأة رافعًا يده ممسكًا بمركب ورقية لتطير به! بل ومن المحتمل أن يقاطعوه أو يخشوا مصافحته.

هل الذي يعاني منه مرض نفسي؟ الحنين المستمر إلى الماضي، تعلقه الشديد بفتاة أحبها أكثر من نفسه، وبأيامها، وبالأماكن التي كانوا يترددون عليها من قبل، الأغاني التي كانوا يسمعونها!!

"مرام" !!! اسم موشوم على جدران ذاكرته لم تنجح الأيام والسنين على مسحه... هذا ليس مرض نفسي..... إنه الجحيم بعينه!!

انتفض هلعًا، حين وجد كفًا غليظًا يطرق بقوة على مكتبه، صاحبه صوت عميق خشن، اختطفه من شروده بغتة:

- إيه ياعم تقلان علينا، وبقالك كتير مش باين...

- أستاذ حمدي!! بغض النظر عن إنك خضتني وخلتني أقطع الخلف، بس تصدق إنك جيت في الوقت المناسب؟ قهوتك إيه؟

مكتبة عابث الإلكترونية

أ. حمدي لاشين زميله في العمل، رجل في العقد الرابع من عمره، هادئ جدًا، شخص في رزانته قلما تجده الآن. "كرش" كبطن امرأة في غرفة العمليات متأهبة للتخدير لوضع توأمها، شارب كث يهتم دومًا بتهذيبه، شعر أسود داكن، يشكو عقد قانون قديم مع صبغات الشعر المختلفة الأنواع، جميع البدل التي يرتديها موديل عشرينات القرن الماضي، عينان بنيتان قابعتان خلف نظارة قعر كوباية سمكها ٤,١٩ سم، ينقصه طربوش أحمر ومنشة ومعصمين أسودين فوق كُم البدلة، ليبدو كرجل هارب من عام ١٩٣٤ عبر آلة الزمن... يعمل كرئيس قسم التخليص الجمركي وفحص الشحنات والطرود المحلية والدولية، والموافقة عليها من عدمه..

يحب طارق كثيرًا؛ ربما لأنه يرى فيه الشخص الطموح، أو لنشاطه أو ذكائه، على أية حال فهو يحبه! ونفس الشعور بالنسبة لطارق، ويعتبره أخًا أكبر... ويحكي له كل أسراره ومشاكله التي تؤرقه، فيجد عنده حل لأي مشكلة...

- بقولك إية يا أستاذ حمدي؛ في موضوع كده كنت عاوز أتكلم معاك فيه ومش هلاقي حد يقدر يفيدني أكتر منك.

- قول يا طاروق. وإن شاء الله ربنا يقدرني إني أفيدك

شرح له مدى تعلقه بمرام، وإحساسه بالذنب تجاهها، وعدم مقدرته على نسيانها، طلب رأيه في ذهابه إلى دكتور نفسي، فأشار له بفكرة أضاءت نورًا في عقله...

- بص يا طارق، انت حكايتك صعبة خلينا متفقين على كده، لكن أنا مصدق كل كلمة قلتها ومتيقن قد إيه انت ندمان، ومااخبيش عليك انت فعلا محتاج دكتور نفسي يمكن يشوفلك حل أو علاج، لكن في الغالب بيكون العلاج عبارة عن حبوب مضادة للاكتئاب وحبوب مهدئة ومنومة... حلول مؤقتة.

- يعني أنا هروح لدكتور نفسي يعالجني من إدماني لمرام، أقوم أدمن حبوب اكتئاب ومنوم؟ طب لو بطلتها هرجع افتكرها تاني؟!! طب لو مفعولها مابقاش يأثر فيا وفي نفس الوقت مش عارف أنساها. هل هيفي مدمن للاتنين؟!!

- هو ممكن يكون في حلول تانية الله أعلم، الدكاترة النفسيين عفاريت يعني... بص يا طارق أنا كان عندي نفس المشكلة بتاعتك، بس في حالي ماكنتش بحب أو ندمان زيك كده، وعملت حاجة ظريفة عشان أنساها.

- قول أنا في عرضك... بس لو هتقول قرب من مراتك وبيتك والكلام ده فانصحك وفره أحسن.

مكتبة عابث الإلكترونية

- مممممممم طب بص.. اعمل لنفسك عقاب، تعاقب بيه نفسك لما تفكر فيها...

- أجيب مسدس ٩ مللي أهدد بيه نفسي وللا إيه مش فاهمك!!

- هههههههه لا يعني مثلا يكون معاك دبوس تشك نفسه بيه لو فكرت فيها، ادخل حط دماغك تحت حنفية المية الساقعة، أو حتى خد دش ساقع في عز البرد ده، إلسع نفسك بشمعة... وبلاااااش تريقة، هتلاقي نفسك بعد كدا مرة هتتجنب التفكير فيها، ومرة مع مرة هتنساها، لو لقيت إن تفكيرك فيها بدأ يقل بعد فترة، اعرف إن الموضوع ده نجح وهيجيب نتيجة، بس برضه ضيف على ده إنك لازم تهتم بمراتك وابنك عشان يساعدوك على اجتياز الموضوع ده.

صمتت طارق لثوانٍ، كالذى يتخيل الموضوع، ثم نظر إليه مبتسمًا، وأردف قائلًا:

- إيه الدماغ دي؟ انت ماعندكش حاجة ملهاش حل؟ انت أكرم عليا من أبويا، ربنا يكرمك يا باشا ويخليك ليا...

- انت حبيبي يا طارق وبحبك لله في لله. أستأذن أنا بقى وهبقى أتابعك.. سلام

*****

- بينما كانت تتصفح، وتتفحص بروفايل طارق على الفيس بوك، رن هاتفها:

- إزيك يا شريف أخبارك اية؟

- الحمد لله يا بسمة انتي أخبارك اية والواد الجميل يوسف أخباره اية؟

- الحمد لله بخير. نحمد ربنا على كل شيء

لاحظ شريف أن بسمة بها خطب ما، ونبرة صوتها حزينة ومهمومة...

- مالك يا بسمة في إية مضايقك؟ صوتك كإنك كنتي بتعيطي من شوية، أخويا طارق عملك حاجة؟

- لا يا شريف مافيش.

- لا يا بسمة! دي مش نبرة صوتك. في إية وحياة يوسف؟

- مافيش حاجة يا شريف بقى، المهم انت كويس وماما وبابا وهدير كويسة؟ سلملي عليهم قوي..

- الحمد لله كلنا كويسين، إبقي سلميلي على طارق بقى لأني بتصل بيه للبفونه مقفول.

- حاضر..

مكتبة عابث الإلكترونية

- مع السلامة يا بسمة.

شعر شريف أن هناك شيئًا ما لم يفهمه، بحة صوتها ونبرتها تقول إنها كانت تبكي. فاتصل بأخته هدير على الفور...

- أيوة يا هدير انتي فين؟

- أنا مع علاء في سيتي ستارز.

- علاء وحشني والله بقالي أربع شهور ماشوفتوش من ساعة خطوبتكم، سلميلي عليه، المهم كنت عاوزك في موضوع ماقدرتش أستنى اقولهولك لما أشوفك في البيت.

- خير يا شريف؟

- اتصلت ببسمة من شوية، حسيت إنها مخنوقة وبتعيط، اتصلي بيها شوفيها مالها، هي بتحبك وبتحب تفضفض معاكي...

- يا حبيبتي يا بسمة، أنا تقريبًا عارفة الموضوع، عمومًا إحنا جمبها،هخلي علاء يوديني لها، وإنت قول لبابا إني هرجع الساعة ٨ مش ٦ زى ما قلتلهم، وعرفه إني عند أخويا...

- اوكى خلي بالك من نفسك ولو حسيتي إنك هتتأخري عن كده قوليلي وأجي اخدك.

- حاضر.. مع السلامة...

بعد أقل من نصف ساعة، كانت تطرق عليها الباب، بمجرد أن رأتها بسمة ألقت نفسها في حضن هدير، وانهمرت في البكاء، وأخذت تحكي لها عما حدث في الفترة الأخيرة.

هدير في قرارة نفسها تعي جيدًا أنه من رابع المستحيلات أن ينسى أخيها حبه القديم. لكنها قالت:

- بصى يا بسمة. أنا متأكدة إن دى نزوة وهتعدي، انتي حاولي يا حبيبتي تصبري وإن شاء الله اللي جاي أحسن، ومن ناحيتي هتكلم معاه، وإن شاء الله هنوصل لحل، أنا عارفاه كويس يا بسمة وعارفة انه بيحبك جدًا والله يا بنتي، وحاولي تتكلمي معاه بدون ما صوتك يعلى، ومن غير عصبية، واصبري يابنتي وماتيأسيش واستحمليه، والله والله طارق بيحبك يا بسمة، ثقي في كلامي...

- عصبيتي دي مش من فراغ، أنا مكنتش كدة طول حياتي، ومع ذلك هسمع كلامك ومش هعمل كدة تاني، بس أنا خايفة أنهار وماقدرش أكمل، بحب طارق آه، بس في حالته دي الطلاق بيكون حل مريح ليه قبل ما يكون ليا. أنا ممكن أتحمل منه أي حاجة تتخيليها، بس كله إلا إنه يكون معايا وبيفكر في حد تاني، إحساس صعب يا هدير. إحساس صعب... انتي مُدركة الموضوع؟!! عارفة يعني إيه جوزك اللي بتحبيه يكون لسة متعلق بحبه القديم؟ ده تحملي ده هو الجنان بنفسه!!

قالتها وبكت بحرقة، فحضنتها هدير محاولة تهدئتها...

مكتبة عابث الإلكترونية

- اصبري عشان خاطري يا بسمة، وماتجيبيش سيرة الطلاق دي تاني، قريب قوي كل حاجة هتتصلح.

نظرت هدير في ساعتها، فوجدتها قاربت على الثامنة، فانتفضت حتى لا تتأخر أكثر من ذلك. وأكدت لبسمة أنها ستتحدث مع طارق، وستكون الأمور على ما يرام. وفي الطريق هاتفت طارق:

- إزيك يا حبيبي عامل إية؟

- إزيك يا هدير، انتي عاملة إية؟

- الحمد لله.... طارق ماينفعش اللي بتعمله ده.

- في اية يا بنتي. ماينفعش إية بالظبط؟

- ماينفعش إنك تكون متجوز ومخلف ولسة بتفكر في مرام! أنا مقدِّرة كويس جدًا اللي كان بينك وبينها لكن انت اتجوزت، وهي اتجوزت واللي حصل حصل خلاص... ماينفعش يا طارق. الموضوع كده سخيف، وبسمة زعلانة، انت كده هتفقدها هي كمان...

- ماتقلقليش يا هدير، أنا همصلح كل حاجة، وإن شاء الله هخلي بسمة تنسى كل اللي عملتهولها، وهحاول أنسى مرام.. مع انه ده صعب، بس ان شاء الله هحاول، إنشاالله أروح لدكتور نفسي يكتبلي مهدئات أو أي حاجة تخليني أفقد الذاكرة، لو اضطريت اعمل كده هعمل. إدعيلي يا هدير

- إن شاء الله يا اخويا يا حبيبي ربنا هيوفقك ويخليك تنساها.

بعدما أنهى المكالمة مع أخته بنصف ساعة، كان قد وصل بيته ومعه علبة حلوى، عصائر، شيكولاتة، ووردة بيضاء. فتح الباب، فوجد بسمة تكوي ملابسه، مرتدية بنطلون "برمودا" أبيض و "بادي حمالات" أحمر مفتوح الصدر، والظهر أيضًا.. وبوسف يجلس على مقربة منها بجوار الثلاجة، منهمكًا بغطاء زجاجة!!

شعرت بسمة به، لكنها لم تلتفت له عندما دخل، ولم تعره اهتمامها. وضع ما معه على المنضدة، ووقف وراءها واحتضنها من الخلف، طبع قبلة حانية على ظهرها الأبيض، فابتسمت على استحياء، صاحبت ابتسامتها قشعريرة، وسافرت بعيداً عندما ظل يلعق أذنها لـ١٤ ثانية، وقبّلها كافيًا لحرق ياقة قميصه بالمكواة، منتهيًا بهمس خفيف "وحشتيني"...

وضعت المكواة جانبًا واستدارت له، فوجدت على المنضدة وردة بيضاء، نوع الشيكولاته الذي تحبه، زجاجة عطر "سيكسي"... أشياء كانت كافية لتعرف شيئين:

١ - يريد أن يصالحها

٢ - قضاء ليلة رومانسية

- أنا بكرة أجازة يا حبيبتي.. نيمي يوسف من دلوقتي. عشان في كلام كتير عاوز اقولهولك.

مكتبة عابث الإلكترونية

- مممم كلام اية؟

- هتعرفي، بس لما يوسف ينام.

- أوكى ادخل مكتبك وانا ساعة وجاية...

- حاضر يا حبيبتي

دلف إلى غرفة مكتبه، لكن ليس من الجيد مطلقًا أن يجلس بمفرده، حتى لا يقع في فخ الذكريات، حاول أن يشغل نفسه بأي شيء، فتح حاسوبه المحمول، ليجد نفسه - لا إراديًا - يفتح ملفًا مخفيًا يحتوي على كل صوره مع مرام، و٤ فيديوهات لها. سرح في تقليب الصور، فانتفض فجأة من كرسيه، وهز رأسه مستنكرًا ذلك. دلف إلى الحمام وخلع ملابسه، وقف تحت الدُش البارد عقابًا له لأنه تذكرها، ظل هكذا لعشر دقائق، رأته بسمة في اندهاش، لكنها لم تكترث بالموضوع كثيرًا، وجلست أمام المرآة.

عاد إلى مكتبه مرة أخرى منتظرًا بسمة، أغلق الكمبيوتر، وأمسك هاتفه ليتصل برقم مرام غير المتاح دائمًا للعام الرابع. كيف لم يتوقف عن الخدمة نهائيًا حتى الآن؟! فهو يرن عليها كل يوم، ولم يجده يومًا قد توقفت خدمته!!

ربما تجري به مكالمة كل فترة كيلا ينقطع!! لكن لماذا؟!! أسئلة كثيرة لم يجد لها جوابًا، تمنى أن يتصل بها في مرة، فترد عليه ويسمع صوتها الذي يفتقده...

انزع نفسه من التفكير..... تفكير؟!! فكر فيها مرة أخرى، ولم يلبث أن جف شعره من المرة الأولى. دلف ثانيةً إلى الحمام ليكرر ما فعله، فدخلت عليه بسمه فوجدته تحت الدش البارد ساندًا يديه على الحائط منكسًا رأسه، شارد الذهن غير متأثر ببرودة الماء. سألته بنبرة أعلى في انفعال:

- إية اللي بتعمله ده يا طارق انت اتجننت؟ الدنيا برد وانت بتستحمى بمية ساقعة؟!!

- ههههه إية المشكلة ما أنا دخلت لقيتك لابسة بادي حمالات!

- بادي حمالات عادي لكن اللي انت بتعمله ده مش عادي. انت بتعمل كده ليه؟ إنت...

- إحنا قلنا إيبيبيبيبيه؟ عاوزين الليلادي تكون رومانسية جدًا، عاوز أعوضك عن اللي فات، وطي صوتك بقى وماتطلعنيش من المود.

احمر وجهها خجلًا:

مكتبة عابث الإلكترونية

- أوكى. على العموم يوسف نام، أنا داخلة أكمل حاجة كنت بعملها، وهرجعلك بعد دقيقة... استناني في الصالة وقيد الشمع اللي أنا حطاه هناك...

- حاضر يا حبيبتي ماتتأخريش عن دقيقة أرجوكي...

خرج من الحمام، أشعل شمعتين كانتا على السفرة، شغَّل موسيقى هادئة لـ Yanni مقطوعة Adagio in C minor، وبينما ينتظر بسمة، تذكر أنه كان يسمع هذه المقطوعة مع مرام، سرح معها لحوالي نصف دقيقة، وتذكر الحديث الذي دار بينهما عندما قابلته يوم عيد ميلاده، تذكر عندما كان يصورها عند حديقة الجزيرة والنيل خلفها، كانت تضع عدسات لاصقة في هذا اليوم، ولا تستطيع أن تخلعها، فسخر منها، وغضبت فضربته بيدها الرقيقة ضربة خفيفة على كتفه، فمسك يدها وقبَّلها...

نفض رأسه كالذى لا يصدق، أي فتاة هذه التي تحتله لهذه الدرجة، وتحتل تفكيره؟!! ما هذه الفتاة التي أخذت تلابيب قلبه؟!! دلف مرة ثالثة إلى الحمام، وفجأة اتسعت حدقة عينيه، عندما اعترضته الجميلة التي أتت إليه من العصر الكلاسيكي، خرجت توًا من بين صفحات إلياذة هوميروس، انعكس ضوء الشموع المتراقص في صفحة وجهها، فزاده إغراءًا وإثارة، مرتدية قميص نوم أسود، يتدلى داخله نهدان مكتنزان، يفوح من بينهما عطر نافذ، كتفان أبيضان ينسدل عليهما الشعر الأسود الناعم كستنائي اللون، عينان ساحرتان تشيان

باحتياج ثائر وشهوة جائعة، وشفاه يخرج من بينها رحيق ولج صدره، فشعر بلفحة نار اصطدمت بجسده، فسرت فيه قشعريرة تبعها رغبة جامحة في التهامها.

غرس الوردة البيضاء في شعرها، ابتسم لها وأحاط خصرها بذراعيه، تمايلا على أنغام الموسيقى الساحرة، وضوء الشموع الخافتة. أغمض عينيه، فوجد مرام تداعب ظلمة جفونه وتنظر له مبتسمة تارة، وتتمايل أمامه كتمايل راقصة باليه حزينة تارة أخرى. طوقت بسمة بذراعيها المتقنتي الرسم رقبته، وجذبته إليها برفق، عضت شفتها السفلى بغنج أذابه، ثم احتوت شفتيه بشفتها، احتسى منها خمرًا حتى ثمل، شعر وقتئذ أنه ليس أمام امرأة مارس معها الحب مرات ومرات، لم تبلغ به الرغبة فى ممارسته ما بلغه هذه الليلة، ضاع تمامًا، استلقيا على الأرض مكانهما، قضيا وقتًا عاصفًا غارقين في بحر الرغبة، تبادلا فيه شبقهما المحموم حتى خيوط الفجر الأولى.

*****

في نفس الليلة..

فضت مرام الليل مستلقية على سريرها، في غرفة النوم الفسيحة، تبكي حظها التعس الذي يرافقها طوال حياتها، لم تتزوج من أكثر شخص أحبته في حياتها، وحتى الآن مصدومة مما فعله معها، طعنها على غفلة منها، وتركها بجرحٍ ينزف وقلب مكسور، وحقيبة كبيرة

مكتبة عابث الإلكترونية

تحتوي هداياها له!! فأضحت بلا روح. رغم مرور سنوات على هذا، لكنها لازالت تفكر في الموقف، كيف حدث بسرعة هكذا!! كيف تحول كل شيء من جنة خالدة إلى جحيم وسعير في لحظة! أجبرت بعدها على الزواج من هذا الرجل التّعِس الهمجي سيء الأخلاق.. تتمنى الموت في كل لحظة. فهو بالتأكيد أفضل من أن تعيش معه يوما آخر. لكن كل ما يشغل بالها هو ندى ابنتها...

مسحت دموعها، وأخرجت من حقيبتها شريحتها القديمة، لتجري بها مكالمة لإحدى صديقاتها، مكالمة كل ثلاثة أشهر على الأقل، حتى لا يتم إيقافها. على مدار الأربع سنوات السابقة، كلما تضع الشريحة في الهاتف يأتي لها رسالة بالأرقام التي تتصل بها. في بداية الأمر كانت أرقاما كثيرة، ثم بدأت تَقِل تدريجيًا، إلى أن لاحظت رقمًا لازال يتصل بها كل يوم، آخر مرة منذ قليل...!!

لديها شعور قوي أنه طارق، حدثتها نفسها بأن تتصل بالرقم لتتأكد، تتمنى أن يكون هوَ، تريد أن تسمع صوته ولو لمرة واحدة.. لكنها لم تفعل.. تمنعها أشياء كثيرة، لا تعرف بالتحديد ما هي! نزعت الشريحة، ووضعتها في حقيبتها كما كانت.

سمعت صوت خطوات معتزعلى السلم. وضعت حقيبتها جانبًا ودفنت رأسها تحت الوسادة وتظاهرت بالنوم. اقترب منها واضعا يده على فخذها، دون أي رد فعل منها، واقتحمت أنفها رائحة الخمر والحشيش الذي يفوح من فمه. انتزع نفسه من ملابسه، وارتمى على السرير

كجيفة نصف متحللة. بكت في صمت، دون أن تصدر صوتًا، حتى استغرقت في النوم بعد أن أغرقت وسادتها بدموعها..

*****

استيقظت بسمة في تمام السابعة صباحًا، لتجد نفسها عارية في حضن طارق، شعرت بسخونة جسده الملاصق لجسدها. أزاحت برفق ذراعه الذي يطوق خصرها، ابتسمت وقبّلته في جبينه، دلفت إلى غرفة يوسف لتطمئن عليه، ثم غدت تمشي على أناملها حتى لا تزعج طارق، ملتقطة بشكبرًا لتأخذ حمامًا دافئًا. لكنه استيقظ ناظرًا لها بحنان، أرسلت له نفس النظرة، وأخبرته أن الفطار سيكون جاهزًا بعدما تأخذ حمامها، وبينما تمر بجانبه، انتفض ناهضًا من مكانه ممسكًا برسغها، جذبها إليه بقوة قائلًا:

- لا.. أنا عاوز أفطر دلوقت قبل ما تخدي دش...

أعلى الهرمونات الأنثوية الساخنة المتأججة، التهم وجبة صباحية خفيفة، نصف ساعة كانت كافية لتجعلها تشعر بعدها بالكسل وعدم الذهاب لأخذ حمام. وبينما كانت مستلقية على وجهها تناجي ضربات قلبها السريعة، مطت ذراعها وتثاءبت في دلال، فجذبها إليه بقوة ليودعها في حضنه... استراحة رومانسية، لاستئناف وجبة أخرى بعد قليل. لكن، دخل عليهما الملاك الصغير ليفسد عليهم تلك الوجبة...

- هههههه مش مكتوبالك يا حبيبي...

مكتبة عابث الإلكترونية

- تعالى يا يوسف، روحي انتي يا حبيبتي خدى دش، وأنا هدخل بعدك، عقبال ما أخلص تكوني لبستي انتي ويوسف عشان هنخرج...

- بجد يا طارق؟ ربنا يخليك لينا يا حبيبي... هتودينا فين؟

- هفكر في مكان عقبال ما تخرجي من الحمام...

أخذ يوسف في حضنه، نظر للسقف يفكر أين سيذهب بهما.. لا يوجد مكان لا يُذَكِّرُه بمرام!! فهي زرعت ألغام الذكريات والحنين في كل مكان، لتنفجر في قلبه بمجرد أن يذهب إليه أو يمر عليه، أو حتى يفكر فيه.

عليه أن يأخذ حمامًا باردًا بعدما تخرج بسمة!!

انتهت بسمة من الحمام، لبست وألبست يوسف، ورأت طارق يقف تحت الدش البارد ساندًا بيديه على الحائط سارحًا مثل ليلة أمس. سألته في تعجب واستنكار:

- انت مالك يا طارق إية موضوع الدش الساقع ده.. (علامتين استفهام يعقبها ٣٦٤٣ علامة تعجب)

- مافيش حاجة يا بسمة، كل الحكاية إني بقيت أحب المية الساقعة وبلاش اسئلة كتير عشان ماتقفليش اليوم!

- مممممم أوكى يا حبيبي، ربع ساعة وهخلص لبس أنا ويوسف.

نزل طارق مع زوجته وابنه، لا يعرف أين يذهب، لا يريد أن يذهب إلى مكان كان فيه في يوم من الأيام مع مرام. فكر قليلا، وقرر أن يذهب إلى دريم بارك، نعم لم يذهبا إليها من قبل، استوقف تاكسي وقال للسائق دون تردد:

- حديقة الأزهر ياسطى؟!!

إنها الحديقة التي طالما احتضنت أحلامهما وكلامهما وأيامهما التي لا تزال تسكن صدره.... ☺

*****

في اليوم التالي...

دخل طارق مكتبه، جلس في سكونٍ، سكينة واستكانة... بدا مهمومًا كأنه يحمل ثقلًا ويصعد به إلى قمة جبل إفريست.

لا يوجد أحد يستطيع أن يشعر به إلا شخصٌ واحد.. "سيزيف"!!

اتصل بحمدي، فوجده في الكافيتريا.. دلف إليه في تعجل وانفعال:

- ازيك يا أستاذ حمدي أخبارك معاليك إيه؟

- ازيك يا طاروق... إيه؟ طمني...

مكتبة عابث الإلكترونية

أشعل سيجارة قبل أن ينكس رأسه في صمت لدقيقة كاملة، ثم فاجأه بصوتٍ أجش ونبرة طافحة بالألم:

- زفت... مافيش فايدة، الظاهر اني فعلا محتاج لدكتور زفت نفساني، أنا عندي مرض نفسي قاتل... أنا أساسًا خلاص هتجنن... مافيش بوادر أمل ولو حتى ١٠ %. المشكلة إن الدكتور هيعملي إية يعني؟ هيشيلها من قلبي إزاي؟ مش عاااااااارف أنساها...

وضع يده على فاهه محاولًا إسكاته، حتى لا يلفت نظر زملائهم، نظر حمدي يمينه ويساره بارتباك، وقال بصوتٍ خافت:

- وطي صوتك مش كده يا طارق، في إيه يا أخي فرجت علينا الشركة...

أزاح يده وقاطعه بصوتٍ أعلى قليلًا:

- أعمل إية بس؟!! أنا قربت اختفي من كتر المياة الساقعة، أنا قربت يجيلي نزلة شعبية، أنا حتى لو مت ودفنوني هفكر فيها برضه...

لفت نظر زملائه وبدءوا ينظرون له، فنظر لهم نظرة عدائية غاضبة تحمل معنى "كل واحد يخليه في حاله"... شده حمدي إلى خارج الكافيتيريا، ودخلا مكتبه. تفرس وجهه المنفعل لثوان، ثم قال له وهو يضيق عينيه المتفحصتين:

- على خيرة الله يا طارق، روح اعرض نفسك على دكتور شاطر وإن شاء الله خير

رن هاتف طارق... أجاب محاولًا إخفاء انفعاله:

- ابوة يا هدير عاوزة إية يا حبيبتي؟

- صباح الخير، انت من يومين قلتلي إنك بتفكر تروح لدكتور نفساني، أنا عملت سيرش ع النت عن كذا حد شاطر وجيبتلك اسماءهم وعناوينهم، هبعتهالك على الميل، اختار اللي انت شايفه وحاسس إنه كويس، أو اسأل برضه أي حد من زمايلك، المهم إنك تروح لواحد شاطر.

- هأ... هسألهم على إية؟! انتي عاوزاني أفضح نفسي بنفسي؟! ثم إن هم هيعرفوا منين الدكتور الكويس من الوحش؟ للأسف مافيش حد فيهم مجنون، ولا كان بيحب واحدة ومش قادر ينساها! ولا عايش مأساتي...

- معلش يا طاروق، انت مش مجنون ولا حاجة، وماتنساش إن معظم الناس المثقفين المتفهمين والمتفتحين، بيلجأوا لموضوع الدكتور النفسي ده..

- الله يخليكي ليا يا حبيبتي ويخليكي لعلاء خطيبك. وإبقي سلميلي عليه

- إن شاء الله. المهم أنا بعتلك الملف خلاص، وفيه حوالى ١٢ دكتور قعدت طول الليل ابحث عن أفضلهم، بدأوا بـ ٣٤ دكتور، صفيتهم في الأخر على الاتناشر دول.

مكتبة عابث الإلكترونية

- شكرًا يا هدير.. أنا هفتح الملف أهو. مع السلامة يا حبيبتي

قال له حمدي الذي لا يزال معه:

- أختك شكلها بتحبك قوي يا طارق.

- آه وأنا كمان بحبها، بتعتبرني باباها أساسًا... وابنها في نفس الوقت. تصدق سهرت طول الليل تجيبلي عناوين دكاترة كويسين؟ تعالى بقى اختار معايا واحد منهم...

- اختار إيه يا عم؟ هما عرسان متقدمين لبنتك؟ أقعد وروق كده واختار على مهلك، الاقرب لبيتك أو للشغل أو حد سمعت عنه... المهم أنا همشي بقى عشان في شحنات هتسافر بكرة ولازم أباشرها بنفسي... أشوفك على خير...

خرج حمدي، وبدأ طارق في اختيار عيادة قريبة من مقر عمله في مدينة ٦ اكتوبر، فوجد أقربهم عيادة في المهندسين، اتصل بها ليحجز، أجابه صوتًا كصوت هيفاء وهي بنفس طريقتها "شكلًا وموضوعًا":

- حضرتك أول حالة يا فندم، ميعادك الساعة ستة بالظبط...

جحظت عيناه لثانيتين بعد سماع صوتها.... أنجز عمله بسرعة، ثم ذهب إلى العيادة، حيث وصل قبل موعده بعشرين دقيقة.

عيادة كبيرة ببرج فخم، بها ثلاث سكرتيرات حسناوات، اثنتان على جانب الردهة، وسكرتيرة رئيسية مقابلة لهم، الممرضة حسناء أيضًا، فرد أمن يقف بجوار الباب، لا فرق بينهم في الطول.... أو العرض، دروع في خصره مسدس ٩ ملّي، شاخص النظر، حابس الأنفاس، لا شيء يتحرك فيه سوى عينيه، التي أحيانًا ترمق إحدى السكرتيرات الجانبية، حينما دخل، ظن من الوهلة الأولى أنه داخل شركة استثمارية عالمية ضخمة. هدوء مُمل، يكسر رتابته صوت السكرتيرة الخمرية اللون التي تجلس في مواجهته، ترد على الهاتف وتعطي المواعيد، إنها اللعينة التي ردت عليه، أيقن أنها لا تشبه هيفاء وهبي في صوتها فقط!!

دخل الدكتور، فانتفضن ناهضات في لحظة واحدة، ولا يزال فرد الأمن لا يتحرك كتمثال في متحف الشمع، دخلت وراءه مباشرةً السكرتيرة الرئيسية، شقراء كالروسيات، تسريحة شعرها متقنة كالمضيفات، أخبرت طارق أن أمامه عشر دقائق ليدخل.... استغلها في الاتصال بأخته:

- أيوة يا هدير.. أنا وصلت للدكتور أهو.... في المهندسين، هو أقرب حاجة لشغلي بيني وبينه نص ساعة تاكس.... حاضر هبقى أطمنك... اوعي الموضوع ده يطلع برة يا هدير... منا عارف يا حبيبتي بس برضه بأكد عليكي... مع السلامة

مكتبة عابث الإلكترونية

أغلق الهاتف وسرح قليلًا: هل فعلا هذا الطبيب سيساعده في اجتياز مشاكله وحلها؟ هل الذي يعاني منه مرض نفسي، حتى وإن كان مرض فهو لا يريد أن يشفي منه!! إذن لماذا موجود هنا الآن!!... يحاول أن يتظاهر أمام نفسه - مكابرة - أنه يريد نسيان مرام، التي قضى حياته يبحث عنها، وحينما وجدها ضيعها بكل حماقة، وعندما ضيعها ندم عليها. يأمل أن تعود إليه من جديد، لتطفئ نار حرمان سنين عِجَاف مرت عليه بدونها كعصور، قصة أشبه بمأساة يونانية قديمة، يؤديها ببؤسٍ مُتقن على مسرح الشاعر العظيم سوفوكليس، وكان هو بطلها الذي ينتزع دموع المشاهدين وهم يرونه يتألم من شدة تعلقه بالحب القديم...

قاطعت شروده السكرتيرة الشقراء، التي خرجت توًا من غرفة الدكتور، ونسيت أن تنظر في المرآة قبل خروجها، حيث لمح إحمرارا خفيفا على رقبتها الشمعية شديدة البياض، وخُصلة من شعرها قد انحرفت عن تسريحتها المتقنة كالمضيفات، يبدو أنه قبَّلها قبلة ساخنة بعض الشيء!! كان ذلك واضحًا من نبرتها أيضًا، عندما قالت له في ارتباك:

- أستاذ طارق عفت الشيمي.... اتفضل حضرتك د. معتز قطب جوة في انتظارك...

*****

دخل طارق غرفة د. معتز. بدت عليه الرهبة، التي سرعان ما زالت عندما قابله الدكتور بابتسامته، كأي دكتور نفسي يقابل حالاته لأول مرة، كي يشعروا بأريحية معه...

- مساء الخير يا دكتور.

- مساء الخير... (نظر إلى جدول أسماء الحالات).. إزيك يا أ. طارق

- ازي حضرتك يا دكتور. أنا سمعت عنك كلام حلو قوي يا دكتور وعرفت إنك شاطر...

(أحيانًا يخرج الكذب من الإنسان في صورة مجاملة)

- شكرًا لذوقك، اتفضل أقعد على الشيزلونج واعتبرني هوا أو فرااغ.. اتكلم وقول كل حاجة وماتفكرش ولو للحظة إنك قدام دكتور نفسي. أنت هنا عشان تطلع كل اللي جواك، أنا صديقك، اتكلم وقول بتعاني من إيه كإنك بتفضفض قدام مراية بالظبط، بدون أي حذف لأي تفاصيل، بدون أي تجميل، بدون أي خجل، كل كلمة انت بتقولها يا طارق بتعتبر سر بيني وبينك بس وبتموت مع موتي، وكل ما تطلع اللي جواك أكتر أنا هقدر أشخص حالتك مظبوط وأعالجك...

مكتبة عابث الإلكترونية

نزل كلامه بردًا وسلامًا على طارق، فأثلج صدره وشعر بالاطمئنان، وعدّل من وضعية جلوسه القلقة على الشيزلونج، فارتاح أكثر...

- ربنا يطمنك وبخليك يا دكتور، أنا فعلا استريحتلك، وبإختصار أنا موضوعي إن في...

- لالالالا أنا مش عاوزك تختصر، من خبرتي حسيت إن حكايتك كبيرة وهم تقيل على قلبك، وموضوع محيرك، و مشكلة تعباك قوي، عرفت كدة من حركات إيدك، قلق عنيك، نبرة صوتك، طريقة كلامك...احكي بدون أي اختصار.. بالتفصيل

- الموضوع يا دكتور إني كنت أعرف بنت أيام الكلية، كنت بحبها وبتحبني حب مش ممكن أقدر أوصفلك حجمه، وسيبتها لأسباب معينة، بالرغم إنها خارج إرادتي، لكن عقدة الذنب مش مفارقاني، لما أنهيت علاقتنا قلت في بالي هنساها، لكن أهو مرت سنين وسنين واتجوزت وخلفت لكن لسة مانسيتهاش، ودة مسببلي مشاكل في حياتي، كتير ناس بتكلمني وبيقى سرحان مابردش عليهم، تفكيري فيها خلاني ببساطة شديدة بنسى أي حاجة تانية، ودة عاملي مشاكل في الشغل وفي حياتي، ذكرياتها بتحتل ٩٠ % من إجمالي ذاكرة دماغي، أنا مش عارف أنساها..... نفسي أنساها بس مش عارف، أو مش عاوز، بخاف من إني أفتكرها، أو أفكر فيها، أنا مش عارف أنا عاوز إيه بس اللي أعرفه إني نفسي أعيش طبيعي... ونفسي أشوفها ولو لدقيقة واسمع صوتها، أنا تعبان يا دكتور... جيت في فترة عملت لنفسي عقاب أعاقب نفسي بيه لما افتكرها، بس مافيش فايدة...

وإية بقى يا طارق العقاب ده؟... سأله مبتسمًا

أهو دش ساقع!!

هههههه مين اللي أشار عليك بكده؟ طب انت حاولت تتقرب من ربنا وبيتك؟

- يا دكتور تأكد إني عملت كده، وبعمل كده مازلت، الموضوع مالوش علاقة بيهم، أنا بحبهم، بس بحبها، ده اللي مخليني تعبان، عالجني يا دكتور إديني حقنة هوا وريحني من الحياة ومن اللي أنا فيه ده...

- مانقولش كده يا طارق، عاوز تموت؟!! الحياة جميلة وفيها حاجات كتير حلوة...

- مش باين يا دكتور طالما مش قادر انساها... كل حاجة ملونة بشوفها سودة، مش عارف أعيش طبيعي يا دكتور... يتحدث بانفعال

- ياااااااه للدرجادي يا طارق؟

- وأكتر من كده يا دكتور...

- إية اللي خلاك تسيبها وتتخلى عنها زي ما بتقول كده؟ طالما كنت بتحبوا بعض كل الحب ده، إحكيلي سيبتها ليه بالتفصيل... الموضوع يا دكتور إنه...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

حديقة الجزيرة المطلة على النيل: مكان مناسب لشاب جامعي يعمل في مكتبات مختلفة وهو يدرس، كي يتحصل على مال قليل ينفقه على نفسه، وبالكاد يكفيه.. تكلفة التذكرة جنيهًا واحدًا.

أصبحت لا تريد شيئًا من هذه الدنيا سوى طارق، تريد أن تعيش معه للأبد. كل يوم يمر عليهما كان حبهما يزيد أكثر من اليوم الذي يسبقه. عامان، ولم يشعرا بالملل من علاقتهما، أحيانًا بعدما يوصلها إلى بيتها - كالعادة - يدلف إلى بيته مباشرةً، ليتصل بها حتى مطلع الفجر، فيتوضئان ويصليان في نفس الوقت. كانت تستغرق وقتًا طويلا في الصلاة، حيث تظل أكثر من خمس دقائق في السجدة الواحدة، تدعو لطارق أن يُنير الله طريقه، أن يتمم علاقتهما بالزواج، أن تظل معه إلى آخر العمر...

كان طارق يريد أن يتزوجها اليوم قبل غدًا، لذا انتظر حتى يعود أخوها محمد من الخارج حيث يعمل، ليتقدم طارق له رسميًا؛ حيث إنه ولي أمرها، ويجب موافقته أولًا...

"محمد" بإيجاز:

سماحة وبرود نبت لهما يدان وقدمان تدبان على الأرض

عاد إلى مصر في صيف ٢٠٠٥، حيث إجازته السنوية، فرحت أخته كثيرًا، ليس لعودته اللامشروقة، وإنما لتخبر طارق حتى يتقدم ويطلب يدها منه. أعطته رقم هاتفه وأخبرته الميعاد الذي يتصل فيه، وأعطت

فكرة مسبقة عنه، فاتصل به في الميعاد، كان خائفًا جدًا، حيث علم بها أنه جاف في معاملته مع كل الناس، سماجته جعلت أغلب الناس تنفر منه، متعالٍ، مغرور، فامتلكته الرهبة:

- الو ازي حضرتك يا بشمهندس محمد.

- أهلا.. مين معايا؟

- أنا طارق اللي أخت حضرتك كلمتك عنه. أ. أنا..

- أيوة أيوة يا طارق، هي قالتلي إنك عاوز تكلمني... في حاجة؟ عاوز إية يعني؟

طريقة كلام محمد جعلت طارق يتلجلج في الكلام أكثر ويرتبك

- حضـ... حضرتك أنا كنت عاوزك تديني ميعاد عشان آجي انا ووالدي نتقدم لأخت حضرتك.

- مممم طب اتصل بيا بعد ساعة يا... انت قولتلي اسمك اية؟

- طارق.....(ابتلع ريقه)..... حضرتك

- آه.. إبقى اتصل بيا بعد ساعة أقولك على ميعاد تجيلي فيه.

بعد ساعة، اتصل به طارق وأخذ منه الميعاد وعنوانه. كان هذا الميعاد بعد أسبوع كامل، ما أعطى انطباعا لطارق كيف أن وقت هذا السمج

مكتبة عابث الإلكترونية

ثمين جدًا، لدرجة أنه لا يجد وقت ليقابله... وعلى كل... فقد انتظر هذا الميعاد على أحر من الجمر، حتى جاء الميعاد، وذهب إليه...

برج ٢٠ دور من أبراج فيصل الجديدة، بكل دور ثلاث شقق، به أربعة مصاعد واسعة. المدخل رخام... بوابته فخمة... مرآة بحجم الحائط يمينًا ويسارًا...

وصل طارق إليه بصحبة والده الحاج عفت الشيمي، حاملًا بيديه الاثنتين أربع علب حلوى وجاتوه، رن جرس الباب، لتفتح له خادمة (كان قد اتفق معها مسبقًا على الحضور في هذا اليوم فقط، لينقل لهم أنه لديه خادمة وأنه فاحش الثراء!! وبالفعل انتقل لهم هذا الإحساس)

دخلا... جلسا على الصالون المذهب، أخذت الخادمة منهم الحلويات والجاتوه قبل دخول محمد بناء على تعليماته، حتى لا يرى هذه الأشياء على المنضدة عندما يصافحهم، فيضطر أن يقول لهم (ليه بس التعب ده كله مالهوش لزوم والله)

كان البيت هادئًا جدًا، هدوءًا مريبًا، الأمر الذي جعل القلق والرهبة يتسللان إلى قلب طارق ووالده، الذي ذهب بطبيعته مرتديًا جلباب أبيض.

قابلهم محمد وصافحهم بطريقة باردة، تحدث إلى طارق بادئا حديثه بابتسامة تخرج من فمه على استحياء، لم تظهر أسنانه حتى:

- انت كنت عاوزني في إية بالظبط يا أيمن؟

- لا حضرتك أنا اسمي أيمن... اسمي طارق

- اهوة يا طارق انت كنت قولتلي في التليفون إنك عاوز تتقدم لأختي..

- آه بالظبط إن شاء الله

شبك أصابعه عند ركبتيه، سأله بغتة كوكيل نيابة:

- انت معاك شهادة إية؟

- أنا لسه...

- انت شقتك هتبقى فين؟

- إن شاء الله هحاول آخد شقة قانون جـ...

- خلصت جيشك وللا لسة؟

تدخل الحاج عفت الشيمي، الذي كان ينظر إلى الأرض ممتعضًا من طريقة محمد حيال ابنه وتحدثه إليه بتعالٍ شديد ومن طرف أنفه.

- بقول لحضرتك إية، إحنا ناس ولاد بلد ونعرف في الأصول، عشان كده دخلنا من الباب، وجينا لحد سعادتك بعد ما اديتنا الميعاد - اللي بعد أسبوع - جينا عشان نقولك عاوزين بنتكو لابننا، ونسمع طلباتك، فيارِيت حضرتك تتفضل تقول كل طلباتك، وإحنا هندرسها ونشوفها،

مكتبة عابث الإلكترونية

لكن تأكد من دلوقتي إننا هننفذ كل طلباتك "عشان خاطر أخت سيادتك تستاهل اكتر من كده"...

بدا وجه محمد يتغير مشمئزًا من طريقة كلام والد طارق المقتضبة والموجزة، والتي قاطعته في إظهار تعاليه وممارسة التباهي الكاذب على ابنه طارق، رد عليه بابتسامة صفراء:

- آيوة يا حاج أنا معاك في اللي قلته، وعشان كده أنا أحب أقولك إني معجب جدًا بطارق ابنك، لكن بعد إذنك سيبني استفسر منه عن كذا حاجة.

- انت خلصت جامعة يا طارق؟

بدا على طارق القلق، وشعر بالعرق يقطر على ظهره...

- لا لسة حضرتك، بس أنا في آخر سنة: آداب قسم آثار يوناني...

- جميل... طيب خلصت جيشك؟

- مهو حضرتك لو أنا كنت خلصت جامعة أكيد كنت هعرف موقفي من التجنيد.

- شقتك جاهزة؟ ولو جاهزة مكانها فين؟ وهتجيب شبكة إية وبكام ومنين؟

- مهو حضرتك أنا جاي أعرف منك طلباتك كلها، وأنا هنفذها بالحرف، كل اللي أنا عايزه إني بدال ما أقابل أخت حضرتك في الكلية بدون أي ارتباط رسمي، إني أقابلها وهي خطيبتي، وبعد ما أخطبها بسنة ونص هتجوز زي..

قاطعه محمد في هدوء ولازالت ابتسامته الصفراء تلازم محياه لم يظهر من وراءها أسنانه...

- بص حواليك كده يا طارق، كل كل اللي حواليك ده أنا عملته قبل ما اتجوز، التابلوه الرااااائع اللي وراك ده أنا شاريه بـ ١٠ تلاف جنيه، طقم الحمام من السيراميك الفاخر درجة أولى، مكلفني لوحده ٥ تلاف، الأرض اللي انت دايس عليها من البورسلين مكلفاني ٢٠ الف جنيه، أنا كل ده عملته قبل ما اتقدم لمراتي... انت تقدر تعمل كده؟

- صوابع حضرتك مش زي بعضها، أنا كل اللي محتاجه هو إنك توافق على خطوبتنا، وهبدأ أعمل على قدم وساق عشان أحقق حلم حياتي وهو إني اتجوز أخت حضرتك، وتأكد إن دي رغبتها برضه..

- أختي صغيرة لسة وماتعرفش مصلحتها فين.

- لكن أنا أعرف مصلحتي فين.. وأنا لسة بكَوِن نفسي، و كلها سنة واخلص دراسة وابدأ أشق طريقي، وتأكد إني بعاملها ومعاملها بما يرضي الله، وهي متأكدة من ده.

مكتبة عابث الإلكترونية

- جميل... خلص كليتك. شوف موقفك من التجنيد. اشتغل في مكان ثابت ومؤمن بمرتب كويس. حضر شقتك وتعالى، في الحالة دى هبقى أفكر أوافق عليك وللا لأ... نورتنا يا حاج. نورتنا يا طاروق... تحبوا تشربوا اية؟

- نظر طارق لوالده، نهضا وقد بدا على وجوههم التجهم وخيبة الأمل.

- شكرا يابنى إحنا هنستأذن بقى.

عند الباب، استدار له طارق مرة أخرى، تحدث له متوسلًا:

- أنا بس كنت طمعان إنك توافق بشكل مبدئي، على الأقل تبقى دفعة قوية ليا، وأحس إن في أمل في اللي بعمله عشان...

- حتى لو ماوافقتش عليك، هتبقى كونت نفسك وتقدر تشوف مليون واحدة أحسن من أختي، انت عارف لما كنت في سنك يا طارق، أنا كنت...

قاطعه الحاج عفت: إحنا آسفين يابني إحنا عطّلناك، نلحق نرجع بقى لأننا راكنين تحت صف تاني.

- نورتنا يا حاج... نورتنا يا طارق.

نزلا في نفس المصعد الذي صعدا فيه، شعرا كأنهما يهبطون من علو عشرة آلاف طابق، ساد التجهم على وجههما، حتى وصلا إلى سيارتهما الـ ١٢٨ موديل ١٩٨٤ التي يجب أن يطرق سقفها بيده اليسرى طرقة

قوية وهو ممسك بيده اليمنى مقبض الباب ليفتحه، وبالكاد تمشي، لكن بعد أن يصرخ الموتور لعشر دقائق..

اختلس محمد النظر إليهم من خلف الشباك، دخل بسرعة إلى أخته التي تجلس مع زوجته في الغرفة الأخرى تبكي: حيث كانت تسمعهم. قال لها أخوها لائمًا:

- عربية ١٢٨ وموديل قديم. لسة مجابش الشقة. لسة بيدرس!

- يا محمد حرام عليك انت أحرجته وكلمته بطريقة وحشة. ده إنسان مجتهد وأنا مؤمنة بيه جدًا، ومتأكدة إن مستقبله هيبقى أحسن. انت حتى استخسرت إنك تقوله كلمة حلوة تخليه مايفقدش الأمل. انت استخسرت فيه حتى الأمل؟!!...

- يا بنت العبيطة انتي ماينفعكيش زفت ده، أنا عاوز أجو...أجو.... أجوزك لواحد غني.

- بلاش الكلام ده يا محمد انا مش صغيرة وعارفة كويس أنا عاوزة اية، ومش متخيلة إني اتجوز حد غير طارق، أنا ماتهمنيش الفلوس أكتر ما يهمني اللي هعيش معاه وهكمل معاه عمري. وممكن أعيش مع طارق ولو بـ ١٠٠ جنيه في الشهر...

- لاااااا انتي الكلام معاكي لا هيودي ولا هيجيب، أقولك.... إخبطي دماغك في الحيط...

مكتبة عابث الإلكترونية

تركها غاضبًا، دلف لغرفة نومه ودخلت وراءه زوجته كي تهدىء من روعه.. قالت له بنبرة هادئة:

- ماتزعلش نفسك يا محمد وماتعصبش نفسك الموضو....

قاطعها غاضبًا بصوتٍ عالٍ:

- بقولك إية سيبيني في حالي يابنت الكلب يا فقرانتي كمان...

- بنت كلب عشان بقولك إهدى! انت هتتعصب عليا ليه وأنا مالي!!

- أنا أسف معلش، بس أديكي شايفة البهائم اللي عاوزة تهد كل حاجة بخططلها. بحبها لعيل تافه وفاشل.

- تبقى زعقلها هي لكن أنا على الله تزعقلي تاني، أنا مش بشوفك في السنة غير أسبوع أو عشر تيام، هتنكد عليا فيهم إنت واختك؟!!

- حقك عليا!! أقوم أحب على دماغ أمك يعني وللا أعمل إيه؟!! أنا هتخمد عشان تعبان...

- هتتخمد؟ انت هتضيع إجازتك كلها في النوم؟!! مكنتش تيجي مصر بقى.. حياة زوجية سودة!! انت طول السنة سايبني لوحدي في مصر، ومسافر برة، ليه كل ده؟!! عشان بتجري ورا طموح عاوز تحققه؟!! جميل محدش يقدر يغلطك، لكن مش على حساب حياتك الزوجية.

وحياتي أنا كمان. انت عارف أنا بحس بالوحدة إزاي في غيابك؟ أنا كتير بيض محتاجالك ومش بلاقيك!!

- قلت لك تعبان! وعلى فكرة الحياة الزوجية مش سرير بس...

- .....!!!!

- أخرجي للبت دي عقّلها وحاولي تقنعها إن زفت دة مش هينفعها، قوليلها لو سمعت كلامي هجوزها لواحد صاحبي غني جداً وكلنا هنعيش في جنة، لكن الزفت اللى اسمه طارق هيعيشها في حارة...

- هأ... وماله.. نام نام!

قالتها بسخرية قبل أن تخرج لترى أخته غارقة في دموعها بعد أن سمعتهما، حاولت التحدث إليها لكنها ركضت نحو الباب.. وانصرفت...

*****

بدا على وجه د. معتز التركيز العميق، وهو ينصت لكل حرف يقوله طارق، سأله متعجبًا:

- طب تفتكر ليه اتكلم معاك بالأسلوب ده؟

- مهو ده اللي مجنني يا دكتور، مافيش سبب واضح، لما جت حكتلي على اللي سمعته أنا كنت هموت من الزعل والقهر، محمد ده إنسان مريض...

مكتبة عابث الإلكترونية

التقط معتز علبة سجائره الذهبية التي بجواره على المنضدة:

- إتفضل سيجارة؟ وللا أقولك أنا معايا سيجار مستورد ممتاز...

- شكرا يا دكتور أنا هشرب سيجارة.

رفع سماعة الهاتف واتصل بالسكرتيرة:

- هاتي قهوة مظبوط، وإنت يا طارق تشرب إية؟

- قهوة زي حضرتك يا دكتور، بس تكون سادة...

- واحدة مظبوط واحدة سادة بسرعة..... (وضع السماعة).... انت بتشتغل إية يا طارق؟

- رئيس قسم الشئون الإدارية في شركة خاصة في ٦ أكتوبر.

- جميل. ربنا يوفقك يا طاروق.. انت باين عليك إنسان محترم ومش مغرور... عكس أخو حبيبتك...

- الله يخليك يا دكتور.. الغرور مش حلو، أنا بحب أكون على طبيعتي.

حوار حميمي أجراه معتز، كي يزيل أي حواجز متبقية بينه وبين حالة أمامه، هكذا يفعل بعض الأطباء النفسيين، إلى أن دخلت عاملة البوفيه، وضعت فنجاني قهوة على المنضدة الصغيرة بجوار الشيزلونج. استطرد معتز:

- طارق، مرتبك كام دلوقتي بالتفصيل؟

٨٢٠٠٠ جنيه، وكل ٣ شهور حوافز ٦٣٥٠ جنيه، أرباح سنوية حوالى ٨ ألف جنيه يا دكتور بس ليه؟ هههههههه عندك عروسة ليا؟

- هههههه.... قبل كده كنت بتاخد كام ووظيفتك كانت إيه؟

- تقريبا نص المرتب ومافيش حوافز ولا أرباح سنوية، قبل الشركة اللي أنا فيها دلوقت كنت في شركة تانية في المعادي، تدرجت فيها من موظف صغير لحد ما كبرت، طورت فيها حاجات كتيرة لحد ما جالي عرض من الشركة اللي أنا فيها دلوقت، أما أيام الكلية كنت بلقط رزق، في المكتبة دي شوية والمكتبة دى شوية، وكل واحدة يطلعلي منها حوالى ١٠٠ جنيه وبعمل في الشهر حوالي ٥٠٠ جنيه، دي الأيام اللي رفضني فيها أخوها...

- وبعد ما مشيت انت ووالدك بقى عملتو اية؟

*****

بعدما غادر طارق ووالده، ظلا متجهمين، سارحين، كأن على رأسهما الطير. كسر طارق هذا الهدوء:

- يكون في علمك يا بابا، أنا مش هيأس، ومش هسيب حبي يضيع مني ولو على جثتي.

مكتبة عابث الإلكترونية

- انت فعلا بتحبها يا طارق؟

- فوق ما تتصور يا بابا، وهي كمان بتحبني زي ما بحبها ويمكن أكتر، أنا مش هقدر تخيل حياتي من غيرها أساسًا..

- على خيرة الله، أنا لما شفتها الأسبوع اللي فات معاك يعلم ربنا اني استريحتلها وحبيتها، خلاص يا طارق خليها على الله وإن شاء الله تكون من نصيبك..

اتفق طارق معها أن يتغلبا على أي حجر عثرة في طريقهما، كان آخر عام لطارق في الجامعة، بينما هيَّ كانت في الفرقة الثالثة، ظلا يذاكران ويجتهدان، عامًا من الكفاح انتهى بحصول طارق على الليسانس، ونجاحها هيَّ الأخرى، وانتقالها إلى الفرقة الرابعة، حصولها على تقدير عام جيد جدًا كان دليلا دامغًا لأخيها أن علاقتها بطارق لم تعطلها عن النجاح، بل بالعكس...

بعد حصول طارق على الليسانس، لم ينتظر موقفه من التجنيد، بل بادر بالبحث عن وظيفة - ولو مؤقتة - وحينما يأتي موعد التجنيد سوف يرى ماذا يخبئ له القدر...

جمع في ملف على حاسوبه أسماء وعناوين شركات مصر، رتبها حسب الأولوية له، قسمهم إلى مناطق، حدد يوم لكل منطقة، مناطق تستحق يومين أو ثلاثة، ومناطق تحتاج أسبوع كالمعادي و٦ أكتوبر...

من بين مئات الشركات التي ذهب إليها طارق ليودع فيها سيرته الذاتية، اتصلت به شركة متوسطة الحال، تعمل في مجال الشحن والتخليص الجمركي، بدأ فيها من الصفر، عمل بهذه الشركة طيلة أربعة أشهر، حتى جاء موعد التقدم للتجنيد، ومن حسن حظه أخذوا من شهر ميلاده ثلاثة أيام فقط، يومه ليس بينهم، فرح لذلك فرحًا شديدًا، فعقبة أخرى قد أزيلت عن طريقه نحو تحقيق حلمه...

*****

صيف ٢٠٠٦....

ميعاد عودة السمج مرة أخرى إلى تراب الوطن! كانا يترقبان قدومه بشدة، اتصل به طارق ليحدد ميعاد، فأعطاه ميعاد في اليوم التالي الساعة ٧ مساءً.

أغلق محمد معه الخط وهو يستشيط غضبًا، واتصل بأخته يوبخها على استمرار علاقتهما، لكنها أخبرته - كذبًا - أن وسيلة الاتصال بينهما هي والدته أو أخته... فقط.

ذهب طارق ووالده في الميعاد بالضبط، قابلهم محمد بابتسامته البلاستيكية الصنع...

- منور يا حاج... منور يا طارق.

مكتبة عابث الإلكترونية

- بنور حضرتك.. زي ما حضرتك عارف إن هدف الزيارة هو طلب إيد أخت حضرتك...

تحدث طارق بثقة في النفس أكثر، بعدما حصل على الليسانس، أنهى موضوع الجيش، التحق بوظيفة محترمة... أخيره بكل هذا، فرد عليه محمد:

- والشقة؟

- لسة الحقيقة.. بس هخطب أخت حضرتك، بعدها هعمل المستحيل عشان أجيب شقة وافرشها، أنا ممكن ماكلش أو اشرب في سبيل إني أعيش باقي عمري مع إنسانة زيها..

- بص يا طارق عشان أكون واضح معاك، أنا مش شايف إنك عملت إنجاز، فين الشقة؟

- مهو أنا حضر...

قاطعة مرة أخرى، بينما الحاج عفت يستشيط غضبًا:

- بص يا طارق، أنا ماينفعش أعشمك بحاجة بدون ما اتطمن ان معاك شقة، ومش إيجار جديد خلي بالك..

- طب أنا كنت بستأذنك أخطبها الاول، وفي خلال سنة واحدة هكون معايا شقة وهفرشها كمان..

- ماينفعش يا طارق.

- ليه ماينفعش؟!! أنا حققت أكتر من ٩٠ % من طلباتك، أتعهدلك إني في خلال ست شهور أكون جيبت شقة وهبدأ أوضب فيها...

أجابه بنفس السحنة الباردة:..... لأ....

- لا ليه؟!!

هنا تدخل والده الحاج عفت، عندما وجد أن طارق بدأ يتحدث بانفعال، قائلًا لمحمد في هدوء:

- خلاص يابني اعتبر الشقة اتوجدت، في أقل من ٢٤ ساعة طارق هيكون معاه شقة مكتوبة باسمه وبعقد متسجل في الشهر العقاري...

نظر له محمد مرتبكًا من هول المفاجأة التي لم يتوقعها، القنبلة التي شد فتيلها الحاج عفت ورماها أمامه.. اعتقد أن موضوع الشقة سيكون شرطًا تعجيزيًا لا يستطيع طارق أن ينفذه، فيكون مبررًا قويًا لرفضه... بابتسامة يشوبها الذعر رد على الحاج عفت بغتة:

- فين الشقة دي يا حاج؟

- اللي إحنا عايشين فيها... تقدر تيجي تشوفها بكرة، شقة ١٢٠ متر: ٣ أوض وصالة كبيرة وفي حلمية الزيتون يعني يعتبر مكان راقي، أنا متأكد

مكتبة عابث الإلكترونية

إنها هتعجبك، وهكتبها قدامك باسم طارق أو حتى باسم أختك وهنسجلها في الشهر العقاري في حضورك..

- مينفعش أخلي أختي تعيش في شقة مع حماها وحماتها وإخوات جوزها...

- إحنا هنعزل وناخد شقة قانون جديد...

أردف طارق:

- كده حضرتك مافيش أي حاجة ناقصة، أخدت الشهادة، عرفت موقفي من التجنيد، شهرين تلاتة هخلص كورسات كنت باخدها، ومعايا شقة، وشغال في شركة محترمة في وظيفة محترمة ومتأمن عليا.. شنون اجتماعية وتأمين طبي..

شعور محمد في ذلك الوقت كشعور "أفروديت" البطلة الثانوية لكارتون (مازنجر) بعدما تطلق صاروخيها البانسين وتظل باقي الحلقة عديمة الفائدة بلا أي أسلحة، قال لطارق:

- خلاص يا طارق أنا في الأول والآخر يهمني مصلحة أختي، وطبعا انت عارف أنا بحبك قد إيه، بكرة إن شاء الله هجيلكو الساعة ٥ العصر أشوف الشقة ونتفق على ميعاد الخطوبة.

كادت أخته التي كانت في الغرفة المجاورة تطير من فرط سعادتها، نفس الشيء حدث لطارق، فبينهم وبين تحقيق حلمهم خطوة واحدة فقط.

في طريق عودتهما: ظل طارق ينظر إلى والده طول الطريق، حتى أغرورقت عيناه، فلمحه والده...

- مالك يا طارق؟ بتبصلي كده ليه يا حبيبي؟

- ربنا يخليك لينا يا بابا... احنا عمرنا ما هننسالك الجميل اللي عملته معانا ده أبدًا...

- جميل إية يا أهبل؟ هو أنا عاوز إيه من الدنيا غير إني أشوفك انت وشريف وهدير متجوزين في بيوتكم ومتهنيين... الفلوس اللي كنت هجيبلك بيها شقة هشيلها في البنك لحد ما نكمل عليها ونشتري شقة جديدة وعقبال ما نكملها هناخد شقة قانون جديد.. ماتشغلش بالك.

أرسل له نظرة خاطفة، ابتسم ثم أردف:

- أنا يمكن يا طارق كنت قاسي عليكم وأنا بربيكم، وبالذات إنت، أنا عارف أني قسيت عليك شوية، وماكنتش بديلك فلوس كتير، بس انت أهو بقيت راجل محترم مجتهد، شيلت عني جملك، واشتغلت وكنت بتصرف على نفسك،

- نظر لوالده باعجاب، قائلًا في قرارة نفسه "ربنا يقدرني وأجيبلك انت واخواتي كل اللي تتمنوه"...

مكتبة عابث الإلكترونية

في اليوم التالي، ذهبا للشهر العقاري، ليقدم الأب تنازلًا عن الشقة لطارق، وكانا في انتظار محمد كما وعد. جاء متأخرًا عن ميعاده بساعتين، رغم أن العنوان غير معقد (سماجة مع سبق الإصرار!!)

في هذا اليوم، كان محمد قد نجح في إقناع زوجته بموضوع زواج أخته من هذا العريس الغني، وأنه سيكون فاتحة خير عليهما، واتفق مسبقًا معها أن تتواجد عند أخته في نفس لحظة تواجده مع طارق، لتنفيذ خطة القضاء على علاقتهما...

دخل محمد الشقة، ليس ليراها ويتفحصها..

- بص يا طارق، بص يا حاج عفت، أنا طبعا كان نفسي جدًا إني أناسبكم، لكن مع الأسف مافيش نصيب...

نهض طارق منفعلًا ونفضت عروقه، كان على وشك شطره لنصفين، أو إحكام قبضته على خصيته ليعتصرها، هدأ والده من روعه معتذرًا لمحمد قبل أن يطلب منه أن يكمل، فاستطرد السمج قائلًا:

- أنا مقدر شعورك يا طارق، لكن أختي متقدملها عريس غني جدًا، وهي موافقة عليه ومحرجة تقولك، العريس ده هيخلينا كلنا عايشين مرتاحين، وأعتقد إن انت هتكون مبسوط لو شفت أختي مبسوطة.. ده لو بتحبها فعلًا زي ما بتقول... استأذنك ممكن أدخل الحمام؟

دخل محمد الحمام ليرن على زوجته، التي طلبت حينها من أخته هاتفها بحجة أنها تريد أن تأخذ منه نغمات ورسائل، دخلت الشرفة وأرسلت لطارق رسالة، ثم وضعت رقمه في قائمة الحظر، ثم جعلت اسمه يندرج تحت رقم آخر، كانوا قد أغلقوه مسبقًا، وسيكون هكذا للأبد...

خرج محمد من الحمام، أردف كلامه لهم:

- وبعدين انت شاب يا طارق وقدامك الطريق طويل، هتقابل فيه ناس كتير، وأختي مش أول ولا آخر بنت هتبقى في حياتك، وخصوصًا انت دلوقتي بقيت ماشاء الله موظف كبير...

قطع كلامه حينما رن هاتف طارق برسالة، قال له محمد:

- لو مكالمة اتفضل ممكن ترد..

أخرج طارق هاتفه من جيبه، قال لمحمد وهو يمشي على سطور الرسالة بعينه:

- لا اتفضل كمل كلامك أنا.... بسمعك..... اتفضل ك... كمل كلا....

سكت فجأة، أعاد قراءة الرسالة في ترو:

مكتبة عابث الإلكترونية

"آسفة يا طارق، مكنش عندى الجرأة إنى أواجهك، فكرت إمبارح فى عرض أخويا محمد ولقيته مغري مايترفضش، أتمنى لك التوفيق فى حياتك.. سامحني"

مرت غيمة على وجهه، استقرت أمامه، سكنه مزيج من التجهم والحزن معًا، حاول أن يبلع ريقه وفشل، شعر بقطعة قطن كبيرة مُبتلة بعلقم تقف في حلقه، تحول دون خروج روحه من جسده، بدأ اللون الأسود ينزل تدريجيًا على عينه... راقبه محمد عن كثب، مستمتعًا بنجاح أهم جزء في خطته، وقف طارق في وهن، كاد أن يسقط، لكنه استند على والده المندهش، لا يعرف ماذا حل فجأة. صافح محمد في هدوء:

- عند حضرتك حق يا فندم، كل شيء قسمة ونصيب... بارك لأختك...

شعر محمد أن فرحة الدنيا لم تسعه، مبتسمًا ابتسامة ظفر عداء أوليمبي كسر الرقم القياسي بجدارة، كجراحٍ أمريكي وضع المشرط في جسد مريض ونجح في استئصال الورم الخبيث منه، وإبعاده عن طريقه، هذا ما لمحه طارق في عينه عندما صافحه...

ذهب بسرعة البرق لأخته، قبّل يد والدته التي طالما عاملها بجفاء وبغير اهتمام، معتبرًا أن اهتمامه لها ولأخته متمثلًا في المائة وخمسين جنيهًا الذي يرسلها لهما كل شهر، والذي لم يزد مليمًا واحدًا رغم مرور سنوات، سألها عن أخته فأخبرته والدته أنها في غرفتها تصلي وتدعو

الله أن يتمم لها مع طارق على خير. دخل غرفتها، وقف أمامها بوجه يحمل ابتسامة مشرقة إلى أن انتهت من صلاتها، لثم جبهتها قائلاً:

- حرمًا يا حبيبتي..

- جمعًا يا أخويا يا حبيبي..... ردت عليه بأريحية

- أنا رحت لطارق وشوفت الشقة

- وإية رأيك يا محمد؟

تلاشت ابتسامته وتحول ١٨٠ درجة، التقط من وراء الباب منضدة الرسم البياني التي تستخدمها في دراستها، رسم لها الشقة رسمًا أفقيًا، غرفة وصالة وأخبرها - كذبًا - أن الشقة قانون جديد وليست تمليك، ومساحتها ٥٠ مترًا، وأنها ستعيش معهم، ولم يتركوا لهم الشقة ويسكنوا في مكان آخر، سرحت قليلًا في كلامه وأخبرته:

- مش مشكلة يا محمد أنا موافقة على أي حاجة طالما هعيش مع طارق..

نزل بكف يده على وجهها وصفعها صفعة قوية، فسقطت بجسدها الواهن على الأرض، بعد أن ارتطم حاجبها بعمود السرير وسالت دماؤها. رفعت رأسها واضعة يدها مكان الصفعة، نظرت له والصدمة مرسومة على وجهها من رد فعله هذا!! دخلت والدتهما بعد أن سمعت

مكتبة عابث الإلكترونية

الصفعة والارتطام، صرخ في وجهيما كالمجنون، همَّ ليضربها ثانيةً، لكن حالت دون ذلك والدته. أمسكت يده قائلة:

- إية اللي انت بتعمله في أختك ده يا ظالم يا مفتري؟ حرام عليك سيبها...

- دى حيوانة مش متربية، وش فقر زي أبوها وزيك انتي كمان.

- انت بتشتم أبوك يا محمد؟! هيَّ خصَلِت؟!! ده جزاء أبوك في الآخر؟

قال لها بفظاظة:

- هو عمل لي إية يعني؟ راجل كان وش فقر زيكو، هو ماعملش ليا آآآآي حاجة، أنا اللي كافحت وذاكرت لحد ما وصلت للي أنا فيه ده، جاتكو القرف عيلة فقر، البت أنا عاوز أجوزها جوازة عِدلة، وهي مصممة تتجوز الواد الاهطل الهلفوت اللي اسمه طارق!!...

- روح يا محمد، قلبي وربي غضبانين عليك ومتبرية منك ليوم الدين، إلهي لا تربح ولا تعرف طريق الربح...

دعت عليه وبكت، ثم ارتمت فوق ابنتها لتحميها من بطشه. نظر لهما محمد شذرًا، بصق عليهما قبل أن ينادي على زوجته وينصرفا.

أرخى الليل أستاره، في نفس الوقت الذي ظل طارق يحاول الاتصال بها دون جدوى فتأكد له ما فهمه من الرسالة، ولازالت والدتها بجانبها

تحاول إفاقتها، لكنها كانت فاقدة الوعي، وتئن بشكل هيستيري. ظلت هكذا حتى الصباح، ثم استفاقت وهي تتمتم بكلام ليس واضحًا، يخبط الصداع دماغها من كل الجهات، ذبلت عيناها وأصبحتا محمرتين مثل كأسٍ مليء بالدم، سقطت منهما دموع ساخنة على خدها النضر، الذي أصبح صحراء قاحلة موحشة...

لا يهون عليها أنها على ثقة تامة أن طارق سيأتي مع شروق الشمس، سيأخذها في حضنه ويمسح دموعها، سيخطفها حتمًا، وسيتزوجها على سنة الله ورسوله، طالما والدتها توافق عليه، كانت هذه اللحظة في أكثر لحظة تحتاجه فيها، لم تكن بهذا الضعف من قبل...

راحة طارق لا تخطفها أنفها أبدًا، وإن أخطأتها أنفها، فقلبها لا يخطئ، شعرت أنه قريب، صاحت في لهفة:

- أنا حاسة إن طارق جاي يا ماما، أنا حاسة إنه جاي دلوقتي...

- دلوقتي إية يا بنتي الساعة لسة تسعة، شوية وهنتصل بيه نعرفه اللي حصل.

لم تكمل الجملة وطرق الباب، فتصيح أنها على صواب، فتحت والدتها الباب فوجدته بالفعل طارق، ارتسمت ابتسامة منكسرة على وجهها، متوقعة رد فعله عندما يراها هكذا...

مكتبة عابث الإلكترونية

دخل طارق متجهمًا بنظرات شاخصة تائهة، نظرات لا تحمل معنى محددا، ولا كلامًا بعينه التي امتلأت بالدموع، إذا طرفت عينه سيسقط سيلا من الدموع. لكنه حافظ على جفونه ثابتة، متظاهرًا بالقوة والتماسك، ممسكًا بحقيبة كبيرة تحتوي على كل هداياها له على مر السنوات الماضية، صورهما، رسائلهما، كل ما يتعلق بهما، انحنى قليلًا في هدوء وبرود، واضعًا إياها بجوارها، بينما لا زال ينظر لها، أمام جحوظ حدقتيها من شدة الذهول، لا تدري ماذا تقول!!

أخذ نفسًا عميقًا، حبسه بداخله لهنيهة، ثم رفع رأسه لأعلى مغمضًا عينيه فمر أمامه في ثانيتين كل لحظة كانت بينهما، زفر بهدوء، ثم فتحها مستجمعًا كل ما تبقى لديه من ثبات مصطنع قائلًا:

" اعتبري كل اللي مابيننا..... كإنه محصلش، كل شيء بيننا انتهى"

..... ومضى.....

غابت عن الوعي تمامًا وتم نقلها للمستشفى، ظلت قابعة فيها أسبوعًا تحيا على المحاليل المعلقة لها، تستفيق كل فترة، تتلفت حولها في جنون، فتجد نفسها في المستشفى ويخترق يدها خرطوم المحلول، تحاول أن تنزعه وهي تصرخ باكية " مش عاوزة أعيش، بعد طارق أنا مش عاوزة أعيش.."

تهدئ والدتها من روعها، وتستدعي الطبيب كي يعطيها مجددًا حقنة لتهدئتها، وتغيب مرة أخرى عن الوعي.

نفس الأسبوع الذي مرَّ على طارق بقلبٍ مُحطم يائسًا بائسًا. كلما تذكر خيانة حبيبته له.. يبكي لأنها باعته بثمنٍ بخس. في نفس الأسبوع، قابل بالصدفة بسمة التي هالها رؤيته في هذه الحالة، لم تصدق عينيها، أقبلت عليه بلا تردد، جلسا في أحد الأماكن العامة، وتحدثا كثيرًا.. صارحته بكل شيء بداخلها نحوه، حكت له عن الفترة السابقة التي عاشت فيها بدونه وقد انقطع عن المكتبة فجأة، أخبرته بأن صاحب المكتبة رفض إعطاءها رقم هاتفه، وأفصحت له عن حبها القابع بداخلها، ظل يسمعها لساعتين، وأول كلمة رد عليها بها:

" تتجوزيني؟

شعرت بسمة بالدنيا تلف من حولها، اتسعت عيناها لا تصدق ما سمعته، فكررها لها، فوافقت على الفور. أخبرها أنه يريد أن ينهي إجراءات الزواج في خلال أسبوعين، وافقت دون تردد، واستطاعت أن تقنع والديها بذلك. رفضا في البداية، لأنها لا تزال تدرس في الجامعة، فأخبرتهما أنها تستطيع أن توفق بين الزواج والدراسة. لم يستطيعا أن يرفضا لها طلبًا، فهي ابنتهما الوحيدة المدللة.

في اليوم التالي، تقدم طارق إليهم رسميًا، وأخبرهم أن الشقة ستكون جاهزة في غضون شهر، في خلال هذا الشهر سيكونان في شرم الشيخ لقضاء شهر العسل. في البداية، كان والد بسمة يشعر ببعض الضيق، لكنه لا يريد أن يرفض لابنته طلبًا، خصوصًا أن والدتها أخبرته أن بسمة تحب طارق منذ سنوات. تفهم الأمر بشكل حضاري ووافق.

مكتبة عابث الإلكترونية

خصوصًا أنه رأى طارق شخصًا طموحًا، ولمح ذلك في عينيه جيدًا. أخبره أنه على استعداد أن يساعده في أي تكاليف، لكن طارق رفض بشدة، وأخبره أنه يدخر مبلغًا سيضيفه على سُلفة من الشركة التي يعمل بها ليجهز الشقة.

بعد مرور أسبوعين آخرين، وقد تماثلت للشفاء قليلًا في المستشفى، حاولت الاتصال بطارق لتستفسر عما فعله، لكنها وجدت هاتفه مغلقًا كالعادة، أخذت تعبث بهاتفها في شرود تتذكره وترى رسائلهم، فوجدت بآخر رسالة صادرة من هاتفها.. نزلت عليها الصدمة كالصاعقة، اكتشفت سبب ما فعله طارق، بحثت بهاتفها أكثر، فوجدت أن رقمه مدرج في قائمة الأرقام المحظورة، وأن الرقم الذي تتصل به طيلة هذه الفترة ليس رقم طارق من الأساس، وإنما تم استبداله!

اتصلت بهاتف منزله، أجابها شريف أخوه بأنه تزوج، وهو الآن في شرم الشيخ لقضاء شهر العسل، وسيعود بعد شرائهم الأثاث وتجهيز الشقة...

ظلت شهرين ملازمة فراشها، لا تأكل شيئًا إلا بعد إلحاح والدتها، شاردة الذهن.. كلما فكرت أكثر تكتشف الحقيقة أكثر، طيلة هذه المدة يتردد عليها محمد كثيرًا، يُلح عليها أن توافق على زواجها من صديقه الثري، محاولًا إقناعها أن طارق لا يحبها من الأساس والدليل على ذلك أنه تزوج سريعًا، إلى أن رضخت في النهاية ووافقت بالزواج

من صديقه، الذي كان يعده بوظيفة في أحدى أكبر شركات السياحة في الشرق الأوسط كمهندس إستشاري فيها...

*****

ارتخت أعصاب د. معتز فجأة، تعرقت يداه وجبهته وفروة رأسه، شعر باضطراب في معدته، ارتخت أعصابه أكثر، فسقط من يده فنجان قهوته فأحدث جلبة، انحنى طارق ليجمع قطع الفنجان المكسورة، بينما حدق معتز في وجهه بعين ثاقبة ناقدة، لكن سُرعان ما نفض رأسه مسرعًا ناحية الهاتف لاستدعاء عاملة النظافة كي تنظف الأرضية، حجة كي لا يراه طارق هكذا، فيرتاب في شيء، وأيضًا كي يستجمع شتات نفسه مرة أخرى. دخلت العاملة، فطلب معتز منه أن يترك كل شيء ويجلس أمامه في مكتبه، حينها نظر له بعين غائبة، قائلًا بشرود بعد أن ابتلع لعابه بصعوبة:

- أنا كده عرفت قصتك كلها، هخلي سكرتيرتي تتصل بيك بكرة تديلك ميعاد تاني عشان نبدأ العلاج بعد التشخيص. بس حابب أسألك كام سؤال عشان تشخيصي يكتمل، وماتستغربش، ممكن تكون أسئلة غريبة بالنسبة لك لكن بالنسبة لي كدكتور نفسي ليها دلالات كتيرة...

أمسك ورقة وقلم، متظاهرًا أنه يجمع تفاصيل ومعلومات حول حالته... سأله في خوف من سماع الإجابه، وإن كان يعرفها مسبقًا..

- حبيبتك دى اسمها إيه بالكامل؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- مرام عز الدين... مش فاكر الاسم الثلا...

قاطعه بنبرة متهدجة، بعد أن بدا كأنه تلقى الضربة القاضية من بطل العالم في البوكس وزن ثقيل.

- مش مشكلة مش مشكلة. مرات محمد اسمها إيه؟

- مممممم مش فاكر.. بس هي اسمها مميز. مممممم آه فيروز.

مع كل حرف يخرج من في طارق، يقترب معتز من الحقيقة أكثر وأكثر، حتى بدت أمامه كالشمس في وضح النهار، أدرك أنه ظلَّ لمدة ساعتين يستمع لشخصٍ يحكي له عن قصته مع زوجته!! يشكو من عدم قدرته على نسيانها!!

سرح بعيدًا إلى كوكب أبعد من بلوتو، شعر ببرودة سرت ببطء في جسده، مد يده لطارق ليصافحه بذهن مشوش وعقل غائب..

- على ميعاد تاني... سكرتيرتي هتبقى تتصل بيك تقولك عليه...

- شكرًا جدًا يا دكتور، يعلم الله إني استريحتلك جدًا وحسيت إنك أخ، والكلام اللي حكيته ريحني لما خرجته...

عندما أمسك طارق مقبض الباب، استوقفه معتز بسؤال على بغتة:

- طارق انت نمت مع مرام، بوستها، حضنتها قبل كده؟

- لا يا دكتور. اشمعنى؟...

بعد ما سيبتها... وانت اتجوزت وهي اتجوزت... اتقابلتوا؟

لا..

أومال عرفت إزاي كل اللى حصل لها بعد ما نهيت علاقتك بيها؟

عن طريق صديقتها، كانت عندها في يوم وحكيتلها، ووصيتها لو صادفت وقابلتني تعرفني... إشمعنى يا دكتور؟

سأله مستغربًا بعد أن صرَّ ما بين عينيه

سرح معتز وشرد بعيدًا، لم ينتبه لسؤال طارق، ظل هكذا لبضع ثوان، وعند تكرار طارق سؤاله استجمع نفسه ذهنيًا قائلًا له بارتباك كاد أن يشل تفكيره، وابتسامة مصطنعة مرتعشة:

عادي يعني.. منا قولت لك.... حبيت أعرف التفاصيل عن حكايتك عشان أقدر أتعامل مع حالتك وأوصفلك العلاج الصح...

مممم شكرا يا دكتور معلش أنا خدت من وقتك كتير.

ماتقولش كده يا طارق، أولًا ده شغلي، ثانيًا أنا كمان استريحتلك... على ميعاد تاني بقى..

إن شاء الله يا دكتور. عن إذن حضرتك.....

خرج طارق، وشرد معتز مرة أخرى، مندهشًا كيف كان يصغى بأذن دكتور نفسي إلى قصة زوجته، وماضيها مع رجل آخر!!

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

انزاح حمل ثقيل من فوق صدر طارق، فقط لمجرد أنه حكاه. تذكر عندما كان يبكي بحرقة أمام علا صديقتها، التي بحثت عنه طويلًا كي توصل له رسالة مرام قبل أن تتزوج وتختفي عن أعين كل العالم. تذكر عندما كان يبكي دمًا وهي تحكي له عما حدث لمرام، وعن المؤامرة الحقيرة التي دبَّرها أخوها.. ولكن متى؟!! بعد فوات الأوان... بعدما تزوج... وتزوجت

هناك دائمًا منطقة غامضة لعينة في حياتنا تسمى "المنطقة الرمادية" وهي التي نفعل فيها كل شيء... سنندم عليه فيما بعد...

كل شيء حال دون زواجهما... حدث في هذه المنطقة.

يمشي البهوني كما يمشي الوحي الوحل، إلى أن أخذته قدماه إلى حديقة الجزيرة. جلس شاردًا يتذكر عندما كان يجلس في نفس المكان ونفس المقعد وهي بجواره. "هل هذا المقعد يتألم من فراقنا مثلما أتألم أنا الآن؟... هل يتذكر كلامنا وهمساتنا وضحكاتنا؟" ... أخذ يتأمل في شرود كل فتاة تجلس مع حبيبًا لها مثلما كانت تفعل مرام معه. "ترى.. كم فتاة منهن ستتزوج رجلاً آخر بعدما تلتهي قصة حبها بمأساة!!"... ظل هكذا شارداً بين تأمله وتأمله إلى أن ورده اتصال، فوجدها بسمة، رد عليها في ضيق وتأفف:

- نعم..!!

- انت فين يا طارق لحد دلوقت؟ وكنت قافل موبايلك ليه طول الوقت دة؟

- أصلي كنت قافله من ساعة الاجتماع الصبح ونسيت أرجعه تاني، في حاجة؟ انتي بتتصلي ليه يا بسمة؟!

- لا مافيش بس كنت عاوزة أعرف هترجع امتى؟

- شوية وجاي. باي

ألقى نظرة أخيرة إلى النيل قبل أن يسحب نفسًا عميقًا زفره ببطء ثم مشى قاصدًا بيته. ورده اتصال آخر:

- أيوة يا هدير؟

- تعالى يا طارق دلوقتي حاااالًا..

- في إية يا هدير؟ ماما أو بابا أو شريف حصلهم حاجة؟

- لا يا طارق تعاااااااااالى بسرعة بس

- في إية يا بنتي خطيبك علاء جراله حاجة؟!

- بووووووه تعالى بقى يا طارق محدش جراله حاجة أنا بس عاوزاك في مشكلة مع بابا.

مكتبة عابث الإلكترونية

- ربع ساعة وجايلك.

في الطريق، اكتشف أن آخر مرة رأى فيها والدته ووالده كانت من شهرين تقريبًا. إلى هذا الحد يمكن للدنيا أن تلهي الإنسان عن فعل أشياء كانت مُسَلَّمات في حياته من قبل؟!!

قبل أن يمد يده نحو الجرس، فتحت له هدير، التي كانت مترقبة مجيئه من الشرفة، ألقت نفسها في حضنه وانهمرت في البكاء. فهدأ روعها و....

- بابا عاوز يفسخ خطوبتي من علاء...

- ليه هو عمل حاجة؟!!

- ماعرفش بقى اسأله، أنا هموت لو عشت بعيد عن علاء.

- انا عارف ومتأكد إنه بيحبك، إهدي وان شاء الله كل حاجة هتتصلح بابا فين؟

- جوة قاعد بيتفرج ع التليفزيون، وماما نايمة...

وقف لثانيتين أمام غرفة المعيشة حيث يجلس والده، ثم استدار قاصدًا الغرفة التى تنام فيها والدته.. نظر إليها مبتسمًا وهي نائمة، شعر كأنه رحَّالة قضى عمره كله في السفر وأخيرًا وطأت قدمه تراب الوطن.. تقدمت في السن، وأصبحت وهنة مريضة، تنام بصعوبة. لذا

لم يرد أن يوقظها، واكتفى بتقبيل يدها برفق، ووضع في راحتها كارته الشخصي بعد أخر تعديل في مسماه الوظيفي كرئيس قسم الشئون الإدارية. أطبق يدها على الكارت برفق ونظر لها نظرة أخرى، وارتسمت على وجهه ابتسامة صاحبها سقوط دمعته. مسحها ودلف إلى غرفة المعيشة، حيث يجلس أبيه أمام التلفاز، صافحه وقَبَّل يده:

- ازيك يا بابا..

- ازيك إنت يا حبيبي عامل اية؟

- الحمد لله يا بابا... إية موضوع هدير ده؟

- هي قالتلك؟

نظر والده لهدير بغضب جعلها تهرب لخارج الغرفة، متحججة بعمل قهوة لطارق، الذي سأل والده:

- في إية يا بابا إية اللي حصل مع علاء؟

- البيه هيجيب شقة قانون جديد، ولسة مانعرفش هيجيب العفش إمتى؟ أنا غلطان م الاول إني وافقت عليه من غير ما أحدد مواعيد كل حاجة. على العموم الموضوع كده خلاص أنا قفلته، ومش هتراجع عن قراري أبدًا.

رنَّ هاتف طارق، فوجد أن المتصل هو علاء:

مكتبة عابث الإلكترونية

- أيوة يا حسين.

- أنا مش حسين يا طارق أنا علاء...

- منا عارف يا حسين، سيبني دلوقتي وإن شاء الله كل حاجة هظبطهالك ماتقلقش.

- مممم ربنا يخليك لينا يا طارق، انت ماتتصورش هدير بالنسبة ليا...

- إقفل بقى الله يهديك سيبني أنا مشغول دلوقتي وبتكلم مع بابا في موضوع مهم...

- ماشى يا حبيبي اتفضل.

أغلق الخط، وأردف لوالده قائلًا

- بابا، انت طبعًا عشت معايا أيام ما كنا بنروح لزفت أخو مرام، وشفت هو كان بيعمل فينا إية! وكنت شايف حالتي. علاء بيحب أختي وأنا كشاب مربت بنفس تجربتهم، حاسس بيه، اوعى يا بابا تخليه يحس بنفس احساسي، أنا متأكد إنه بيحبها، وبيعمل كل حاجة عشان ينجز نفسه، حتى لو قعد خمسين سنة، في الآخر هيتجوزها عشان بيحبها.

- وإنا ايش ضمني إنه في الآخر مايعملش زي ما انت عملت مع مرام؟

فكر في الأرض لثواني..

ماش يا بابا انت عندك حق. وأديني أهو دلوقت .. اللي بينضرب كل يوم بحداجر مايحسش باللي أنا حاسس بيه، أنا تقريبا شبه ميت من غير ندمي عليها وعلى اللي عملته معاها.

ماش يا بني. أنا هجوزها لابن الحاج موسى اللي كان معايا في الشغل، عنده مصنع وورشة، ومعاه عربية وشقة جميلة على النـ...

لا يا بابا، هدير وعلاء بيحبوا بعض، وحتى لو اتجوزوا في شقة قانون جديد، إية المانع وإية المشكلة؟ هدير اختارت صح، علاء كمان شاب محترم وأنا أضمنه برقبتي

فكر والده في كلامه لثوانٍ، قال له:

أنا خايف البنت تلقى نفسها عندها ٣٠ سنة ولسة مااتجوزتش.

ماتقلقش يا بابا. سيبهم وكفاية إنهم قدامنا وتحت عينينا، وبرضه أنا هكلم علاء أخليه يشد حيله شوية.

ماشي يا طارق، أنا فوضتك تنجز الموضوع ده على مسئوليتك.

إن شاء الله يا بابا، يللا هاقوم.. ابقى سلملي على شريف وماما. سلام

طب ما تقعد تاكل يا ابني...

مكتبة عابث الإلكترونية

- لا ياعم أنا هروح عشان بسمة بتتصل كل شوية. وأنا مش نافس قرف.

- هههه ماشي يا حبيبي، ابقى أدخل أوضة السفرة خد اللعبة اللي كنت أشتريتها ليوسف. وأنا كمان يومين هجيلكو أشوفه.

- تشرف يا بابا... سلام يا حاج

دلف إلى حجرة السفرة ليأخذ اللعبة، فوجد هدير جالسة على كرسي في أحد أركان الغرفة وسط الضوء الخافت. مسح دموعها في هدوء وهو يبتسم لها، إشارة إلى حل مشكلتها مع والدها. لكن ابتسامته كانت تحمل بين طياتها آلام وحزن العالم كله. شعرت هدير بالقلق حيال رؤيتها له هكذا، فسألته متلهفة كأم رأت ابنها مجروحًا:

- يا حبيبي يا أخويا، يا قهرة قلبي.... مالك يا طارق؟

- مافيش حاجة يا حبيبتي، إبقي اتصلي بعلاء قوليله يحاول ينجز نفسه شوية لأن بابا...

قالها مبتسما محاولاً إخفاء ما به، فقاطعته هدير:

- حاضر يا حبيبي حاضر، بس قل لي مالك؟ أنا بتقهر لما بشوفك زعلان.

- مافيش حاجة يا حبيبتي، أنا همشي...

أخذ لعبة يوسف من فوق السفرة، فوقعت عيناه على دبدوب كانت مرام قد أهدته إياه في عيد الحب، نظر له وابتسم، فارتخت عضلات وجهه وشعر بارتياح:

- فاكر الدبدوب ده يا طارق، لما رجعت بيه يوم عيد الحب وأنا وماما فعدنا نرخم عليك عشان ناخده؟

- يومها كان أول يوم تنزل فيه أغنية (حبيبى يا) بتاعت محمد فؤاد، رحت الكلية قبل ما مرام تيجى بساعتين، كان بقالي أسبوع ماشوفتهاش. ولما قابلتها..... اسكتي يا مرام خليني ساكت والنبي.

قالها متهدأ فابتسمت وقالت له بنبرة حميمية: على فكرة أنا هدير..

- آه سوري يا هدير يا حبيبتي، أنا همشي بقى

ولمْ وجهه ناحية الحائط حتى لا ترى دمعته التي سقطت للتو، لكنها رأت، فانفطر قلبها وقالت بأسى

- يانهار اسووووود أنا عمري ما شفتك كده يا طارق. أقعد والنبي...

استسلم لها وجلس، نكس رأسه لنصف دقيقة، ذرفت عيناه الدموع فجأة ولم يعد يستطيع أن يقاوم إلحاحها، رفع رأسه قائلًا:

- على آخر الزمن أروح لدكتور نفساني...!!

مكتبة عابث الإلكترونية

بدون سابق إنذار، انهمر طارق في البكاء أكثر بأنين خافت، وكاد ينفجر قلبه.. انتفضت من مكانها وحضنته كأم حنون، نظرت له وبكت:

- معلش يا خويا، إن شاء الله هتنساها

- ومين قالك إني هنساها أو عاوز أنساها؟ انتي فاكرة إن دكتور هينسيهاني؟ دى مجرد محاولة ومش عارف أنا رحت له ليه أساسا بس الغريق بيتعلق بقشة.

صمت، نهض بسرعة ملتقطًا لعبة يوسف من على السفرة، قبّل رأسها ومضى.

*****

فيلا من طابقين في بيفرلي هيلز، تحيطها حديقة غنية بالزهور وأشجار الزينة، في أقصى اليمين جراج ترقد به في سلام سيارة مرسيدس سوداء، زجاجها الخلفي عليه شعار عضوية النادي الأهلي ونقابة المهندسين، بجوارها سيارة أخرى ماركة BMW آخر موديل سوداء اللون أيضًا... يتوسط الحديقة طريق يؤدي إلى بوابة عظيمة خلفها بهو دائري واسع أرضيته من البورسلان، صالون إيطالي راقٍ، في أحد الأركان تمثال روماني لسيدة عارية تحمل شمعدان، أقصى اليمين يوجد بار به أغلى أنواع الخمور وأمامه أربعة كراسي بلا ظهر، أقصى اليسار سلم درجاته مكسوة بسجادة حمراء يؤدي إلى أعلى حيث إحدى الغرف التي يتوسطها مِدفأة على الطراز الأوروبي القديم، تعلوها

وثلاثة معلقتان على الحائط لصيد البط مع الأصدقاء في أيام العطلات، بجانبها خزانة صغيرة لحفظ الأموال والمصوغات، باقي غرف الفيلا هكذا تقريبًا.

في غرفة النوم الفسيحة، يجلس أمام التلفاز الـ LED ٦٠ بوصة... المهندس محمد الذي يعمل استشاري هندسي لكبرى شركات العقارات السياحية في مصر، بمرتب ٦٠ ألف جنيه شهريًا، عمولات ومكافآت تقدر بـ ٢٥ ألف جنيه، أرباح سنوية ٤٠٠ ألف جنيه، يجلس مع ابنته "جودي" ذات الثلاث سنوات، يلعب معها ويعلمها كيف تلعب على التابلت الجديد الذي اشتراه لها.

بينما تجلس زوجته فيروز أمام التسريحة، مرتدية فستانًا فرنسيًا، يظهر كتفيها الناعمين، ظهرها بالكامل، ثلثي نهديها المغرورين، وقصير فوق الركبة بـ٢٣ سم كاشفًا عن فخذين متقنين.

فاتنة تمتلك جمال ساحر، أنوثة متطرفة، شقراء غراء فرعاء مصقولة عوارضها، ملساء ممشوقة القوام، مكتنزة الشفاه، حسناء ذات شعر أصفر ذهبي ينسدل بانسيابية إلى آخر ظهرها الأبيض المخضب باللون الوردي، حاجباها مرسومان بدقة، أظافر طويلة.

لا تحتاج فيروز إلى مساحيق كي تُظهر جمالها. برغم ذلك كانت ترتاد مراكز التجميل كثيرًا لإجراء كورسات تجميلية بداية من فرد الشعر

مكتبة عابث الإلكترونية

بالكيرياتين.. مرورًا بعملية نفخ شفاه.. انتهاءً بإجراء عملية تكبير الثدي..... أو تصغيره!.

حبها لمحمد أصبح فاترًا، ليس كأول زواجهما، بعد أن ظلت أكثر من خمس سنوات تلقاه من أسبوع إلى عشرة أيام في السنة، وعدا ذلك لا علاقة بينهما سوى حديثهما المقتضب على النت، أو الذهاب للبنك لصرف المبلغ الذي يحوله لها شهريًا.

نظر لها محمد بعد أن هاجم عطرها أنفه، نادى على المربية لتأخذ الابنة إلى الحديقة قبل أن يدلف نحوها متأملاً ثناياها ومنابت صدرها في شبق عارم، واضعًا يده على كتفها يدلكه برقة.. تظاهرت بالضعف وبقشعريرة كاذبة باردة، وقد أدركت أنه يريدها، أخبرته أنها مرهقة من تدريب التنس اليوم، وستكون مستعدة ربما غدًا أو بعد غدٍ، فرد عليها مزمجرًا:

- وماله... بكرة أو بعده، إنشالله بعد شهر.. أو اتنين...

ابتسمت له ابتسامة صفراء باردة، وذهبت لابنتها في الحديقة، تاركة محمد يتذكر آخر مرة نام معها حينما انتهى قبلها، وقبل أن تندمج معه من الأساس، وبدت منفعلة.. هذا ما رآه في وجهها...

*****

دخل طارق منزله ومعه لعبة يوسف... والدبدوب. وجد بسمة جالسة أمام اللاب توب، و"كالعادة" ١٢٣٦ صفحة مفتوحة في متصفحها ما بين فيس بوك، منتديات نسائية، مواقع قنوات الأكل، صفحات أوريفلام وإيفون، تحتسي قهوة يأست وبردت منذ ساعة..!

- أهل ده يا طارق! كنت فين؟.... سألته بقلق

- كان في مشكلة بين بابا وهدير فرحت أحلها، ده اللي أخرني..!!

وقع نظرها على يده، سألته كمحقق فيدرالي يحتجز جاسوسا مقيداً في غرفة زجاجية ضيقة بها لمبة واحدة:

- إية ده؟!!

- دي لعبة بابا كان شاريها ليوسف من...

- أنا مش قصدى على اللعبة، أنا بتكلم على الزفت اللي في ايدك التانية...

- زفت! مش عيب كده؟

- سعادة البية الدبدوب اللي في إيدك ده بتاع مين؟

- ده هدير جابتهولي هدية

مكتبة عابث الإلكترونية

- الدبدوب ده أنا كنت بشوفه عندكم أيام ما كنا مخطوبين على فكرة... قالتها بعيون متفحصة، فأجابها مازحًا:

- لا ده ابنه اللي كنتي بتشوفيه، انتي ماتعرفيش إنه اتجوز وخلف؟ أهو ده بقى ابنه.. شوفي كبر وبقى عامل إزاي؟

- بجد والله؟!! مممم ماشي، حطه في الانتريه، أنا هروح أعملك العشا...

شكر ربه من كل جوانحه أنها لم تكترث بالموضوع كثيرًا ومررته مرور الكرام، ذهب إلى الانتريه ليضعه، سمع بسمة من المطبخ تقول له بصوتٍ عال ليسمعها:

- حطه في مكان واضح عشان تعرف تشوفه، أو جمب الدبدوب الأحمر، اللي مرام جابتهولك برضه في عيد ميلادك قبل كده.

نفذ ما قالته بالحرف!! ودخل غرفة النوم، استلقى على السرير وأغمض عينه، دخلت عليه بسمة فسألته باستنكار:

- هو أنا بحضر العشا لمين؟

- لا معلش يا بسمة أنا مش هقدر أكل...

نظرت للأرض في ضيق لثوان، ثم وضعت الطعام مرة أخرى في الثلاجة، وفي محاولة منها لإزالة العبوس من على وجهها وإخفاء الضيق، دخلت

يأخذ حمامًا وارتدت "هوت شورت" و "بادي".. كان نائمًا على ظهره، أعانه لتداعبه وتقبله قبل أن يزيحها برفق:

- معلش يا بسمة أنا تعبان شوية...

قالها ونام على جنبه... لحظات واستدار لها مرة أخرى، فوجدها مكفهرة الوجه، وضع يده على رقبتها:

- معلش يا بسمة أنا فعلًا مرهق لإن كان عندي اجتمـ.

- على فكرة ماطلبتش مبررات، ومازعلتش عشان كده، انت عارف أنا زعلانة ليه.. نام

نظر لها لوهلة، فشعر بالإحراج، ثم أولاها ظهره كما كان، ونام على جنبه الأيمن قبل أن توليه ظهرها وتنام على جنبها الأيسر...

*****

دخل معتز منزله، سكيرًا كالعادة، تفوح من فمه رائحة الخمر. لم يتوقف عقله لحظة عن التفكير في كلام طارق، أعاده في ذاكرته مئات المرات.. دخل لغرفته، فوجد مرام نائمة - أو هكذا بدا له - جلس على طرف منضدة أمامها، ظل ينظر لها بعين شاخصة، نهض كي يضربها بقدمه على وجهها ويستجوبها، لكنه تراجع وجلس في الشرفة، دخن سيجارتين، يفكر في خطة ينتقم بها من طارق ومرام. أضاءت في عقله

مكتبة عابث الإلكترونية

فكرة، ابتسم بعدها ابتسامة ماكرة، ثم خلع بدلته ونام بجوارها معطيًا ظهره لها.

بالكاد قاومت التقيؤ حينما هاجمتها رائحة الخمر المنبعثه منه عندما ألقى بجثته جوارها، أغمضت عينيها داعية ربها فى قرارة نفسها أن يخلصها منه..

*****

يانهار اسووووووود. الساعة ١٠ الصبح يا مرام أنا اتأخرت قوي ...

ربما لم يزال تحت تأثير الحلم الذي كان يحلم به، ولم يكن قد استفاق بشكلٍ كامل. ثانيتين أخرتين، ثم جحظت عينه، مال نحو بسمة اللي لازالت تعطيه ظهره، فوجدها مستيقظة، وأذنى جفونها آثار دموع... وقد اخترق الاسم أذنيها!

- المنبه رن في ميعاده يا حبيب قلب مرام، وانت زعقتلي وأصريت تكمل نومك وقولتلي إنك هتبعت ميل للشركة تقولهم إنك هتاخد أجازة...

- أنا آسف يا بسمة، انتي عارفة أنا بصحا من النوم مش ببقى واخد بالي من اللي بقوله...

- يا طارق انسى، ولا يهمك.... قالتها بابتسامة مصطنعة

سرح طارق قليلًا مؤنبًا نفسه..

- أنا آسف يا حبيبتي أرجوكي تتأكدي إنك مراتي وحبيبتي وأم ابني.. بقولك إيه تيجي نخرج؟ طالما كده كده أنا أجازة

- مممممم مش قادرة أقوم...

- هتقومي يعني هتقومي يللا حضري نفسك وصحي يوسف..

- قولت مش قادرة يا طارق!!

قالتها بعصبية ثم زفرت قبل أن تردف:

- انت ليه متخيل إني ممكن بكل بساطة أعدي الموضوع دة؟ أنا من آثار التظاهر بالقوة قربت أنهار؟ عاوز ترشق فيا سكينة ع الصبح وبمنتهى البساطة "تعاااااااالي نخرج"!!!! عيلة صغيرة أنا وبتضحك عليها. مش كدة؟!!

- إنتي قلبك كبير وعارف إنك هتسامحيني.

- أسامحك لو الموضوع اتكرر مرة واتنين وعشرة وبعد كدة ينتهي، لكن إنت مش بتمل من تكراره، مش دى الغريبة... الغريبة إني أنا كمان مش بزهق من إني أعدي! بس عشان بحبك وعشان مش عاوزة أهد البيت دة بعد ما تعبت فيه. وعشان يوسف يعيش بين أب وأم.

- أعترفلك يا بسمة إني غلطان، بس والله العظيم بحبك، عشان خاطري إنسي وقومي نخرج يللا لأنك وحشتيني أوي إنتي ويوسف..

مكتبة عابث الإلكترونية

- حاضر يا طارق، أعمل إيه في قلبي اللى بيحبك!!!

- وأنا قلبي مش بيحبك بس، دة بيعشقك، يللا قومي إلبسي.

- مممممم طب هنروح فين؟

- مش عارف لسة هفكر بس هنفطر برة الأول، ونشوف أي مكان مفتوح نقعد فيه، وممكن نتصل بعلاء وهدير كمان...

- أوكى، قوم إلبس واتصل بيهم عقبال ما أصحي يوسف وأغيرله...

نزلا، واستقلا تاكسي لنادي الصيد بالدقي، جلس طارق بجوار السائق وبسمة في الخلف مع يوسف. عند إشارة شارع البطل أحمد عبد العزيز، في الاتجاه المؤدي إلى نادي الصيد وقف التاكسي، فوقعت عين طارق على كافيه كانا يجلسان فيه يومًا ما. شرد بعيداً وتذكر عندما كان فيه مع مرام، وكيف كان يسخر منها حينما طلبت آيس كريم كراميل، فتغضب منه وتغرس إصبعها فيه وتضعه على أنفه، فيفعل معها نفس الشيء بعد تقييد يديها، ثم يمضيان في حديثهما حول مستقبلهما وحبهما، ممسكًا يدها سارحًا في عينيها، سارحة في عينيه..

وبينما كان سارحًا في ذكرياته، على بُعد أمتار في الجانب الآخر من نفس الشارع، في الاتجاه المعاكس المؤدي إلى جامعة الدول العربية، تفتح نفس الإشارة، فتبدأ جميع السيارات في التحرك، عدا سيارة هوندا سيفيك حمراء، مغلق زجاجها، ظلت واقفة لا تتحرك رغم أبواق

السيارات المتزاحمة خلفها، لأن مرام التي تقودها شردت تنظر أيضًا إلى نفس الكافيه، تتذكر بالضبط ما يتذكره طارق في نفس اللحظة، في الجانب الآخر على بعد أمتارٍ منها. سرعان ما أفاقها من شرودها وفكيرها عسكري المرور الذي يطرق زجاج سيارتها بقوة، أنزلت الزجاج ونظرت له مندهشة أمام لهجته الحادة...

- حضرتك يا فندم مشغلة التكييف في عربيتك ومش حاسة بالكلاكسات اللي عماله تزمرلك، ولا بالإشارة اللي فتحت وقربت تقفل تاني!!

نظرت له بعيونٍ تائهة بعدما أفاقت نسبيًا من شرودها واعتذرت له، ثم مضت في اتجاهها إلى منزلها بشارع جامعة الدول العربية، عائدة من منزل والدتها لتطمئن عليها.

بينما واصل التاكسي طريقه إلى نادي الصيد...

*****

قبل ذلك بربع ساعة...

نادي الصيد، عند الكافيتيريا المطلة على حمام السباحة، جلست هدير مع خطيبها علاء ينتظران طارق وبسمة، ذهبا قبل ميعادهما حتى يتحدثا قليلًا قبل مجيئهما..

- عارفة يا هدير أنا مستغرب قوي من اخوكي!

مكتبة عابث الإلكترونية

- ليه يعنى؟

- أصل أنا ملاحظ يا حبيبتي إنه على طول مشغول قوي، مش بيجيلكو كتير، ولما اتصلت بيه ساعة ما كان قاعد مع باباكي ونبرة صوته مخنوقة، في حاجة في حياته تعباه أكيد

- لا يا علاء...

- لا أنا حاسس إن فيه، وباين في عنيكي انك بتكدبي، ومع ذلك حاسس إنه مهتم قوي بعلاقتنا وعاوزها تنجح، أنا مبسوط بكده طبعًا لأن ممكن واحد غيره يقول وأنا مالي ويكبر دماغه، زي اخوكي شريف مثلًا..

- طارق يا حبيبي كان بيمر بنفس ظروفنا تقريبًا، عشان كده هو مؤمن جدًا بحبنا، وبيراهن عليه.

- هو كان بيحب حد قبل بسمة مراته؟

- مممم أيوة يا سيدي، إقفل السيرة دي بقى وحسك عينك في يوم تفتحها، وبالذات معاه..

- طب اتجوز بسمة ليه طالما مش بيحبها وبيحب واحدة تانية؟

- اتجوزها على أمل إنه ينسى مرام، بعد ما سابها مباشرة قابل بسمة بالصدفة، وصارحته إنها بتحبه من فترة كبيرة، وهو كان حاسس بكدة، شاف إنها تقدر تسعده، وبصراحة بسمة نادرًا أما تلاقي حد في أدبها

وجمالها وأخلاقها. كله تم بسرعة واتجوزوا... وأهلها برغم إنهم مستواهم المادي عالي وكان ممكن ببساطة يرفضوا، لكن مكنش همهم أي حاجة غير سعادة بنتهم.

- والله كويس. بس هل هو بيحبها فعلًا؟

- ساعات بحس إنه بيحبها قوي، وساعات بحس إنه بيحبها عشان في بالهم يوسف، على العموم خلينا في نفسنا، طارق لما كان عندنا قاللي أقولك تشد حيلك شوية..

- إن شاء الله، ربنا يسهل وهدور على شغل تاني، عمري ما هخذله، ولا هخذلك يا حبيبة قلبي، أنا عشان خاطرك ممكن أعمل أي حاجة يا قدير، هتحدى كل الكون عشان أنا وإنتي نبقى في النهاية مع بعض.

قالها علاء قبل أن يلمح طارق وبسمة ويوسف من بعيد...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

د. معتز قطب كان من هؤلاء الذين يبحثون عن الربح السريع، بل يلهثون وراءه. يملك ٧٥ % أسهم في مستشفى المعتز التخصصي بالدقي التي كانت مسرحًا تجري وراء ستاره تجارة الأعضاء البشرية: حيث يجرى فيها ما يقرب من ١٥ عملية شهريًا. تعمل تحت إدارته مجموعة مدربة جيدًا، مهمتها استقطاب فئة معينة لديها الاستعداد أن تفعل ذلك مقابل مبالغ زهيدة، والرابح الأكبر هو معتز ومافيا تجارة الأعضاء البشرية والوسطاء الذين يبيعون هذا العضو بمبالغ طائلة بعد ذلك للأثرياء سواء داخل مصر أو خارجها، لكن أغلب صفقاتهم كانت خارج مصر عن طريق إرسال الأعضاء البشرية بطرق غير مشروعة.

ازدهرت هذه التجارة في آخر عشر سنوات تقريبًا، فاستفاد منها د. معتز وبعض من الأطباء معدومي الضمير، الذين أقسموا يومًا قسم أبيقراط، لكنه في نظرهم ليس له قيمة أمام شهوة الربح.

اتفق مؤخرًا على صفقة ضخمة مع أحد أكبر وسطاء هذه التجارة في الشرق الأوسط، أعضاؤها مصريون وغير مصريين، يريدون توريد قائمة كبيرة من الأعضاء إلى مستشفى خاص في أوروبا مقابل ملايين الدولارات. يسعى معتز لاكتمال هذه الصفقة، فاتفق معهم على مهلة

أسبوعين لتجهيز طلباتهم، بعد أن يتشاور مع فريقه في المستشفى عن الآلية التي سيستخدمونها.

*****

في الصباح الباكر، جلس م. محمد في حديقة الفيللا، بينما يحتسي قهوته، فوجئ بفيروز في كامل أناقتها تولج مفاتيحها في سيارتها. سألها باندهاش:

- انتي راحة فين كده؟

- هروح لمرام شوية بقالي كتير ماروحتلهاش ولا شفتها، وبعد كده همشي على الكوافير معمل شوية حاجات..

- كوافير؟!! على فكرة انتي جميلة من غير كوافير، والنفخ والشد والحاجات دي كلها بتضرك مش بتفيدك، ويارتك..... ده أنا آخر مرة نمت معاكي كان من شهر ونص!! يافرحتي...

- محمد.. انت عاوز تتخانق ع الصبح؟.. قالتها بامتعاض ناظرة لأعلى.

- لالالا ولا اتخانق ولا بتاع، أنا كنت عاوزك في موضوع كده. بقالي فترة بفكر فيه...

- موضوع إية؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- إحنا مش هنخلف تاني وللا إية؟ انتي مهتمة بس بخروجاتك ونواديكي وكوافيراتك وبصدر يتنفخ وبجسم يتصنفر.... أنا عاوز ولد يورث ثروتي والفلوس اللي قضيت عمري بجمع فيها.

- عاوز ولد؟!! يا حبيبي!! إية التخلف دة؟ انت ولا كإنك مهندس ولا متعلم ولا مثقف.

- ماشي يا ست المثقفة أنا عاوزك تخلفي تاني، جودي كبرت أهبه، ومش عاوز يكون في فرق كبير بينها وبين اللي هتخلفيه...

- سيبني أشوف الموضوع ده.... باي

نظر لها شذرًا..... باي ياختي وابقي سلميلي على مرام.

سمعته ولم ترد عليه، ركبت سيارتها الفارهة، اتصلت بمرام لتتأكد أنها في المنزل، وتخبرها بمجيئها بعد نصف ساعة.

دخلت فيروز شقة مرام، فوجدت ابنتها ندى، فحملتها وحضنتها بقوة قبل أن تلمح مرام مقبلة عليها بخطوات متهدلة، بدت مهمومة مسلوبة الإرادة، ذابلة الوجه، شاحبة الملامح، زفرت فيروز قائلة:

- هو أنا يا بنتي عمري ما هشوفك في يوم مبسوطة؟! أنا قربت أصدق كلام أخوكي عنك إنك فعلًا نكدية، يا مرام يا حبيبتي حرام عليكي كده انتي عاوزة تموتي نفسك؟

- باربت أموت وارتاح، بس للأسف هكون قلقانة على ندى، على فكرة هو قوي البرفيوم اللي انتي حطاه ده...

- أها أنا بعشقه، بحس إنه سيكسي.. بس يا بنتي ليه كل ده؟ ما انتي أهو عايشة عيشة ماشاء الله جميلة، وبنت زي العسل ومعتز أنا شايفة إنه كويس يعني.. هو في راحة أحسن من كده يا هبلة؟!!

- راحة!!... معتز كويس! انتي موهومة! ده إنسان ما يتعاشرش أساسًا...

- يا حبيبتي حاولي تصلحي أمورك وحياتك معاه عشان الحياة تمشي

- أنا مش طايقاه وعمري ما هطيقه، وماتجبيش سيرته خالص ولا تقولي اسمه...

- مسيرك تكبري وعقلك ينضج وتعرفي إننا كنا خايفين عليكي وبهمنا مصلحتك ... تكونيش لسة بتحبي الولد اللي جه اتقدملك زمان ده؟!! هو كان اسمه إيه؟

شردت... دق قلبها وابتسمت قبل أن يختفي الحزن الذي سكن ملامحها، وحلت محله إشراقة نور ونغزتان في وجنتها كوردتين يانعتين، أخذت نفسًا عميقًا وزفرته، أغلقت عينيها لترى صورة أول شخص احتل قلبها يبتسم لها وسط ظلمة جفونها..

- اسمه طارق....

مكتبة عابث الإلكترونية

قطعت فيروز تنهيدتها: - انتي لسة بتحبيه يا مرام؟

- هتجنن وأعرف هو عامل ايه!! هتجنن... أجابتها وهي تنظر للعدم

- انتي اتجننتي فعلا يا حبيبتي، انتي فعلًا فقرية، هو طارق ده كان هيعيشك في كل العز ده؟ أنا متأكدة إنه دلوقتي شغال حتة موظف أمن أو مندوب مبيعات مرتبه مايكملش ألف جنيه، وكان هيعيشك في شقة ٥٠ متر.. انتي في عيشة ماكنتيش تحلمي تعيشيها يا مرام، إفتكري كويس لما كان اخوكي الحلو بيبعتلك ملاليم عشان تعيشي انتي وأمك، دلوقتي معتز بيبعت لها شهريًا ٣ تلاف جنيه لوحدها...

- لو كان حتى هيقبض ١٠٠ جنيه كنا هنعيش سعداً. ربنا يسامح اللى كان السبب...

قالتها وهي تنظر لفيروز بعينين ثابتتين، فردت عليها وهي تلف خصلة من شعرها وراء أذنها بحركة لم تنجح في إخفاء ارتباكها:

- هو.. هو ده أكيد سبب المشاكل في حياتك مع معتز... إنك لسة بتفكري فيه!!

- مقدرش مفكرش فيه، أنا ساعات ببقى ماشية بالعربية وأمشي أبص في وشوش الناس عليه يمكن ألاقيه، نفسي أدور عليه وأشوفه، وحشني قوي يا فيروز...

- لا انتي فعلا مش طبيعية!! (تنظر في ساعتها وتنهض) المهم يا فقرية أنا هروح الكوافير بقى عاوزة حاجة يا حبيبتي؟

- على طول كده! لسة ماقعدناش مع بعض.

- لا عشان واخدة من الكوافير ميعاد ماينفعش أتأخر...

- طب آآآآآ..... خلي بالك من نفسك.

ألقتها مرام في وجه فيروز، فارتبكت الأخيرة أكثر وبالكاد أزدردت ريقها قبل أن تنصرف في عجالة، ركبت سيارتها القابعة في الجراج متجهة إلى فندق شيرد، وهناك وقفت أمام مكتب الاستقبال...

- مساء الخير، لو سمحت.. في غرفة محجوزة ليا باسم فيروز حسن الكومي.

راجع الموظف قائمة الحجوزات بعد إطلاعه على هويتها:

- أيوة يا فندم، غرفة ١١٥، اتفضلي المفتاح..

أخذت مفتاح الغرفة قبل أن تدس يدها في حقيبتها لتخرج هاتفها وتجري مكالمة:

- أيوة يا حبيبي، أنا في غرفة ١١٥ وفي الميعاد بالظبط زي ما اتفقنا...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

في نهاية يوم عمل شاق، جلس طارق في الكافيتيريا الهادئة، قبل موعد المغادرة بنصف ساعة، استغل عدم وجود أحد من زملائه لينفرد بقهوته ونيكوتينه، والاستمتاع بعزلته في التفكير بمرام، أشياء كثيرة متضاربة تدور داخل رأسه، تارة يبتسم، وتارة أخرى ينظر متجهًا بزاوية إلى لا شيء، فجأة اقتطع تفكيره من جذوره، جراء انفجار قنبلة محلية الصنع خلفه:

- معايا ٣ سيجار كوبي، منهم واحد هدية مني ليك يا طاروق، مع القهوة هتنسى اسمك...

قالها حمدي بصوته الأجش الخشن، فانتفض طارق من مكانه:

- انت لو مُتعَمِد تخليني أقطع الخلف مش هتعمل كده!! إزيك يا أستاذ حمدي أخبارك إيه؟

- هههههههه الحمد لله يا حبيبي، أكيد كنت بتفكر في حبيبتك بتاعت زمان، يا عم ماتقلقش إن شاء الله هتنسى، لو مش بمزاجك هيبقى غصب عنك، شغلك محتاجلك يا طارق وبيتك وابنك....

- خليها على الله يا أستاذ حمدي، أديني بعمل كل اللي عليا، حتى الدكتور النفسي رحتله، أعمل إيه تاني يارب...

- ماتتكسفش إنك رحت لدكتور نفسي يا طارق، مين فينا ماعندوش أمراض نفسية وعقد كمان، ومحتاج إنه يعمل زيك؟ كلنا يا طارق

درشي نفسيين... اديني اسمه ورقمه وعنوانه، أنا كمان محتاج أروحله...

- انت بتقول كده عشان تحسسني انه شيء عادي؟ ماتخافش يا أستاذ حمدي أنا مش خجلان..

قالها مبتسمًا ابتسامة حزينة..

- لا بجد، اديني عنوانه واسمه، أنا فعلا محتاج أعرض نفسي على دكتور نفسي شاطر... مش هو شاطر برضه؟

- أنا لسة ماجربتوش، كل اللي قعدته معاه جلسة واحدة بس، لكن حسيت معاه إني مش مُحرَج من حاجة، وطريقة تركيزه معايا وأسئلته اللي عاوز يعرف منها أدق التفاصيل، حسيت إنه دكتور شاطر...

بينما يخرج من جيبه قلمًا ويكتب له التفاصيل، رنَّ هاتفه :

- أيوة يا بسمة.... آه المفروض أمشي خلاص أهو.... حلويات وايه تاني؟..... وبامبرز..... وفينو..... وجبنة روووووومي..... وحجر بطارية عشان الريموت ..... طب بقولك إيه بالمنظر ده مش هفتكر حاجة والباص هيفوتني!!.. اكتبيلي كل اللي انتي عوزاه في ١٧ رسالة وأنا هتعامل!... ماشي باي...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

أطفأت بعصبية سيجارتها السابعة في الطفاية، ووقفت عند باب الشرفة التي تطل على النيل وبرج القاهرة والأوبرا... كادت فيروز أن تمل من الانتظار، حتى وردتها مكالمة فأجابت غاضبة:

- يعني ينفع كل ده استنى؟!!... أوكي مستنية أما نشوف الدقيقة بتاعتك...باي

بعد أقل من دقيقة طرق الباب، فتحت بانفعال...

- إية يا معتز!! انت قولتلي نتقابل الساعة ٢ الضهر وآدي دلوقتي الساعة ٤، انت عارف إني ماينفعش أتأخر... أووووف!!

- معلش يا فيرو والله كان غصب عني..

قالها وهو يحضنها واضعًا يده على مؤخرتها المغرورة، فأزاحتها بغضب شديد...

- فيرو إية بقى وزفت إية.. ده وقت دلع؟!! إفرض محمد اتصل بيا دلوقتي؟ هاقوله إية أنا؟

- إقفلي موبايلك زي كل مرة، وابقى قوليله لما تروحي إنك كنتي قافلاه عشان كنتي في الكوافير..

- يا سلاام هو اللي يروحوا الكوافير بيقفلوا موبايلاتهم؟!!

أجابها بعصبية وصوت عال:

- رفولك أبيبيبية قوليله أي حاجة مش ده موضوعنا. جودي أخبارها إية؟

- كويسة، مالك النهاردة؟

- قوليلي... انتي رحتي لمرام زي ما اتفقنا؟

- آه كنت عندها قبل ما أجيلك على طول

- إتكلمتوا في إيه؟

- قل لي انت الأول مالك عصبي كده ليه؟

جلس على شفا السرير، بدا كالذي يفكر في شيء ما تفكيرًا عميقًا، لا يدري من أين يبدأ حديثه....

- مش عارف أبدأ منين، بس فعلًا الدنيا دي صغيرة قوي، انتي عارفة مين كان عندي في العيادة؟

- مين؟

- طارق...

- طارق مين؟

- طارق... طارق الشيمي... طارق اللي كان ماشي مع مرام..

مكتبة عابث الإلكترونية

اتسعت حدقتاها: يانهار اسووووووود. إزا...

- مش دي المشكلة. المشكلة إن البيه جايلي عشان عنده مشكلة صعبة مأرقة عليه حياته، مش عارف ينسى الهانم، ميموفوبيا... نفسه ينساها ومش عارف!!... حكالي كل حاجة كانت بينهم، بالتفصيل التفصيل الممل.

- وبعدين عملت معاه إية؟

- أنا لسة ماعملتش، لكن أقسم بالله ما هخليه يتهنى في حياته، وأنا على فكرة متأكد إن الهانم لسة بتحبه.

- آه ماهو تقريبًا كده فعلا...

نظر لها بعينين تحملان أسئلة كثيرة..

- قصدك إيه؟

- الهانم قال إيه... ساعات بتفكر فيه!! هي كمان مش قادرة تنساه...

- عشان كده قرفانة طول الوقت طبعا.. عمومًا دلوقت أنا لا يهمني مرام ولا زفت.. ها!! عمري ما كنت أتصور إني أنا.... أناااا معتز قطب، واحد زي طارق ده يعلم عليا، وواحدة زي مرام تكون نايمة جمبي بليل وتفكر فيه، وتبعتله صاحبتها عشان تحكيله اتعذبت قد إيه في بعده! أنا هخلي الاتنين يندموا..

- هتعمل إية يا مجنون؟

- هخليه يعيش طول عمره عاجز، ومرام هرميها في الشارع للكلاب، وهاخد منها البنت...

- طب مهو كده محمد هيزعل منك..

- شششش مايزعل وللا يتحرق، مش هو اللي لبسني أخته؟!

- طب مهو انت اللي كنت هيجان عليها!! مش عارفة أقولك إية! بس هتخليه عاجز إزاي يعني؟

- الجماعة السماسرة بتوع الاعضاء البشرية

- مالهم، مش انت قولتلي إنك قربت تنجز معاهم الصفقة؟

- آه أنا خلاص بظبطها، بس المرادي الشرط الجزائي عالي قوي: ٢ مليون ولاد الحرامية، والمشكلة إن الأيام دي مافيش بهايم كتير نخلص معاهم، بدءوا يفهموا ويتملعنوا ويطلبوا أرقام وهمية! كل واحد فاكر إن كلية أمه المعفنة أو بنكرياسه مافيش منه اتنين.

- بس الصفقة تستاهل، ده أنا طلع عين اللي خلفوني لحد ما أقنعتهم إن مافيش غيرك اللي يقدر يخلّص في الصفقة دي، تعب أتفق لك مع الجماعة بتوع سينا يظبطولنا ١٠ أفارقة؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- سيبيني يومين لو ماعرفتش أخلص هقولك تكلميهم، المهم خلينا في زفت طارق أنا هستدرجه للمستشفى وأخليهم يخدروه ويفضوا أمه، ساعة زمن ويصحا يلاقي نفسه من غير كلية شمال وفص رئة؛ ١٨ ألف دولار أحسن من أمه، أهم حاجة أنا عايزه يدخل المستشفى ويخرج من غير ما يعرف إني ليا علاقة بحاجة.

- إزاي يعني؟

صمت معتز لثوان وأخذ يفكر بعمق.. التقط ورقة وقلم، وأخذ يتمتم بكلام غير واضح، وبرسم في الورقة خطوط وأسهم بطريقة عشوائية، كتلميذ أبله في ابتدائي يرسم عيد الطفولة!!

- بصي بقى احنا هنترصد تحركاته لمدة يومين، نعرف فهم مواعيده كلها، اليوم التالت يطلع من بيته ويتراقب، هتفق مع اتنين يخبطوه بالعربية وهوبا يشحنوه ع المستشفى، ساعة زمن يفوق يلاقي نفسه متفضي ومرمي في الشارع لكلاب السكك...

قاطعته بابتسامة هادئة ماكرة، أخذت منه الورقة والقلم، شطبت على كلمة "~~يخبطوه~~" وكتبت فوقها "يخطفوه"... قائلة بدهاء:

- وتخبطه ليه؟! انت محتاج تاخد منه حاجات كتير، لو خبطته ممكن يجيله نزيف يعطلنا، ساعتها مش هيبقى نافع ناخد منه لا كلية يمين ولا كلية شمال، واحتمال يموت ويجيبلنا مصيبة...

- وإية يعني أما يموت؟ ماهو هيدخل المستشفى باسم واحد ميت أساسًا، عشان في حالة زي دي لو مات يبقى كل شيء طبيعي ومافيش حاجة تتاخد علينا...

- لالالا غلط، إحنا ناخد منه اللي إحنا عاوزينه، ونرميه في أي صحرا يموت أو يتحرق...

أمسك الورقة ودسها في جيبه، ذهب بذهنه بعيدًا، سار نحو النافذة وأزاح طرف ستارتها، قائلًا في شرود بنبرة يملؤها غل وحقد:

- أوكي بس أنا مش عاوزه يموت، عشان اتشفى فيه، عاوز أشوفه وهو عاجز..

- براحتك بقى مش مشكلة، مش دي القضية، المهم أنا ليا كام في الموضوع ده؟

- ودة ليه بقى؟!! هو طارق بيه كان هيتجوز امك؟

- وأنا مالي بطارق ولا زفت؟ انا بتكلم على العملية كلها مع الجماعة السماسرة، أعتقد إني أنا اللي جبتهملك وعرفتهم عليك.

- زي كل مرة يا فيرو.. ٣ %...

- نعم؟!! إزاي يعني يا نور عين فيرو؟ أنا عاوزة ١٠ %.

مكتبة عابث الإلكترونية

- نعم ياختي؟ إحنا هنطمع وللا إية؟ ٣ % يعني حوالي ٢ مليون جنيه، ماتنسيش يابنت الطماعة إن ليا شركا تانيين ودكاترة هتخدر ودكاترا هتستأصل وتصاريح دفن وبلاوي زرقا، بلاش جشع!!

- انت مستخسر فيا يا معتز ١٠ %؟ ده أنا جبتلك صفقة مافيش حد في مصر يحلم بيها.

قالتها منفعلة بصوتٍ عال...

- يا نهار أسود، بلاش طمع يا فيروووز، في ناس تانية معانا إحنا مش لوحدنا، اللي ببيبع كليته دلوقتي أو أي عضو بقى يسأل ألف مرة وبقى عارف سعر السوق وبناء عليه بيطلب أرقام خيالية!!

اقتربت منه واضعة يدها على رقبته، ومشت بأناملها على شعره

- عمومًا مش وقت الكلام ده، أنا متأكدة إنك هتزود النسبة شوية لأني مش بهون عليك..

وضع يده على خصرها، جذبها نحوه محاولًا تقبيلها، فلتت منه في غنج متظاهرة بالتمنع...

- إوعى.. سيبني أنا مابحبكش...

دلفت إلى الحمام، بينما جلس ممدًا على السرير، سرح بعيدًا يفكر في الموضوع، إلى أن خرجت هي من الحمام، عارية...

*****

دخل طارق البيت، وجد بسمة تضع الأكل على السفرة، ويوسف يلعب في الصالة مبعثرًا لعبه في كل مكان، وما إن رآه حتى هرول نحوه، فحمله طارق وضمه إلى حضنه، فنسى في هذه اللحظة تعب اليوم ومشقة التفكير. قبَّلَه يوسف قائلًا:

- بابا.. بابا.. بابا... بابا...

أقبلت بسمة لتأخذ يوسف، الذي تشبث بوالده رافضًا أن يتركه، ومكررًا... بابا. بابا. بابا

اندهشت بسمة من ابنها قائله له في مزاح:

- إيه يا يوسف انت كده هتقلقني على بابا..

نظر لها طارق واضعًا يده الأخرى على رقبتها:

- بتقلقي عليا؟

- آه طبعًا، برغم إني زعلانة منك عشان جيت وحضنت يوسف ومحضنتنيش...

- تعالى يا حبيبة قلبي في حضني...

قالها بحميمية، وضمها مع يوسف إلى صدره بحنان بالغ، بكت بسمة، فسألها طارق:

مكتبة عابث الإلكترونية

- مالك يا بسمة بتعيطي ليه؟

- لو ماقلقتش عليك أقلق على مين يعني؟ ربنا يخليك لينا يا حبيبي.. ها، حد ضايقك النهارده في الشركة، أو حصل حاجة وإنت جاي في الطريق؟

- لا يا بسمة! عشان بيقول بابا يبقى في حاجة؟ عادى يعني وحشته..

- ماشى يا قلبي.. أدخل خد حمامك عقبال ما أخلص السلطة، هما بس اللي فاضلة.

- أوكى يا بسمة عمري...

*****

الساعة التاسعة مساءً...

دخلت فيروز الفيللا، سألت الخادمة عن محمد، فأخبرتها أنه لم يأت بعد، صعدت لأعلى لأخذ حمام، رنَّ هاتفها فوجدته محمد يطمئن عليها وعلى أخته، فأخبرته أن مرام بخير، وأنها عادت من الكوافير منذ أربع ساعات...

في نفس الوقت دخل معتز المنزل، وجد مرام جالسة أمام التلفاز في غرفة النوم، ممسكة بمنديل لتنظف المنضدة أمامها، لأن المربية كانت تطعم ابنتها عليها منذ قليل. نظر لها شزرًا..

- إية ده؟!! انتي مش هتنسي بقى إنكو شحاتين؟ ما تنادي لأي حد من الخدامين يمسح الترابيزة؟

نظرت له نفس النظرة مصطنعة ابتسامة صفراء:

- والله أنا اللي أعرفه إن "النضيف" مش بيستنى حد ييجي ينضفه، ولا بيده لحد عشان ينضفله.

- قصدك إية يابنت الشحاتين؟... سألها بانفعال قاطبًا جبينه

- أولًا أنا أهلي مش شحاتين، ثانيًا اتكلم معايا بأسلوب أرقى من كده، لأن شغل البيئة والشتيمة والسب ده شغل عربجية.. مع احترامي للعربجية طبعًا...

- البيئة دول يبقوا أهلك، وأبوكي الشحات

- برضه هرجع واقولك أنا بابا كان موظف محترم، محترم على الأقل عشان عرف يربيني، وزي ما انت عارف يا دكتووووور معتز... إن "من تربى.. ربى"، ويا ريت تحاول تستخدم أسلوب تاني تتكلم بيه معايا، لإن الأسلوب ده خلاص مابقاش يخوفني، مش انت عاوز تخوفني منك، أحب اقولك يا د. معتز أني مابقيتش أخاف منك

بصق عليها، ثم صفعها على وجهها عدة مرات، وقال لها بنبرة وعيد..

- أنا هخليكي تخافي مني تاني ياحيوانة.

مكتبة عابث الإلكترونية

لم تبد تأثرها وتألمها بصفعاته، رفعت رأسها في صمود، رمقته بعيون شاخصة وقلب يملؤه غل وكراهية. قالت له بثبات ولازالت جالسة على الكرسي:

- ده أخرك يا معتز. وخلاص أنا بقيت زي الحيوانات فعلًا مابقيلش أحس من كتر الضرب، وهكررهالك تاني أنا مابقيتش أخاف منك، وأحب أقولك حاجة تانية مهمة..... أنا مش بحترمك.

برغم أنه يعرف ذلك، لكن الكلمة نزلت عليه وآلمته، كانت أقوى من صفعاته لها. طأطأ رأسه إلى الأرض في هدوء جازًا على أسنانه لثوان، مدَّ يده بعنف ممسكًا بشعرها وجذبه بقوة، اقترب من وجهها، شعرت باضطراب في معدتها وكادت أن تتقيأ من رائحة الخمر التي تفوح منه، قال لها بصوتٍ خافت ونبرة تهديد ووعيد:

- مش بتحترميني؟ ماشي يا مرام، أنا هعرفك معنى الكلمة دي، أنا هخليكي تندمي على كل كلمة قولتيها، وشك الجميييل ده أنا هخليكي تعيشي بيه حياتك وهو مشوه، لازم تعرفي انتي قد إية رخيصة.... أو اسألي الحمار أخوكي وهو يقولك.

قالت له بتحد رافعة حاجبيها:

- يمكن أكون رخيصة في نظرك، لكن غالية في نظر ناس تانيين والناس دول مقدرين قيمتي.

- قصدك مين يا استاذة مرام؟

- وإنت عاوز تعرف ليه؟ بتغير؟ عندك نخوة؟ وللا ده فضول؟... على العموم أنا بتكلم على..... ماما (قالتها بتهكم) وللاااا.. انت دماغك راحت فين يا دكتور؟

- مممممم على العموم. هأ. على العموم الحد التاني ده قريب قوي هخليكي تشوفيه وهو عاجز، وهستمتع لما اشوفك وإنتي شايفاه كده، بعدها هخليكي زيه...

ارتبكت، وبدا على وجهها الانزعاج، سألته بفضول:

- قصدك مين؟

- هتعرفي في الوقت المناسب..... مستعجلة على إيه؟

قالها بنفس النبرة، وهو يرمق الحائط شزرًا. راوده شعور مُلح أن يهينها ويهدر كرامتها أكثر، ويبعثرها أمامها، ويجعلها تنظر لها في ذل وحسرة. اقترب من وجهها أكثر فأغمضت عينيها تقززاً قبل أن يلعق بلسانه وجهها بالكامل، بدا على وجهها الاشمئزاز، تمنت لو واتتها الشجاعة لصفعه على وجهه ورميه بأقذع الشتائم، خلع ملابسه وألقاها على الأرض، ثم مزق ملابسها وجردها تمامًا بطريقة همجية غير آدمية كمغتصب، حاولت مقاومته، لكنه صفعها بقوة، فاكتفت بنظرة احتقار وكره، بينما استمر في لعق وجهها ورقبتها بلسانه ككلبٍ ضال،

مكتبة عابث الإلكترونية

فَرَجَ قدمها قبل أن يولج عضوه وأخذ يضاجعها ويعبث بجسدها، لم تصدر أي ردة فعل منها، فقط ترمقه في صمود بعيون متجمدة بازدراء واحتقار، غير متفاعلة مع حيوانيته أو رغباته الشاذة المقززة وشهوته المريضة التي انتهى منها بعد دقيقتين، كحيوان تبول على قارعة الطريق، بعدها ألقى بنفسه عاريًا على السرير، نام على وجهه واستغرق في النوم في غضون دقائق، ولازالت بنفس نظرتها له. لم تزل عينها من عليه، حابسة دموعها لدقائق، حتى انفجرت فجأة رغمًا عنها، ظلت تبكي وتئن لأكثر من ساعة، حتى ذبلت أكثر وذبل وجهها الذي كان نضرًا ينبض بالحياة يومًا ما. ذبلت كوردة يانعة متفتحة، مترينة بقطرات الندى في الصباح، لتفاجأ بصبي أرعن جاهل جهول يقطفها بكل حماقة. أخذت حمامًا لتزيل من جسدها رائحته الكريهة، وبقايا منيه القذر، ثم جلست مرة أخرى على نفس الكرسي تواصل بكاءها، حتى استغرقت في النوم، وقلبها مثقل بهموم المجهول...

*****

عاد المهندس محمد إلى المنزل، وجد فيروز مرتدية فستانًا ملونًا كالعادة، وتجلس أمام التسريحة تتعطر، وقف وراءها واضعا يده على شعرها، اقترب منها ليشم عطرها الفرنسي:

- انتي عارفة إنك كل يوم جمالك يزيد أكتر من اليوم اللي قبله؟

- آه طبعا عارفة... قالتها وهي تنظر له عبر مرآة التسريحة بعيون خالية

- طب ما تيجي ناخد دش مع بعض، عاوز أقعد أنا وإنتي في البانيو نتكلم في مواضيع مهمة؟

- معلش يا حبيبي ممكن نأجلها؟ مش عارفة ليه الأيام دي مش مؤهلة نفسيا لأي حاجة من دي.

قال لها مزمجرًا عابسًا وجهه:

- أوكي بلاش زفت، بس على الأقل نتكلم في الموضوع التاني اللي كلمتك فيه قبل كده..

نظرت لأعلى في تأفف، زفرت زهمًا:

- موضوع إية يا محمد؟

- موضوع الخلفة... أنا عاوزك تخلفي تاني يا فيروز، نفسي في ولد...

- انت مش ملاحظ إن انت أوفر قوي؟ هو في الزمن ده حد بيفرق بين ولد وبنت؟

- يا ستي خلاااص عاوز بنت تانية، ليه ميكونش ليا اتنين وتلاتة طالما معانا فلوس كتير والحمد لله... ونقدر نعيشهم أحسن عيشة...

- معلش يا حبيبي ياريت نأجلها شوية، محدش عارف ربنا مخبيلنا اية.

صمت ثوانٍ يفكر، نظر لها بعينٍ نصف مغمضة:

مكتبة عابث الإلكترونية

- بقولك إية... انتي آخر مرة خدتى حبوب منع الحمل كان إمتى؟

- قصـ... قصدك اية من الكلام ده؟.... قالتها في ارتباك

- لا مافيش بس أنا مش بشوفك خالص بتخدي حبوب منع الحمل.

- هو انت معايا طول اليوم؟ أكيد طبعًا مواظبة عليها سواء بنعمل حاجة أو مابنعملش...

قال لها وهو شارد الذهن:

- مممم أوكى ماشي..... أنا بس باتطمن...

دخل الحمام الفخم الفسيح وهو يفكر في الأمر، خلع ملابسه وملأ البانيو، جلس بداخله في تؤدة مستسلمًا لأفكار تداعب عقله:

- ياترى في إية مخبياه عني يا فيروز؟ يا ترى هي فعلًا مواظبة على حبوب منع الحمل؟ طب لو كلامي وتفكيري صح وطلعت مش بتاخدها!! معنى كده إن حد فينا حصل عنده مشكلة بعد ما خلفنا جودي! ياترى حصل لها حاجة ومحرجة تقوللي؟ وللا كل ده مجرد أوهام وتكون فيروز صادقة في كلامها وتكون فعلاً بتاخد الحبوب... بس إحنا مش بننام مع بعض كتير!! أي نعم ممكن يحصل مرة كل شهر.... لكن بيحصل...

*****

ظهيرة اليوم التالي، في غرفة النوم التي يسودها الفوضى، زهرية ملقاة على الأرض ومبعثرة زهورها، ملابس منثورة في كل مكان، لايزال معتز نائمًا على السرير عاريًا، لم يستيقظ باكرًا كعادته، رَنَّ هاتفه، فاستيقظ واستيقظت مرام أيضًا، لكنها حافظت على عيونها مغلقة. مدَّ يده تحت الوسادة، فلم يجد الهاتف، تحسس بيده تحت السرير ولم يجده أيضًا، شعر من درجة الصوت أنه داخل بنطلون بدلته الملقى على الأرض على بعد خطوة منه، مد قدمه ليقربه وأخرجه، نظر بعين مرتخية على الشاشة، وجده رقم غير مسجل.. نظر باستغراب ودهشة، بالرغم من أنه لا يجيب غالبًا على أرقام غير مسجلة، لكنه أجاب، ظنًا منه أن الأمر يتعلق بصفقة الأعضاء البشرية:

- ألو..... أيوة أنا د. معتز مين معايا؟... طارق؟!! طارق مين؟..... طارق عفت مين؟!.... آآآه طارق عفت الشيمي...

نزل الاسم على مرام كالصاعقة، صَدَمَتها على غفلة، تجمدت حيث تجلس، لا تصدق ما تسمع، حبست أنفاسها كي تسمع جيدًا، طارق عفت الشيمي!! لماذا يتصل به؟! شعرت بالهدوء الشديد، صرَّت أذنيها فسمعت طنينًا، يخترقه وقع دقات قلبها التي يعلو صوتها تدريجيًا، حاولت استجماع تركيزها فيما يقوله معتز، ولازالت مغلقة عينيها متظاهرة بالنوم العميق.

اشرأب معتز ناحية مرام وتأكد أنها مستغرقة في النوم، بعد أن تنهدت تنهيدة النائم بعد مشقة أعوام، فاطمئن وأردف بنبرةٍ هادئة منخفضة:

مكتبة عابث الإلكترونية

- لا يا حبيبي بتعتذر ليه انت تتصل بيا في أي وقت، أنا اللي المفروض أعتذر عشان نسيت أقول للسكرتيرة تتصل بيك تديلك ميعاد تاني... خلاص زي الفل تعالى النهارده الساعة ٦ وهتكون أول حالة... على إيه يا حبيبي أنا اللي آسف.. مع السلامة.

بعدما أغلق الهاتف، نظر إلى الساعة مندهشًا عندما وجدها الواحدة ظهرًا، دخل الحمام بسرعة ليأخذ حمام، وينزل ليفكر في هدوء وترو في خطة بديلة...

أغلق باب الحمام، فأنصتت مرام جيدًا، حتى سمعت صوت انهمار الماء من الدش، نهضت بسرعة لتفتح درجها بحذرٍ شديد، التقطت ورقة وقلم، أمسكت تليفون معتز لتأخذ رقم آخر متصل، تسارعت دقات قلبها أكثر عندما تأكدت أنه رقم طارق الذي يتصل بها دومًا.

اتسعت عيناها عندما رأت مفاجأة أخرى، أحد الأرقام المستلمة مسجل باسم (فيرو)، إنه رقم فيروز!! اتصلت به أمس مرة عند الثانية ظهرًا والأخرى عند الرابعة عصرًا، الثانية ظهرًا؟!! بعد مقابلتها بساعة تقريبًا!! نفضت رأسها عن التفكير، فهذا ليس وقته، قد يخرج معتز فجأة، وضعت كل شيءٍ في مكانه ومشيت على أناملها في هدوء، جلست على نفس الهيئة كما كانت متظاهرة بالنوم، محافظة على ثبات جفنها ساكنًا. خرج معتز بعدها بدقيقة ملتقطًا بدلة من الدولاب، ارتداها وأخذ مفاتيحه وهاتفه والشاحن، ورحل في عجلة. نظرت عبر النافذة لتتأكد أنه رحل، انفردت بنفسها كي تفكر في هذه المفاجأة..

- إيه اللي جمع طارق بمعتز؟ وإيه طبيعة العلاقة اللي تخليهم يدوا مواعيد لبعض؟ طارق عاوز من معتز إيه.. أو العكس حتى!! إزاي اتعرفوا على بعض؟ ياترى طارق يعرف إن معتز جوزي!! ياترى لسة بيحبني؟ ..... بلايين الأسئلة أخذت تطرق عقلها، فاستطردت...

- وإيه موضوع فيروز؟ كاتبها (فيرو) ليه؟ المفروض أساسًا إن مافيش بينهم علاقة!! والمصيبة إنه مسجلها (فيرو).. إزاي؟ هل ممكن يكون قصده فيروز بس نسي يكتب الـ"ز"؟ طب بيتصلوا ببعض ليه؟!!

دقيقة أخرى وستَجِن... منذ زواجها منه لم تفحص هاتفه قط، ربما هذا الذي جعله متأكدًا أنها لم ولن تفعل ذلك... فاطمأن.

*****

عند الساعة الثالثة، كانت هدير مع خطيبها علاء في إحدى شركات الأدوية ليجري فيها مقابلة؛ بحثًا عن وظيفة أخرى كي يُبكر ميعاد زواجهما ويكون عند حسن ظن طارق به، كانت الشركة بالقرب من منزل طارق، فاتصلت هدير ببسمة كي تطمئن عليها.

- ألو... بسمة أخبارك إية يا حبيبتي؟

- الحمد لله يا هدير، والله كنتي في بالي من شوية، وقولت هحمي يوسف واتصل ببكي، انتي إية أخبارك يا ديرو؟

- الحمد لله تمام، بتعرفي تعملي قهوة وللا لأ يابت إنتي؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- مهههه تعالي مستنياكي.بس متتأخريش، عاوزاكي في موضوع مهم...

- هكون عندك بعد ساعة، يكون علاء خلص الانترفيو... باي

بينما كان في طريقه إلى عيادته، اتصل معتز بسكرتيرته الخاصة، كي تخبر باقي الطاقم أن اليوم إجازة، اتصل بعدها بفيروز ليخبرها عن تعديل الخطة، وطلب منها أن تسبقه إلى المستشفى لتنسق مع الأطباء تخدير طارق وإجراء العملية له، وأيضًا لمقابلة سماسرة الأعضاء البشرية وبحث مد المهلة خمسة أيام، خصوصًا أن لها تأثيرها عليهم ولم يرفضوا لها طلبًا... اتصل بعدها بسائق سيارة من سيارات الاسعاف في مستشفى المعتز، ورجلين كان قد اتفق معهم مسبقًا على تنفيذ خطة خطف طارق.

*****

انتبت الخادمة من ترتيب غرفة النوم ومضت لترتيب غرفة أخرى، بينما خرجت مرام من الحمام مرتدية بشكيرًا تلفه على جسدها، جلست أمام التسريحة وأخذت تجفف شعرها، ولاتزال تفكر في حل طلاسم هذا اللغز، وتجد نفسها تائهة في غابة كثيفة من علامات الاستفهام والتعجب، حتى لفت انتباهها ورقة مطوية موضوعة على الكومود، فتحتها فوجدت مرسوم فيها خطوط غريبة وأسهم ورسومات عشوائية، واسم طارق.. نادت في لهفة إلى الخادمة:

- أماااااااااااااااااني

هرولت الخادمة من الغرفة المجاورة...

- نعم يا مدام مرام...

- إية الورقة دي؟ جبتها منين ولقتها فين؟

- لقيتها حضرتك جمب جاكت بدلة د. معتز، خارجة من الجيب، فحطيتها على الكومودينو...

- مممم وفين البدلة اللي كان لابسها الدكتور؟

- حطيتها حضرتك على الكرسي هناك أهي، كنت هخلص الأوضة التانية وارجع أخدها تتغسل...

- أوكي يا أماني... شكرًا.

فتحت الورقة مرة أخرى، محاولة أن تفهم منها شيئًا، طلاسم خطوط وكلمات غامضة، اسم طارق، بجوارها كلمة "~~يخطوه~~" مشطوب عليها ومكتوب بدلًا منها "يخطفوه"... الخطين مختلفين، التقطت أيضًا كلمات أخرى (كلية، فص رئة، كبد)، المستشفى... بدأت الظنون تتلاعب بها، أسرعت نحو البدلة لتفتشها ربما تجد شيئًا آخر، التقطت رائحة عطر حريمي ليست غريبة عليها، تجمدت واتسعت عينيها فجأة....

(مرام: على فكرة حلو قوي البرفيوم اللي انتي حطاه ده...

مكتبة عابث الإلكترونية

فيروز: أها أنا بعشقه، بحس إنه سيكسي...)

سقطت بجسدها على الكرسي في ذهول... غمغمت في قرارة نفسها:

- برفيوم... وسيكسي.. وعلى البدلة ...!!...اتصلت بيه بعد ما سابتني بساعة، ومرة تانية الساعة أربعة...!! يعني اتقابلوا...

بدأت تفكر بهدوء، محاولة الإمساك بأطراف الخيوط، لحل هذا اللوغاريتم.

*****

طرقت هدير الباب، ففتحت لها بسمة وتعانقتا عناقًا حارًا:

- هدير... كده يا وحشة تتأخري نص ساعة؟

- والله علشان علاء قعد كتير في الإنترفيو... مالك يا بسمة؟ مش دي ابتسامتك؟ في حاجة تانية حصلت بينك وبين طارق؟

سكتت لثوانٍ، بعدما غادرت البسمة المصطنعة شفتيها، واستطردت:

- في حاجة أنا حاسة بيها يا هدير، ومتأكدة مش حاسة بس...

- إية يا بسمة خير؟ قلقتيني..

- أنا حاسة إن طارق رجع لمرام تاني.

- بوووووووه، بصراحة يا بسمة بقى انتي كده أوفر...

- أنا بأفور يا بسمة؟!! ربنا ما يحكم عليكي تحسي اللي أنا حساه أو تعيشي اللي أنا عايشاه، مهما قولتيلي وطمنتيني مش هقتنع، أنا حاسة إنه رجعلها، طارق جوزي وأنا عارفاه كويس ومعاشراه، ده بينام معايا وأحس إنه بيتخيلها هي، مش ده طارق اللي كان بيعمل معايا الحاجات دي وبيقى عايش منتهى اللذة، غير إنه كتير بيندهني باسمها، تقدري تستحملي كده؟ ومستغربة إني بشك إنه رجعلها؟!! (انهمرت فجأة في البكاء) أنا متأكدة أنه رجعلها، أهو اتصل بيا من ساعة وقاللي إنه هيتأخر شوية، وكتير بيرجع متأخر، تقدري تقوليلي بيروح فين؟

- قصدك إية يعني؟ ياربتنا كنا نعرف بيت مرام أو أي حاجة توصلنا لها...

- ولية نقول ياربت؟ وليه نحاول نوصل لها؟ مش هو النهارده هيتأخر زي ما قال؟ إحنا نروحله الشغل دلوقت.. ونراقبه نشوف هيروح فين بعد كده...

صمتت هدير ثوانٍ لتفكر في الأمر، سألتها

- ولو ربنا خيب ظنك؟ هتراقبيه بكرة؟ وبعده وبعده؟!! انتي كده بتتعبي نفسك يا بسمة!!

مكتبة عابث الإلكترونية

- الموضوع مش أكتر من معادلة، ١+١=٢.... هو النهارده قالي إنه هيتأخر.. واتصلت بيه من شوبه في مكتبه لقيته رد عليا. تعالي نشوفه هيروح فين بعد الشغل، اعتبريني مجنونة، أنا زوجة وأم يا هدير... ومسؤولة عن إحساسي...

قالت لها بتحد:

- أوكي أنا موافقة يا بسمة، برغم إني مش مقتنعة بكلامك، لكن هروح معاكي عشان أثبتلك أنك غلط.... طب يوسف هناخده معانا؟

- عوزاه يشوف باباه وهو بيخون مامته؟

أطرقت رأسها في حزن، ثم نظرت لها مرة أخرى، وقالت لها بنبرة متأسية: هخليه مع أمنية جارتنا لحد ما نرجع...

*****

جلست مرام على حافة المنضدة ولا زالت تنظر بتركيزٍ شديد إلى الورقة، تتفحصها وتجتهد في حل اللغز ولو بشكل نسبي. حدثتها نفسها.. "من المؤكد وجود علاقة بين معتز وفيروز، بدليل العطر والمكالمات، وهذه الورقة دليل على أنهما يخططان لشئ فيه أذية طارق..... أذية طارق؟!!... "

تذكرت حينما قال لها أمس:

- مممم على العموم، هأ. على العموم الحد التاني ده قريب قوي هخليكي تشوفيه وهو عاجز، وهستمتع لما اشوفك وإنتي شايفاه كده، بعدها هخليكي زيه...

تذكرت أيضًا أنه أعطى له موعدا اليوم الساعة السادسة، من المؤكد أنه سينفذ فيه شيئًا ما...

سرحت لدقيقة محاولة استجماع نفسها، الساعة الآن الخامسة.. ربما فجأة قبل أن يتبعها قلبها الذي انتفض معها قلقًا وخوفًا على أول وآخر شخص دق له قلبها، نطق باسمه، حيا في جنته...

ارتدت ملابسها بسرعة، وحتى لا يُكتَشَف أمرها؛ اتصلت بإحدى صديقاتها في النادي لتأخذ سيارتها، بحجة أنها تريد أن تجربها لتشتري مثلها. في نفس اللحظة... استقلت بسمة وهدير تاكسي، وقفن أمام عمله إلى أن خرج من باب الشركة، واستقل تاكسي هو الآخر، أوصيا السائق أن يسير خلفه ولا يغيب عن نظره، إلى أن وقف عند العمارة التي بها عيادة معتز.

على بُعد أمتارٍ من تاكسي بسمة وهدير، تقف سيارة إسعاف بعد باب العمارة بمترين، في الجانب الآخر تقف مرام بسيارتها، رأت طارق وهو يلتفت يمينه ويساره ليعبر الشارع، رأت وجهه جيدًا.. توقف بها الزمان والمكان، اكتشفت أنها طيلة هذه المدة كانت تحيا بدون روح، وها هي الروح على بُعد خطوات منها، ظلت تنظر له دون أن تطرف، احتلت

مكتبة عابث الإلكترونية

عينها الواسعتين دموع فراق دام لسنوات، تسارعت دقات قلبها وهي تراقب روحها عن كثب، تملي عينيها منه بعد أن أصبحت كالصحراء الجدباء، استفاقت وانتبهت لما حولها فجأة... وضعت يدها بسرعة على مقبض باب السيارة كي تتبعه وتحذره...

- شوفتي يا هدير؟ أكيد هي دي العمارة اللي بيتقابلوا فيها.

- إستنى بس يا بسمة أما نفكر ونشوف هنعمل اية، نطلعله وللا نستنى وللا نتصل بيه؟

قاطعتها في غضب:

- هيا فيها نستنى؟!! ماهو اللي إيده في المية مش زي اللي إيده في النار! أنا هطلع وراه أطب عليهم متلبسين عشان أثبتلك إني صح.

*****

رَنَّ هاتفه، فأجاب على الفور:

- أيوة يا فيروز، وصلتي لفين طمنيني؟

- أنا داخلة على المستشفي أهو...

- جميل، وطارق على وصول، أنا علقت الأسانسير في الدور بتاعي، عشان يضطر يطلع على رجله، قبل الدور بتاعي عند الدور التالت، الرجالة هتعمل معاه أحلى واجب، ويخرجوه من العمارة على نقالة

يشحنوه في عربية الإسعاف على عندك وهاجي معاهم في نفس العربية.. وهتصل بيكي في السكة عشان تجهزوا أوضة العمليات...

- مش ممكن حد ياخد باله في العمارة؟

- اطمني، العمارة معظمها مش ساكن والدورين اللي تحتي فاضيين،... والبواب مسافر بلده اليومين دول والحركة في الوقت دة خفيفة... يعني أنسب وقت، المهم ظبطي كل حاجة عقبال ما نكون عندك بعد نص ساعة...

- أوكي يا حبيبي.. حاجة تانية؟

- آه.. ماتنسيش تتحايلي ع السماسرة إنهم يدوني أربع خمس تيام مهلة.

- ماتقلقش أنا عارفة هظبطهوملك إزاي... باي

نزلت بسمة وهدير من التاكسي، دخلتا العمارة وراء طارق، الذي صعد على السلم. نظرت بسمة إلى المصعد لترى آخر دور تم تسجيله على المصعد فوجدته مُعَطَّل...

دخلت مرام العمارة فوجدتهن، هي لا تعرف بسمة، لكنها تعرف هدير، التفتت بسمة وراءها فوجدت مرام التي تعرفها عن طريق صورها مع طارق، تفحصتها هنيهة بعين ناقدة، ثم أشارت إليها بسبابة مرتعشة غير قادرة على الكلام، لا تعرف من أين تبدأ... أمام ذهول هدير، التي

مكتبة عابث الإلكترونية

فوجئت بمرام أيضًا، قالت بسمة لهدير وهي لا تزال تحت تأثير الصدمة:

- مش... مش... مش قلت لك يا هدير؟ أهي الهانم داخلة وجاية في ميعادها بالظبط...

وجهت هدير حديثها لمرام: معقولة يا مرام؟ أنا ماكنتش مصدقة لكن دلوقتي اتأكدت...

وقفت مرام أمامهما في ذهول لا تفهم ماذا يقصدن، سألت هدير بدهشة:

- مين دي يا هدير؟

- دى بسـ...

قاطعتها بسمة بعنف، لتجيبها بصوتٍ خافت بدلًا عنها:

- أنا بسمة... مرات طارق اللي انتي جاية تقابليه هنا عشان تنامي معاه يا قذرة، ماتعمليش نفسك عبيطة، كل شيء خلاص وضح وضوح الشمس... الحركات ده مش هتخيل عليا.. بسببك عايشة في عذاب، مش عارفة أعيش أساسًا منك، خربتي بيتنا، استحوذتي على كل تفكيره لدرجة إنه بيغلط وبناديني باسمك، مستخسراه فيا يا قذرة؟ كنت فكراكي محترمة لكن طلعتي...

قاطعتها مرام ولازالت مندهشة: أنا آخر مرة شفت طارق كان من أكتر من اربع سنين!!

قاطعتهم هدير بجدة: تعرفوا تسكتوا إنتو الاتنين؟ (صمت الجميع للحظات ومن ينظرن إلى بعضهن البعض) أردفت هدير كلامها لمرام:

- إحنا يا مرام جايين عشان بسمة شاكة إنك بتقابلي طارق هنا ورافقناه لحد ما اتأكدنا إن...

قاطعتها بسمة بصوتٍ عالٍ غاضب:

- انتي بتشرحيلها إية دي إنسانة مومس واطية وبنت...

قاطعتها مرام رافعة يدها بحدة، واضعة سبابتها أما فمها تحثهم على الصمت قائلة بصوت هامس:

- شششششش إسكتي انتي وهي!! طارق في خطر، أنا وصل ليا معلومات إن معتز هيأذي طارق، وده ماعندوش قلب ولا رحمة ولا أي مبدأ... ده جوزي وأنا عارفاه...

لم تكمل مرام كلامها، حتى سمعن صوت طارق عاليًا، كأنه يقاوم أشخاص يعتدون عليه، صاحبه صوت ضربات متتالية، تبعه صوت طارق وهو يتألم، حتى اختفى الصوت فجأة وساد الهدوء المكان. ثم تبع ذلك صوت أقدامهم على السلم، وصوت معتز وهو يتحدث في الهاتف:

مكتبة عابث الإلكترونية

- ارجع بضهرك واقف قدام باب العمارة بالظبط...

اختبأن بسرعة في المنور، وجدن طارق فاقدًا الوعي ومحمولًا على نقّالة، ويضعونه في السيارة بسرعة. ركب معتز بجوار السائق، والرجال في الخلف مع طارق، وغادرت السيارة...

ضربت بسمة بيدها على صدرها بقوة، قائلة بصوت بالكاد يخرج من حنجرتها:

-... جووووزي.. طارق.. حب...

وضعت مرام يدها على فمها لتسكتها...

- إسكتي يا بسمة خالص، تعالوا معايا أنا هتصرف، هنراقبهم ونشوفهم رايحين فين، ونبلغ عنهم...

استقلوا سيارة مرام بسرعة، الخوف والقلق على طارق اقتحم قلوبهن، أمسكت بسمة بهاتفها كي تبلغ الشرطة، لكن مرام طلبت منها التريث حتى يعرفن أولًا إلى أين سيذهبون به، حتى تستطيع الإبلاغ بمعلومات كافية...

إلى أن وصلت سيارة الإسعاف لمستشفى المعتز التخصصي بشارع التحرير فى الدقي، ليس هذا الذي فاجأ مرام، بل الذي فاجأها هو وجود سيارة فيروز أمام المستشفى، حمل الرجال طارق من داخل السيارة إلى المستشفى، كان مغشيًا عليه، أخرجت بسمة هاتفها

واتصلت بالنجدة كي تبلغ عن الحادث، أخبرتهم أن الموضوع طارئ وإن تأخروا فستكون العواقب وخيمة وسيضيع زوجها.

بالفعل قام قسم الدقي الذي يبعد عن المستشفى مسافة ٢٠٠ متر في غضون عشر دقائق بتوجيه ضابطي مباحث، ضابط نظام، ٢ أمناء مرور، ٦ أمناء ملكي. هرعت بسمة إليهم لتخبرهم بتفاصيل الواقعة. أمر الضابط قوته بالاستعداد حال حدوث مقاومة، ومراقبة البوابة الرئيسية والخلفية، ومنع دخول أو خروج أي شخص...

بعدما اتفقت فيروز مع سماسرة تجارة الأعضاء على مد المهلة أسبوعًا ليس خمسة أيام فقط، دخل عليهم معتز، أبلغ بعدها فيروز أن طارق وصل للمستشفى، وأمرها أن تذهب لغرفة العمليات في الطابق الأسفل لتباشر الموضوع مع الأطباء. في طريقها، رأت من نافذة السلم المطلة على الشارع سيارتي الشرطة وتحركات غير طبيعية عند الباب. شعرت بارتباك، وكادت أن تفقد الوعي، لكنها حافظت على هدوئها، استخدمت مصعد الحالات الحرجة المؤدي إلى الجراج الخاص بسيارات الإسعاف في الدور -١، أغلقت هاتفها وخرجت عبر بوابة صغيرة خاصة بدخول وخروج المخلفات الطبية، بمجرد خروجها تنفست الصعداء، ركبت سيارتها في سلام، وتبخرت في غضون ثوان...

شاهدتها مرام المرتبكة.. كان من الممكن أن تبلغ عنها أحد الضباط، لكنها الآن لا يهمها سوى إنقاذ طارق، وقفت على مقربة من باب المستشفى مع بسمة وهدير لتراقب الموقف عن كثب....

مكتبة عابث الإلكترونية

دخل الضابط ومعه اثنان من أمناء الشرطة، سألوا موظفة الاستقبال عن أسماء أخر حالات دخلت المستشفى، لم يجدوا من بينهم اسم طارق عفت الشيمي. اتصلت الموظفة التي ارتبكت من دخولهم بـ د. معتز، الذي نزل ثائرًا غاضبًا، تحدث إلى الضابط مزمجرًا..

- إنتو فاكرين إن دي دولة مفهاش قانون؟ إنتو فاكرينها زريبة؟ إزاي تدخلوا كده بالمنظر ده.. ده مستشفى تخصصي كبير.

تحدث معه الضابط بكل هدوء ولباقة...

- حضرتك إحنا جالنا بلاغ إن في مواطن مُختطف هنا، وتم حجزه من دقايق...

- كدب.. مين اللي قالك الكلام ده؟ وهنخطفه ليه؟ وهنعمل بيه إية؟ البلاغ ده كاذب وكيدي...

دَخلَت مرام من باب المستشفى مُسرِعة، ومعها الورقة التي كانت في جيب معتز، والتي تحتوي على خطته بخط يده...

- لا البلاغ مش كاذب ولا كيدي يا حضرة الظابط... إتفضل دي ورقة بخط ايد الدكتور وهو بيشرح فيها إزاي هينفذ خطة خطف طارق الشيمي واستئصال أعضاء بشرية منه، من الواضح كمان إن الأستاذ بيتاجر فيها وعاوز يستغل المواطن طارق في كده...

نظر لها معتز في ذهول، عاجزًا عن الكلام. بعد شرود ثانيتين تحدث بارتباك:

- كدب، الورقة دي مش أنا اللي كاتبها، ومحدش هيدخل، ولو مامشيتوش حالاً هرتكب جريمة، وإنتي حسابك معايا بعدين يا مرام.

حاول الضابط التقدم نحو المصعد بالقوة، منعه معتز مشهرًا في وجهه مسدسًا أخرجه من جيبه، حذره الضابط من عواقب إشهار سلاح في وجهه، وهدده إن لم يلق بسلاحه سيتم التعامل معه، ارتبك معتز أكثر، وأخذ الشرر يتطاير من عينيه، فأطلق رصاصة في الهواء ووجه مسدسه إليه مرة أخرى، وهدد الضابط إن لم ينسحب هو وقوته فسيقتله. سادت الفوضى في المستشفى بعد رصاصة معتز، بدأت القوة في اقتحام المستشفى، غير آبهين بتهديدات معتز، أفلتت أعصابه أكثر عندما حاول أحد الضباط السيطرة عليه فابتعد موجهًا مسدسه بيديه المرتعشتين إليهم جميعا، وهددهم كالمجنون أنه سيقتل من يقترب خطوة أخرى وأطلق رصاصة أصابت فخذ أمين الشرطة. فأطلق ضابط آخر على مقربة من باب المستشفى رصاصة مباشرة في وجه معتز ما بين العينين.. في المنتصف، فأردته قتيلًا في الحال...

تجمع أهالي المرضى والمارة فور سماع دوي إطلاق النيران، وصلت سيارات أخرى للشرطة، بينما بسمة ومرام وهدير يقفن أمام باب المستشفى وقد أجهشن بالبكاء والصراخ، حاولت مرام التسلل مع بسمة لاختراق الحاجز البشري من العساكر والتحدث مع أحد

مكتبة عابث الإلكترونية

الضباط بخصوص طارق الذي مازال مصيره غير معلوم، فطمأنهم الضابط بأنه يتم الآن عملية تمشيط لكل أدوار المستشفى للبحث عنه...

تم القبض على السماسرة الذين كانوا موجودين في مكتب معاز يحاولون الهروب، أيضًا وجدوا غرفة كبيرة مُكيفة ضوءها خافت، بها أرفف موضوع عليها برطمانات زجاج بداخلها أعضاء بشرية مغمورة في سائل، عدد من الثلاجات الصغيرة تحتوي على أعضاء بشرية أخرى، تم ضبط عدد من الأشخاص داخل بعض الغرف، متمددين على الأسرة، كانوا قد باعوا أعضاءهم بالفعل، وأيضًا عدد من أطفال الشوارع مجتمعين في غرفة واحدة، تمهيدًا لنزع أعضائهم...

في النهاية، وجدوا طارق قد تم تخديره فقط دون إجراء العملية، ليس به سوى بعض الكدمات جراء ضربه على مؤخرة رأسه بآلة حادة، تم التحفظ على المضبوطات، ونقل جثة معتز للمشرحة، واستكمال التحقيق مع باقي المتهمين المقبوض عليهم...

*****

بعد يومين.. مستشفي معهد ناصر...

عند ردهة الاستقبال، وقفت مرام مع الطبيب المتابع لطارق، لتسأله عن حالته، فأخبرها أنه تماثل للشفاء بشكل كبير، ويمكنه الخروج من المستشفى خلال ساعات، فشعرت بالطمأنينة ومضت بسرعة قبل أن يراها أحد، لكن بسمة، التي كانت على بعد أمتارٍ منها عند الخزينة، لمحتها عند الباب، فنادتها، وأقبلت عليها شاعرة بالخجل من سوء ظنها...

- مرام أنا مكسوفة منك، آسفة على ظني فيكي، وأشكرك جدًا على اللي عملتيه معانا، لولاكي كان طارق راح مننا.

شهقت مرام وهالها ما سمعت (بعد الشر عليه يارب أنا وهو لأ...)، شعرت بالخجل من ردة فعلها وقالت لبسمة بعد أن تداركت:

- آآآ..... آسفة ... ربنا يطمنك عليه..

نظرت لها بسمة نظرة تنم عن تفهمها -على مضض- لرد فعلها، حاولت مرام بسرعة التعتيم على الموقف:

- الحمد لله اللي نجاه، أنا ماعملتش حاجة...

مكتبة عابث الإلكترونية

- لا عملتي يا مرام.. كفاية إنك بلغتي عن جوزك وقدمتي أدلة إدانته.

- جوزي!.. ربنا يسامحه...

أطرقت برأسها. فوجدت يوسف ممسكًا بيد ندى، نظرت له في حنو، شعرت بأحاسيس غريبة متضاربة، فانحنت له، حملته وعانقته بقوة وهي مغمضة عينيها...

فعلت شيئًا كانت تتمنى قديمًا أن تفعله مع والده، هي الآن تحضن جزءً من صلب أكثر إنسان أحبته في حياتها. لحظة عناق لثوانٍ، مر فيها أمام ناظريها شريط ذكرياتهما، تذكرت كل شيء، أجهشت بالبكاء عندما وصلت لمشهد النهاية، فتحت عينيها واستفاقت فجأة محاولة انتزاع نفسها من بين فكي أمر واقع مرير، وحقيقة مؤلمة... شعرت بسمة بها وبما تعانيه، وبما تشعر به الآن وتفكر فيه، وضعت يدها على كتفها لتهون عليها بابتسامة حنونة:

- أنا حاسة بيكي يا مرام... بس ماحدش بياخد أكتر من نصيبه، ربنا يعوضك في بنتك.

- هو أخد جزاؤه اللي كان يستاهله، أستأذنك أنا بقى عشان ورايا ميعاد..

- اتفضلي يا حبيبتي، شكرًا كمان مرة يا مرام.

ابتسمت مرام ابتسامة منكسرة، ومضت خارج المستشفى لتركب سيارتها الفارهة... ذاهبة إلى والدتها، فهي تحتاجها بشدة...

هناك وجدت محمد ومعه فيروز...

كانت مرام تشعر بالإرهاق الشديد والتعب، ارتمت في حضن والدتها وظلت تبكي متذكرة ما حدث لها مع معتز من ذل وإهانة وإهدار لكرامتها، حمدت الله الذي خلصها من هذا الكابوس المرير...

نظرت لها فيروز الجالسة بجوار محمد نظرة متسلطة، قائلة لها في نبرة حادة:

- انتي مش المفروض يا مرام تعملي صوان عزا لمعتز جوزك؟ ثم انتي ليه مش لابسة أسود؟ انتي ماصدقتي إنه مات وللا إيه؟

رمقتها مرام في تعجب ودهشة، من تلك المرأة التي تمتلك قدرة كبيرة على التلون كالحرباء، نظرت لها شزرًا: تعلم جيدًا أنها كانت بين أحضان معتز منذ يومين، أيضًا متأكدة أن لها يد في الذي حدث لطارق، وكانت تخطط معه، وليس مستبعدًا أن تكون متورطة أيضًا في الإتجار بالأعضاء البشرية مع معتز...

نظرت مرام لها متعمدة أن تُشعرها أنها على دراية بعلاقتها بمعتز..

مكتبة عابث الإلكترونية

- انتي بتبصيلي كده ليه يا مرام؟! على العموم أنا مقدَّرة مشاعرك، بس مهما كان ده جوزك وأبو بنتك.... وسايبلك فلوس مالهاش أول من آخر... وفيللا وأراضي غير الشقة والعربيات...

ردت علىها مرام، ولازالت تنظر لها نفس النظرة:

- كل ده مايجيش حاجة جمب رجل يحب مراته وبنته، للأسف معتز بكل فلوسه كان بالنسبالي مسخ، إنسان مالهوش أي لازمة أو قيمة، حتى فلوسه مالهاش قيمة...

نظر لها محمد في شفقة، جذبها برفق من يديها:

- تعالي يا مرام عاوزك نتكلم شوية على انفراد.. عن إذنك يا ماما، عن اذنك يا فيروز...

دخلت مرام غرفتها، فتذكرت ذلك اليوم المشئوم عندما رأت منضدة الرسم، سريرها، حقيبتها الممتلئة بذكرياتها مع طارق، لم تستطع أن تتحمل، طلبت من محمد التحدث في الشرفة، فتحدث إليها في هدوء وترو:

- بصي يا مرام يا حبيبتي، يمكن مش كتير اتكلمنا مع بعض، وأعترفلك اننا كتير قوي كنا مختلفين، لكن تأكدي ان كله عشان مصلحتك... أنا طبعًا مقدر حزنك ده كله..

بدا علىها التعجب، شرعت في الرد، فوضع يده على فمها، واستطرد حديثه قائلًا:

- عارف هتقولي إية، انتي مش حزينة على معتز، انتي حزينة على عمرك اللي راح، ووشك اللي دبل، وجمالك اللي خسرتيه، سامحيني يا أختي أنا اسف، أنا ظلمتك من غير ما أقصد.

نكس رأسه لثوانٍ ثم أردف:

من ساعة ما عرفت إنك اكتشفتي خطتي عشان أبعدك عن طارق، وأنا زعلان من نفسي، لكن أنا معذور يا مرام، أنا عاوزك تعيشي حياة كريمة.

قاطعته:

- انت ماعملتش كده عشاني، انت عملت كده عشان نفسك، انت إنسان أناني..

- يمكن أكون أناني، لكن مش عيب أكون بدور على مصلحتي ومصلحتك برضه، أهو معتز غار في داهية وسايبلك ملايين وفلوس مالهاش عدد... انتي دلوقتي قوية.

بكت مرام بحرقة، تحتاج الآن بشدة لحضن طارق، تحتاج إلى أن ترتمي بداخله فتغيب عن الوعي، تصرخ فتفرغ في صدره كل همومها، تنسى فيه كل مشاكلها، تنسى أنها أصبحت الآن أرملة لشخص وقح،

مكتبة عابث الإلكترونية

اسمه في حياتها غير قابل للمحو، حتى إن محته من حياتها، فكيف تستطيع أن تمحوه من شهادة ميلاد ابنتها؟ مسحت دموعها ورفعت رأسها في شموخ وعزة وكبرياء...

- بص يا محمد، بالنسبة لأسفك ليا، أنا مش قابلاه، وطلبك إني أسامحك مرفوض، بل مستحيل وقلت لك كده بدال المرة ميت مرة، مش معنى إني بتكلم معاك أو بتكلم مع فيروز بطريقة كويسة أبقى نسيت! انتو ظلمتوني، وطول عمرك كنت بتعاملني كإني كلبة، مش اختك بنت أمك وأبوك، عمري ما هنسى الملاليم اللي كنت بترميهالي وأروح اخدها من فيروز مراتك، عمري ما هنسى القلم اللي إديتهولي ساعة ما كنت بتوصفلي بالكدب شقة طارق، عمري ما هنسى شتيمتك ليا ولبابا الله يرحمه، عمري ما هنسى إنكارك لفضله عليك، عمري ما هنسى يا بشمهندس محمد انك بعتني مقابل وظيفة، عمري ما هنسى انك كنت بتهدل أمي وتشتمها قدامي..

قاطعها محمد، متحدثًا بعقلانية، وبصوت هادىء منخفض:

- خليكي عملية يا مرام، أنا عملت كده عشان بحبك يا أختي، شوفي معتز سابلك إية، زي ما قلت لك وزي ما قالت لك فيروز من شوية، عربيات وفلوس كتيرة وعقارات والمستشفى بعد ما ينتهي التحفظ عليها، ملايين يا حبيبتي... وأنا بالنسبة ليا أهو خدت وظيفة مكنتش احلم بيها، أأمن بيها مستقبلي ومستقبل بنتي ومراتي، بدال المرمطة في الخليج...

نظرت له بابتسامة تحمل سخرية، وهي ترى الآن زوجته مع زوجها، وابنهما وهو يضاجعها على الفراش... ردت عليه قائلة:

- انت ماكسبتش حاجة يا باشمهندس محمد.. انت للأسف خسرت، مش ببالغ لما أقولك إنك مش محترم، ولا عمرك هتكون محترم... عشان كده أنا مش بحترمك.

نظر لها محمد في غضبٍ شديد، كاشفًا عن وجهه الحقيقي

- انتي بتقوليلي أنا الكلام ده يابنت الكلب؟!!

رفع يده ليصفعها، فأمسكتها بسرعة، قائلة له برأس مرفوعة وشموخ يتطوي وراءه انكسارها وهوانها وتُجمله بابتسامة منكسرة...

- دي آخر مرة تشتمني ببابا، انت اقل من إنك تجيب سيرته، وبرضه دي آخر مرة تحاول تمد إيدك عليا لأنى المرة الجاية هقطعهالك، أنا دلوقتي مش ضعيفة زي زمان، وزي ما قلت إن حبيبك معتز سايبلي فلوس وعقارات وثروة كبيرة، وفي مفهومك الوضيبيبيع الوقح؛ إن اللي معاه فلوس أكتر. بيبقى أقوى أكتر. لكن أنا قوتي مش في الفلوس دي، أنا قوتي في إن ربنا جمبي، ومعايا بنتي، روح يا محمد حسبي الله ونعم الوكيل فيك، أنا مش مسامحاك، ربنا يردلك كل اللي عملته في بنت يتيمة، والبنت اليتيمة دعاها مافيش بينه وبين ربنا حواجز....

مكتبة عابث الإلكترونية

مضت منصرفة قبل أن تذرف دموعها، تركته بمفرده في الشرفة، ذهبت لوالدتها لتعانقها وتُقبل يدها مرة أخرى، وأخبرتها أنها ستأخذها لتعيش معها في شقتها قريبًا، حتى تتمكن من الاهتمام بها على النحو الأمثل، التفتت بعينها لتلاحظ أن فيروز تنظر لها نظرات غير مفهومة، فنظرت لها مرام شزرًا، وأطالت النظر، ثم نهضت وأخذت ابنها ومضت...

*****

استفاق طارق، وكان يشعر بصداعٍ شديد وألم في جسده، كان حوله يوسف ابنه وبسمة ووالديه وإخوته، حضن يوسف وبدأ يتساءل في حيرة واندهاش..

- إيه اللي حصل يا جماعة؟ أنا فين؟ أنا آخر حاجة فاكرها الناس اللي قابلتني ع السلم... ضربوني على دماغي وبعدها.. مش فاكر إيه اللي حصل!!

أجابته هدير بتسرع..

- أسكت يا طارق ده انت كان زمانك ناقص عين ومخ وكبد وكلية هبهبه لولا مرام الله يكرمه.

قاطعتها بسمة بنظرة حادة، فأدركت هدير على الفور حجم الخطأ الذي اقترفته، فاستطردت بسمة:

- الحمد لله يا طارق، لولا الشرطة والظابط الله يكرمه اللي قتل معتز كان زمانك مش معانا دلوقتي لاقدر الله، حمد الله ع السلامة يا حبيبي كنت هموت من غيرك....

نظر لهما محاولًا أن يستفسر أكثر:

- مرام مين؟ مالها مرام؟!! وظابط مين اللي قتل معتز؟ معتز مين أساسًا؟ د. معتز اللي كان بيعالجني؟!! هو إية اللي حصل؟ في إية يا جماعة؟

أجابته بسمة وهي تنظر له في شفقة:

- يا طارق ممكن بس الأول ترجع بيتك وماتسألش عن أي حاجة؟ انت لسة تعبان يا حبيبي...

قاطعها بصوتٍ عالٍ بانفعال أكثر..

- انتي مراتي وعارفاني، الفضول عندي غير عند أي شخص تاني، إية حكاية مرام ومعتز والظابط والقتل؟ معتز مين؟

خافت بسمة أن تحكي له عن تفاصيل الموضوع، مما قد يؤدي لفتح باب مزعج يؤدي إلى مرام، حاولت أن تفتح أي موضوع آخر..

- يا حبيبي ابوس ايدك ماتسألش عن حاجة خالص، ويلا عشان نمشي أنا محضرالك النهارده....

مكتبة عابث الإلكترونية

غضب طارق وانفعل أكثر، حاول النهوض من السرير، وخلع أنابيب المحلول المعلقة في يديه، أنزل قدميه على الأرض، وأخذ يكرر سؤاله بصوت أعلى، حتى هاجمه ألم شديد مفاجئ في رأسه، وكاد يسقط على الأرض، لولا أنهم وضعوا الوسادة خلفه، وأسندوا إليها جزعه العلوي، وأجهشت بسمة بالبكاء وهي تحكي له مجبرة...

*****

وصلت مرام إلى المنزل، فوجدت محامي معتز في انتظارها، جالسًا في الصالون يحتسي قهوته، بجواره حقيبة جلد سوداء ممتلئة بالأوراق، صافحته وطلبت من الخادمة فنجان قهوة.

- ازيك يا أستاذ حفناوي.

- أزيك يا مدام مرام، البقاء الله، ماحدش دايم فيها...

- ونعم بالله، كنت عرفت إنك عايزني بخصوص إجراءات الميراث وكدة.

- بصي يا مدام، هقولك كلمة أنا ماشي بيها كمبدأ شخصي في حياتي "كمحامي" وأرجو أنها تختصر كل المسافات وتوفر علينا كلام كتير...

- قول يا أستاذ حفناوي بس ياريت زي ما قلتلي.. باختصار وبلاش شغل المحامين ده.

- مممم جميل. بقى م الآخر كده انا مبدئي إن اللي يتجوز أمي أقوله يا عمي... سواء د. معتز أو حضرتك أو الجن الأزرق

- جميل. كمل...

- م الآخر كده.. الحكومة هتيجي تصادر ممتلكات معتز مش هتلاقي غير المستشفى. لأن كل الفلل والعربيات والشاليهين والأراضي باسمك، كلها أصول قيمتها حوالي ٢٠ لـ ٣٠ مليون جنيه، وزي ما قلت لك قضية إجارة الأعضاء ممكن ترسي على ان الحكومة تصادر المستشفى لأنها باسمه مع شركا تانيين، وأنا هاخليكى تاخدي أي نفحة منها، ٥ مليون مثلًا، ودي سهلة بما إنك زوجة شرعية و وحق بنتك بما إنك حاضنة البنت معتز الشرعية... يبقى الإجمالي ٢٥: ٣٠ مليون.

- ٢٥ مليون جنيه... حلو قوي، بس إزاي؟ مش المفروض الممتلكات دي تتصادر هي كمان. حتى لو كانت باسمي؟

- لا يا فندم. مش هتتصادر لإن د. معتز يوم ما كتبها باسمك دفع رشوة لموظف في الشهر العقاري عشان يخلي تاريخ التوثيق قديم، كان بيحب يأمن نفسه دايمًا، المهم سيبك بقى من الفكة دي، مش ده موضوعنا.

رفعت حاجبيها وسألته بدهشة...

- نعم؟!! قصدك إية بـ٢٥ مليون دول فكة؟!!

- أحب الأول أقولك إن فيروز دلوقتي على وشك إنها تموت...

مكتبة عابث الإلكترونية

- ازاي..

- فيروز كانت مشتركة مع معتز في موضوع تجارة الأعضاء، بس الحقيقة هي كانت ناصحة، ماكانتش بتمضي أي ورقة ودايمًا دورها كان في الظل، تتفق على كل حاجة وتعرف معتز بمافيا الأعضاء وتتم الصفقة، وهي اللي بتدير فريق العمل اللي بيجيب الناس اللي يبيعوا أعضاءهم، عشوائيات وأطفال شوارع ومصادر تانية كتير. وكان معتز بيشيل نصيبها دايمًا معاه، وكل ما تحب تاخد حاجة تطلب منه يديها، هي طلبت نصيبها منه كذا مرة بس في النهاية قدر يقنعها إن الفلوس لما تبقى برة مصر هتبقى في أمان أكتر، وفي الحقيقة كان التعاون والتعامل بينهم زي الفل.

- جميل... في حاجة تانية عندك وعاوز تقولها؟

- مممممم مدام مرام، الكلام اللي هقولهولك ده ماينفعش يطلع برة ومحتاج منك حكمة شديدة وعقل وتفكير، إحنا داخلين على كلام كبير...

- إحكي ماتقلقش.

- فيروز كانت على علاقة بمعتز وكتير كانوا بيتقابلوا، وكان بينام معاها...

- مممممم... بينام معاها!!

- أنا آسف يا فندم، أنا عارف إنها مرات أخوكي، لكن دي الحقيقة..

شردت مرام لثوانٍ قائلة في سرها: "آه طبعا.. عشان البيه فاكر إن الفلوس كل حاجة، وإنها بتخلي الإنسان قوي، أهو عايش مع واحدة بتخونه..

- يا مدام مرام.. حضرتك مركزة معايا؟

- آسفة.. كمل وبعدين.... إية بقى موضوع إن ٢٥ مليون يعتبروا فكة..؟!!

- أهم حاجة حضرتك في كامل قواكي العقلية ومستعدة للي هقوله كويس...

قاطعته بحدة: أخلللص اتكلم

- انتي ليكي حساب في بنك في سويسرا، الحساب ده فيه حوالي ٢٠ مليون دولار إلا حاجات بسيطة يعني بسعر دلوقتي حوالى ١١٨ مليون جنيه.. ويمكن أكتر

تجمدت مرام، وأخذت نفسًا عميقًا حبسته، ولمعت عينيها وحورت حتى بدا حورهما ساطعًا، شعرت بالعرق يقطر على جبينها، حاولت إخفاء مشاعرها وهي تسأله بعد أن زفرت بهدوء:

- انت اللي بتقوله ده بجد؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- آه حضرتك، معتز كل عملية بيعملها كان بيحول فلوسها على الحساب ده. هنبدأ نشتغل على استردادهم لما حضرتك تأمري، وطبعًا فيروز هتتشل لأن ليها حوالي ١٨ مليون جنيه فيهم، وماتقدرش تفتح بؤها عشان تطالب بيهم.. عاوز أقول لسعادتك إن المرحوم في الفترة الأخيرة كان بيفكر ينقل كل الليلة دي لفيروز، عشان كدة هتتشل.

- إنشا الله تروح في ستين داهية، اشتغل وإتكل على الله يا حفناوي...

- حضرتك يا فندم ست العارفين.. اطبخي يا جارية كلف يا سيدي

- آيوة يعني عايز إيه؟

- خمسة..... مليون... جنيه..... قالها ككلب يلهث

- يانهارك أسود، ٥ مليون ليه يا ضلالي؟!!

- يافندم أنا هرش ألوفات عشان أمشي شغلي، وغير كده ماتبصيش لي رزق، لأني مش ببصلك في رزقك، ودة مش رزق.. دي ثروة، لو ولعلي فيها السنادي.. محتاجة مطافي العتبة عشان تعرف تطفيها، وهتنطفي بعد ١٠ سنين.

- إيه ده.. قل أعوذ برب الفلق.. انت هتحسد؟

- لا يا فندم ربنا يباركلك فيهم. وفي بنتك... اتفقنا؟

- اتفقنا... الفلوس تبقى معايا.. تاخد أتعابك.

- جميل جدا. ربنا مايحرمناش منك يا مدام مرام (أعطاها الحقيبة التي كانت بجواره)... دول أوراق وحاجات مهمة لعمليات د.معتز، خوفها براحتك، وخلي بالك إوعي تتسرب أو حد يشوفها غيرك... حضرتك المفروض تحمدي ربنا ان الداخلية قدرت تقبض على الحرامية اللي كانوا بالصدفة في المستشفى.

- ربنا يمهل ولا يهمل يا حفناوي... هبقى أشوف الأوراق دي بعدين...

رحل حفناوي متمتمًا بكلمات الامتنان، أخذت مرام حقيبة الأوراق وصعدت لغرفتها، فتحت الحقيبة تتصفح بعض الأوراق على عجالة، مرت نصف ساعة فشعرت بالنعاس، بدأ التعب يحايلها، فرضخت له ونامت...

*****

لمدة ١٢ ساعة، جلس طارق في غرفة نومه، منكمشًا على سريره ساندًا ذقنه على ركبتيه، محذرًا أي مخلوق من مجرد الاقتراب من الباب، ساهرًا طوال الوقت، صامتًا، شارد الذهن. الصدمة كبيرة لا يستطيع إدراكها، لا يستطيع أن يلملم نفسه التي أصبحت أشلاءً بعد سماع تفاصيل القصة من بسمة، صدمته تلك المفارقة العجيبة التي كان هو محورها دون أن يقصد أو يدري!!

مكتبة عابث الإلكترونية

يسير الإنسان في طرق متضاربة، طرق شيقة مليئة بالمفاجآت والصدف، مغمض العينين مُسَيَّرًا، منفذًا ومطيعًا لتوجيهات القدر له، ثم يصاب بالصدمة عندما يكتشف دوره الرئيسي في ذلك!!..

كيف كان يجلس أمام زوج حبيبته، يحكي له عن تفاصيل علاقته بها! تذكر أنه منذ يومين كان بينه وبين مُقلة عينيه خطوات!! هل من المفترض أن يشعر بالسعادة لأنه كان على بعد خطوات من مرام، أم لأنها حاولت جاهدة بكل ما أوتيت من قوة أن تنقذه مما هو كان فيه؟

هل هذا دليل على أنها لاتزال تحبه؟ هل تعرف أنه لايزال يحبها؟

انهمر من قلبه حمم كحمم بركان انفجر منذ لحظات، أجهش بالبكاء فجأة، تمنى أن يراها الآن... لكن كيف؟ وماذا سيقول لها؟ ثم ماذا عن الرفاهية التي تعيش فيها الآن؟ هل هي حزينة لموت معتز أم سعيدة؟ كيف كان يعاملها؟ هل تحبه؟ هل كان يحبها؟.. كادت جمجمته تنفجر من كثرة الأسئلة...

*****

بعد مرور أيام من المفاجآت غير السعيدة، بدأت تمتص الصدمات والمصائب التي حلَّت عليها واحدة تلو الأخرى، دخلت الحمام في منتصف الليل، وقفت عارية أمام المرآة تفكر تفكيرًا عميقًا، تتحدث إلى نفسها:

- يا نهار أسود!! يا نهاااار... أسود!! فلوسى اللي شايلاها مع معتز في حساب سويسرا!! ياريتنى كنت أصريت أخدهم منه! كده أنا خسرت فلوسي وفلوس الصفقة الجديدة، بقالي ٧ شهور مفشوخة اتصالات واتفاقات، وأدفع فلوس لبتوع سينا عشان الأفارقة، وفي الآخر الموضوع يبوظ بالبساطة دي؟! ياريته قبل ما يموت كان كتب كل حاجة باسمي زي ما اتفقنا... يابن المجنونة!! حد يكتب كل حاجة لواحدة شحَّاتة!!

طأطأت رأسها، جَزَّتْ على أسنانها غيظًا ودَبَّت بيديها بقوة على الحوض، ثم نظرت للمرآة مرة أخرى:

- ومعتز!! ما كنتش بأحس بالجنس غير معاه، هو الوحيد في العالم ده اللي بيقدر يرضيني، طب هعمل إيه بعد كده؟ يعنى لا فلوس ولا زفت؟!!

دخل عليها محمد، فوجدها هكذا، خلع ملابسه أيضًا ووقف خلفها ملتصقًا بها تمامًا، واضعًا يده على خصرها...

لم تبد فيروز أي رد فعل، ظلت تفكر في كل هذه المصائب، وخلفها السمج يتحدث إليها دون أن تسمعه، حتى انتفضت فجأة عندما قال لها بصوتٍ عال:

- إيه يا فيرووووز... كل ده مش سمعاني؟

مكتبة عابث الإلكترونية

نظرت له في شرود رافعة حاجبيها. قائلة في سرها "إيه اللي صحاك دلوقتي، سيبني في حالي يا أخي هي ناقصاك؟".....

- مالك يا حبيبتي بتبصيلي كده ليه؟ سرحانة في إيه؟

- سوري كنت بفكر في حاجة يا محمد... عاوز إية؟! مش انت المفروض بتصحا بعد ساعتين من دلوقتي؟ إيه اللي صحاك يا محمد!!

- قلقت لقيتك مش جمبي، ونور الحمام مفتوح، دخلتلك لقيتك كده قلت أقلع أنا كمان، بقالنا قد إيه معملناش حاجة في البانيو؟.....

قالها السمج منشكحًا...

- تفتكر يعني ده وقت عمايل؟!!

- طب بلاااش عمايل، تعالي نتكلم في موضوع الخلفة، أنا عاوز ولد يا فيروز عشان..

- يووووووه انت عاوز مني إية؟ سيبني في حالي أنا مش هبوظ جسمي عشان خلفة وزفت، روح شوفلك واحدة من الفلاحين اتجوزها تجيبلك عشر عيال.

قالتها بغضب وانفعال، ثم خرجت من الحمام وتركته، ارتمت على السرير ولازالت عاربة، خرج محمد وراءها مباشرة وكله إصرار أن يبت في هذا الموضوع:

- أني مدركة معنى اللي بتقوليه؟

- عاوز إية مني يا محمد؟ حرام عليك سيبني في حالي

- مممم بقولك إيه انتي كنتي بتاخدي حبوب منع الحمل؟

- آه يا سيدي كنت باخد ومازلت باخد. أحلفلك؟

- لا ماتحلفيش، وريني الشريط اللي بتستخدميه

فوجئت..ارتبكت، قالت له بطريقة ملتوية:

- الـ... الـ... الشريط خلص، وهبعت أجيب واحد جديد...

- يابنت الكداااابة!! شريط إيه اللي يخلص؟ المفروض إن الشريط بيقعد ٣٠ يوم، واحنا في نص الشهر، إزاي بقى يخلص؟!! كنتي بتخدي منه انتي وأمك؟

- لا.. كل الحكاية إنه ضاع مني.. بس انت أربكتني خليتني أكدب....

- مممم ماشي يا فيروز.. مااااشي...

*****

بعد مرور أسبوعين، ظل هكذا جانحًا للوحدة، منعزلًا داخل غرفته، بالكاد يأكل، صار نحيفًا حتى شعر أنه سيموت بغتة في أي وقت، بشحوب وجهه بدا كميت لولا شهيقًا مخيفًا يائسًا وزفيراً ضعيفًا بائسًا

مكتبة عابث الإلكترونية

مجاملة لقلب ينبض بداخله على استحياء، كث اللحية والشعر، رافضًا لمقابلة زملائه في العمل أو أصدقائه، حتى إسلام وحمدي، يمضي طول الوقت منكمشًا، شارد الذهن. يتجمد بصره لساعةٍ كاملة يفكر في أشياءٍ كثيرة متضاربة، يمنع دخول أي شخص عليه، إلا شخصًا واحدًا؛ يوسف... الذي سمع طرقه أسفل الباب قائلًا بصوت عذب "بابا... بابا" فتح له وأجلسه أمامه، ظل ينظر له علَّه يرتاح..

- انت الوحيد يا يوسف اللي أقدر أحكيله ع اللي جوايا، أنا بحبك قوي يا حبيبي، انت أول واحد حسيت باني في خطر قبلها بيوم، ربنا يخليك ليا وأشوفك أحسن واحد في الدنيا، كان نفسي يا يوسف تبقى ابني من مرام، عارف ان عندك نفس الحسنة الخفيفة الجميلة في خدك زى اللي عندها؟.. نفسي أشوفها قوي يا يوسف، أنا بمووووت..... نفسي أعرف عندها نفس الإحساس وللا لأ..

دخلت بسمة لتنهر يوسف لدخوله غرفة طارق، لكنها اطمأنت عندما وجدت طارق ينظر له مبتسمًا. سألته عمَّا يريده في الغداء، فلم يجبها، مشت بأناملها على شعره، قبلته في جبينه بينما كان شاردًا، نظرت إليه في شفقة، أخذت يوسف ثم خرجت في هدوء قبل أن تغلق عليه الباب مرة أخرى.

جلست مع يوسف في غرفته، ظلت تفكر: "ياترى الوضع ده هيفضل لحد إمتى وحينتهي على إيه؟ كان بيفكر فيها؟ شايفني إزاي دلوقت ياطارق؟.. يا ترى انت شايفني أصلاً؟!!

*****

استلقت على السرير، لم يكن لديها رغبة في فعل أي شيء سوى التفكير في أكثر رجل أحبته في حياتها، أخذت رياح الذكريات تداعبها، فسبحت هائمة بين أمواجها التي دفعتها، حتى رست عند شاطئ طارق.. تذكرت غيرته عليها، خوفه من أن تذهب وحدها للمنزل، تذكرت الأغاني التي كانا يسمعانها سويًا، تذكرت فترة الامتحانات فالتفتت حولها حينما تردد صدى صوته في حجرتها:

- الو.. مرام... أجيبلك ورق النقوش المعمارية من المكتبة اللي في الزعفران وللا اللي الناحية التانية؟

- يالهوي يا طارق!! الساعة ١١ بليل.. كنت استنى بكرة الصبح هروح أجيبه أنا.. انت كمان عندك امتحانات يا حبيبي..

- يا حبيبتي ماانا قاعد على قهوة جمب الجامعة براجع أهو، وماينفعش النهارده يعدي من غير ما يكون معاكي ورق المراجعة بتاعك، وخلاص هيطلع من المكتبة الساعة اتناشرونص...

نظرت لأعلى بعينين ممتلئة بالدموع، كان أكثر الناس خوفًا عليها، لم تشعر بعده بأي أمان. سألت نفسها هل لازال يتذكرها ويحبها أم لا؟ تذكرت عندما حضنت ابنه، اغرورقت عيناها وذرفت دموعها فجأة، بعيدة عنه، ماذا تفعل!! رغم كل ما تمتلكه من ثروة كبيرة، لكنها تحتاجه بشدة، تحتاج إلى أن تلقي نفسها في صدره وتخلد هكذا إلى الأبد، تريد أن تسمع صوته، تحتاج لذلك بشدة... فتحت علبة

مكتبة عابث الإلكترونية

مصوغاتها، أخرجت تذكرة مترو أنفاق من عام ٢٠٠٥، مكتوب عليها "لا إله إلا الله"...

*****

"محمد رسول الله" مكتوبة بخطٍ بالكاد يظهر، مرَّ على هذه التذكرة سبع سنوات. نظر لها وابتسم حينما تذكر الذي حدث يومها، كان أول جمعة في شهر أبريل، وبالتحديد ١ أبريل، يوم اليتيم.

- عارف يا طارق إني مش حاسة إني يتيمة؟ حاسة إنك عوضتني عن بابا الله يرحمه...

- ربنا يقدرني يا مرام وأجيبلك كل الدنيا دي، الدنيا دي كلها ماتسواش حاجة من غيرك يا حبيبتي...

بكى بشدة، عندما تذكر تلك الأيام الخوالي، عندما كان يتحدث معها بالساعات، سارحًا في عينيها، تضع يدها على خده، فينسى تعب اليوم كله. نهض بجسده الذي صار نحيلًا، وقف أمام المرآة ينظر إلى لحيته قبل أن تلفت انتباهه شعرة بيضاء.. كان يتمنى من قبل أن تكون مرام أول شخص يرى هذه الشعرة، إلى متى سيظل عمره في التآكل هكذا... في حضرة فراقها؟.

شعر حينها برغبة مُلحة جامحة إلى سماع صوتها، التفت يمينه ويساره في لهفة باحثًا عن هاتفه، ليسمع مكالمة مسجلة بينهما، تترجاه فيها أن

يقلع عن التدخين، لأنها لا تريد أن يُدمن أي شيء سواها، وتطرقا في هذه المكالمة إلى اسم أول مولود لهما، قالت له إنها تحب اسم يوسف... سمع المكالمة فاحترق قلبه، أخذ يقلب في صورها التي التقطها لها عند الجامعة. اختفت الصورة فجأة من شاشة الهاتف، حلت محلها مكالمة واردة، لكن المتصل ليس اسمًا مسجلًا، أو رقمًا.. private number!!

*****

- لو سمحت أنا عاوز أعمل تحليل سائل منوي.

- حضرتك متزوج؟

- آه متزوج.

- حضرتك مارست الجنس في أقل من ٧٢ ساعة؟

- لا ماتقلقش أنا آخر مرة عملت كده كان من أكتر من ٧٢ يوم.

بسخرية يشوبها أسى، قالها المهندس محمد، الذي ذهب إلى معمل تحاليل، ومعه تحويل من طبيب ذكورة وعقم لإجراء تحليل سائل منوي، للاطمئنان على قدرته الإنجابية، هل ما زالت كما هي أم تأثرت بعد أول حمل لفيروز...

مكتبة عابث الإلكترونية

- اتفضل العلبة دي، هات لنا فيها عينة سائل منوي، ويفضل تكون أكتر من ٢ ملم...

- شكرًا جزيلًا. والنتيجة بتبقى إمتى؟

- النتيجة حتظهر كمان ٣ أيام أو أقل يا فندم...

*****

نظر إلى شاشة هاتفه في دهشة. private number؟!!

- آلو.

قالها قبل أن يخترق أذنيه صوتًا ملائكيًا سرت نبرته إلى جسده بالكامل، رغم الحزن الذي يحتويه هذا الصوت...

- آخر مرة سمعت فيها صوتك في الموبايل كان يوم سبت...

- آلو..... من معايا؟..... قالها كاتمًا أنفاسه

- قولتلي ساعتها إننا خلاص بقى بينا وبين حلمنا خطوة واحدة، وهنعيش بعدها للأبد مع بعض. وإن نفسك تشوفني، وتمسك إيدي.

اضطربت حواسه فجأة، اتسعت حدقتاه، تجمد الدم في عروقه، توقف قلبه عن النبض، سمع صفيرًا عاليًا داخل أذنيه.. ثم عاد قلبه

يدق من جديد لكن بقوة غريبة.. كاد أن يخرج من بين ضلوعه.. رد بفؤاد محترق... وصوت منكسر:

- مـ.. مـ. مين معا...معايا

- وعدى على المكالمة دي أكتر من أربع سنين.... ومامسكتش إيدي، ومشوفتنيش... والخطوة بقت أميال، أربع سنين يا طارق و..

تخدر جسده بالكامل، شعر بالعرق يقطر عليه، شعر أنه كان ميتا إكلينيكيًا، وأعطاه أحدهم صدمة كهربائية ٨٠٠٠ فولت، فدبت فيه الروح من جديد... قاطعها معقبًا بصوت مبحوح، وقلب واجف:

- ... وست شهور، وأسبوعين، وتلات أيام..... وتسع ساعات..... (تنهد بعمق وهو يرمق ساعة الحائط قبل أن يردف) ..... وعشر دقايق...

أجفلت... سرحت بعيدًا، أشرقت على محياها ابتسامة هادئة.. كل حرف خرج من بين شفتيه كان ينزل عليها ليخدرها ويتسلل في جسدها. نست في ثوانٍ كل هموم الدنيا، الوقت الذي أخذه في سرد المدة التي لم يرها فيها، هو نفس الوقت الذي مر فيه شريط حياتهما كله أمام ناظريها. أدركت كيف يشعر الآن، وكيف كان يشعر من قبل، أدركت أنها ليست وحدها التي كانت تعاني من ألم الفراق، سرت قشعريرة في جسدها، عندما سمعت نبرته الرخيمة التي طالما افتقدتها، صمتت هنيهة بينما يبكي، ثم أردفت بصوتٍ منكسر:

مكتبة عابث الإلكترونية

- ليه يا طارق؟ شوفت أنا فين دلوقتي وانت بقيت فين؟

لم يستطع أن يجيبها أو يعقب عليها، بكى بحرقة وألم، شعر بخناجر تخترق قلبه فتمزقه بلا رحمة، تفتك به بلا هوادة... استطردت قائلة:

- أنا تعبانة... أنا ميتة يا طارق.. أنا..

قاطعها بصوتٍ مختنق...

- بعد الشر عنك يا مرام.. ياللي قلبي بينبض بيكي وليكي، بعد الشر عنك ياللي السما بتغيب بغيابك، بعد الشر عنك يا روحي يا عمري يا كل تكويني، وحشتيني قوي يا مرام، آآآآآه... أنا اللي ماكنتش عايش يا حبيبتي، اتهدلت من غيرك قوي يا مرام. مهما وصفتلك...

لم يستطع أن يكمل كلامه، فبكى، وبكت.... لنصف دقيقة، أردف بعدها وهو يبكي:

- مهما وصفتلك يا مرام مش هتصدقي، أنا كنت عايش من غير روح، بأتمنى الموت على إني أعيش يوم من غيرك...

- أنا وانت كنا مخدوعين يا طارق.. أنا كنت فاكراك عملت كده عشان...

- سيبك من أي كلام عن اللي فات... أنا هشوفك دلوقتي. مش قادر أستحمل.. لازم اشوفك

- أنا اللي هموت لو مشوفتكش دلوقتي يا طارق.

- أهو.. أهو.. أهو أنا هنزل دلوقتي حالًا...

- هقابلك فين؟

- عارفة؟... وإنتي بتتصلي كنت ببص على صورتك اللي صورتهالك في..

قاطعتة مبتسمة، لكنها لازالت تبكي

- الجزيرة...

- صح يا حبيبتي، هقابلك هناك بعد ساعة... لأ.. لأ.. نص ساعة، بصي أنا هكون هناك كمان ربع ساعة.

- هكون هناك قبلك يا حبيبي.

أغلق الخط وقلبه يخفق من الفرحة، وضع يده عليه ليراقب ضرباته القوية، شعر باضطراب وتوتر، تلاحقت أنفاسه لهنيهة... ثم انتفض من مكانه، فتح دولابه والتقط عشوائيا ما يلبسه، تحسس بيده تحت السرير، سحب حذاءً ارتداه وفتح الباب. من غرفة يوسف سمعت بسمة صوت الباب، فهرعت إليه.. تعجبت عندما رأته:

- رايح فين يا طارق؟ إيه ده؟ انت لابس التيشيرت بالمقلوب!

- خلع التيشيرت وارتداه معدولًا، وأجابها في عجلة:

مكتبة عابث الإلكترونية

- إسلام.. إسـ. إسلام والدته تعبانة جدًا ولازم تروح المستشفى، أنا هروحله عشان محتاجني جمبه، هكلمك لو في أي جديد، مع السلامة.

- مممم ماتكلش برة أنا عملالك أكلة بتحبها...

- حاضر...

بالرغم من أنها فرحت لأنه - على الأقل - تكلم وسمعت صوته بعد أكثر من أسبوع لم تسمع فيه صوته، لكنها شعرت بنغزة في قلبها...

*****

- آلو..

- آلو.. مين معايا؟

- نعم يا روح أمك؟ انت مسحت رقمي وللا بتستهبل يا حفناوي؟

- إيه يا مدام فيروز؟ أأمريني سعادتك.....

قالها بضيق وتأفف، فردت عليه بصوت عال:

- يعني إية عاوزة اية؟ انت هتستعبط؟

- أولًا أنا اسمي أستاااااذ حفناوي، أكبر محامي فيكي يا بلد، ثانيًا اتكلمي معايا بأدب عشان مااغلطش فيكي وف أهلك.

حاولت أن تمتص غضبها وتكبح جماحه جازّة على أسنانها، فلن يجدي مع غطرسة حفناوي.

- أسفة يا أستاذ.. أستاااذ. حفناوي.

- أأمريني سعادتك

- إية يا راجل إنت! بتتكلم كده ليه؟ هي مراتك جمبك؟

- لا يا مدام أنا في مكتبي ومحدش معايا أساسًا...

- أومال مالك بتكلمني برسميات كده ليه؟! ده من أسبوعين بس كان في بيننا اتفاق وصفقات، وفلوس...

قاطعها بسخرية

- اتفاق مع الجماعة السماسرة؟ اتحبسوا.... اتفاق مع معتز؟ غار في ستين داهية اتقتل.. اتفاق معاكي؟ انتي دلوقتي يا مدام أحسنلك ماتظهريش في الصورة خالص وفي الموضوع ده بالأخص، دى نصيحة مني ليكي لوجه الله. واحمدي ربنا إن اسمك مجاش في الموضوع.. بوسي إيدك وش ضهر...

- طب وحقي يا حفناوي؟

- حقك إيه يا مرة؟ هي الصفقة تمت أساسًا؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- حقى في فلوس بنت الكلب اللي معتزكتب كل حاجة باسمها في بنوك سويسرا واستخسر يكتبها باسمي..

- هو ماستخسرش.. هو كان لازم يكتبها باسم أي حد اهبل مالهوش في الليلة، لكن انتي تخوفي بلد، ومعتز كان قلقان لحسن تبيعيه في أي وقت.

- طيب اية الموضوع دلوقت؟ لازم تشوف حل عشان تخلي الهبلة دي تصرف الفلوس ونقسمها علينا.

- للأسف يا مدام ماينفعش، الهبلة دي أنا دلوقتي بقيت كلها الخاص، ومصلحتي معاها دلوقتي أكتر من أي حد تاني.

- حتى أنا يا حفناوي؟

- ده انتي أولهم... انتي اسمك أساسًا لو ظهر في الصورة أو حد حاول ينكش وراكي ممكن تاخدي فيها ٢٥ سنة.

- فكر كويس يا حفناوي، مرام هتمضيها إمضتين صغيرين، نسحب الفلوس، وهديلك تعبك، وفوقيه بوسه.. مش بوسة بس... هديلك أي حاجة انت عاوزها.

- للاسف يا مدام فيروز، أنا عندي ضعف جنسي، وكتفك الأبيض الناعم وجسمك اللي بيشع يورانيوم أنثوي مش هيخلوني أعقد صفقة أحسن من صفقة مدام مرام، على الأقل هتعامل بشكل قانوني، هي المالكة القانونية للخير اللي في سويسرا، سلام يا... يامنجم اليورانيوم...

استشاطت غيظًا عقب إغلاقه الخط، لم تجد أمامها سوى المربية لتنفجر في وجهها، سبتها وألقت كوب العصير في وجهها وبصقت عليها، بالتزامن مع دخول محمد الذي خلع ملابسه في تؤدة، ناظرًا لها نظرة ليس لها معنى محدد، ثم جلس ليشاهد التلفاز في شرود، دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

*****

ميدان عبد المنعم رياض، المزدحم كالعادة.. ينظر في ساعته كل بضع ثوانٍ، يود أن ينزل من التاكسي ليحمله ويمر به من بين السيارات، لا يطيق الانتظار أكثر من ذلك...

لم تجد مرام مكانا لتركن فيه سيارتها - أو هكذا خُيل إليها - وبعد بحث عن مكان لخمس دقائق، وجدت مكانًا مناسبًا بجوار الأوبرا على بعد ٣٠٠ متر من حديقة الجزيرة.. ركنت سيارتها بشكل عشوائي وهرولت للحديقة.

مكتبة عابث الإلكترونية

نزل طارق من التاكسي في تعجل، هرع إلى الحديقة، شعر كأنه يمشي على الهواء، كل ما يفكر فيه كيف سيكون هذا اللقاء؟ يتذكر أول يوم رآها فيه، عندما هرع إليها ليتحدث معها...

دخلت مرام الحديقة، شعرت بقلبها يخفق بقوة، تبعثرت وتبعثر أمامها، لا تستطع استجماع نفسها، آخر مرة كانت هنا منذ سنوات، وقفت في نفس المكان الذي طالما احتضنهما، تنظر له وتنتظر طارق في شوق ولهفة، بالتزامن مع اقتراب طارق منها، كانت تشعر بعودة روحها تدريجيًا بداخلها من جديد.

وصل طارق بعدها بدقيقة، نظر إلى السماء، فوجدها بلا شمس، فالشمس بهاءها على الأرض الآن، أما السماء فلونها أحمر تارة، وأزرق تارة أخرى، شعر بهبوط حاد في الدورة الدموية، تخدر جسده النحيل الهزيل، ولم يعد يستطع أن يحمله، وقع بصره - لا إراديًا - على نفس المكان التي تقف فيه مرام، رآها من ظهرها وهي تنظر للنيل، نفس المنظر التي كانت تحب دومًا النظر له وهي معه، شعر بطنين في أذنه، ارتخاء في أعصابه، دقات قلبه كطبول حرب طروادة، ضرباته كانت قوية جدًا، حتى كاد يشق صدره، خطا نحوها بخطواتٍ مُتهدلة، بطيئة... ثقيلة، كرجل تسعيني.

شعرت مرام به، بأنفاسٍ لم تغادر صدرها يومًا، بقلبٍ طالما سكنته، سمعت دقاته جيدًا.. شعرت باقتراب روحها لتسكنها من جديد وتدب

فيها الحياة، كانهمار جدول ماء في صحراء قاحلة تشققت تربتها منذ العصر الطباشيري.

وقف وراءها لثوانٍ، لاستنشاق رائحة لم تخطئها أنفه قط، محاولًا استجماع قواه كي يحتمل رؤية كوكبه الدري والضوء الذي سينبعث منه.... الآن.

استدارت، وجدته واقفًا خلفها، خاشعًا... خاضعًا... شاردًا، حينها اتسعت عيناه، لفحته نسمة هواء باردة تخللت مسام صفحته، شعر بالخواء وكل شيء حوله قد اختفى إلا هي، حبست أنفاسه حينما رآها.... جميلة مثل أول مرة وقعت عيناه عليها، نفس العيون الواسعة والرموش الطويلة المتكحلة، نفس تفاصيل الوجه التي لم تغادر مخيلته لحظة، وقفا متسمّران، ينظرا لبعضهما البعض، اغرورقت عيونهما.. لدقيقتين كاملتين.. شرود، دموع، حنين... واشتياق.

*****

بينما تضع الأطباق على الرف، سقط منها واحد على الأرض وتهشم، انحنت بسمة لتلملمه، ولم تزل شاردة... هل طارق سيقابل مرام في يوم من الأيام أم لا؟ بالتأكيد يتمنى، لكن هل سيسعى لذلك أم لا؟ ماذا تخبيء الأقدار؟ هل حبها لشخصٍ تحتل قلبه امرأة أخرى كان خطأ منذ البداية؟ هل مجازفتها بالزواج من شخص لم يشف حينها من جرح غائر نتيجة علاقة منتهية للتو يعتبر إخفاقًا، لأنها لم تستطع

مكتبة عابث الإلكترونية

أن تنسيه إياها؟ هل كان يجب عليها أن تتحكم في قلبها وترفض ذلك الحب وتلفظه؟

قطع شرودها صفير الفرن، كانت قد ضبطته على ٤٥ دقيقة. أدركت أنها ظلت منحنية على الأرض تلملم قطع الطبق المنثورة لـ ١٠ دقائق كاملة دون أن تشعر.

*****

عناق نظرات لمدة دقيقة كاملة، اقتربت بعدها مرام من طارق، الذي فتح ذراعيه، ألقت نفسها بداخله، كطفلة ترتمي داخل حضن والدها لتشعر بالأمان، كقطة تختبئ داخل حضن أمها خشية العالم الخارجي، كشمس مكسوة باللون الأحمر الكاردينالي حين تغرب، وتشارف كبد السماء، ويبتلعها ساحل الضفة الأخرى. دخلت حضنه، ذابت بداخله كشمعة مضيئة في ظلام كاحل، احتل ليلة قاتمة، مثل كل الليالي التي عاشتها بدونه، وعاشها بدونها...

لم يستطع كلٍ منهما التحدث بكلمة. فقط بكيا، بكيا متذكرين كل شيء مر بينهما، بكيا نادمين على سنوات الضياع التي عاشاها بعيدين عن بعضهما البعض.... بكيا...

.... فقط بكيا...

*****

بعد عودة الروح إلى الجسد مجددًا، وبعد عناقٍ بحميمية عنيفة، أرجم من خلاله كل شيء ليس له لغة يمكن التعبير بها عن وصفه، عناق اختصر كلامًا كثيرًا من الصعب أن يقال، أدركا جيدًا قيمة الأشياء التي تمثل العالم بالنسبة لهما.. جلسا ينظران لبعضهما البعض في دقائق، مساحة مشروعة من الوقت لإدراك ماهم فيه الآن. أصبح بوسعهما التنفس مجددًا بعد سنوات من الموت الإكلينيكي.

أحيانا يكون للصمت صوتًا واضحًا... وممتعًا...

انساب الصمت بينهما للحظات قبل أن تبادر مرام:

- وحشتك.

قاطعها طارق واضعًا أنامله على شفتيها، ولازال يتأمل صفحة وجهها:

- أنا لسة تحت تأثير الصدمة، إمبارح كنت بتمنى بس أشوفك من بعيد لمدة دقيقة، خايف تجيلي أزمة قلبية من كلامك ده...

شهقت وقاطعته بنفس الطريقة..

- بعد الشر عليك يا حبيبي... عارف إنك إحلويت أكتر من زمان؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- كان نفسي تعيشي معايا انتقالي من مرحلة الشباب لمرحلة الرجولة، قبل ما تكلميني شفت أول شعرة بيضا في راسي، كتير أوي اتمنيت إنك تكوني جمبي ساعتها وتكتشفيها...

- فين الشعرة دى يا حبيبي؟

- هتلاقيها...

- استنى ماتقولش مكانها.. أنا هعرف...

مسحت شعره بعينها، لم تحتج أكثر من ثانيتين كي تكتشفها، أشارت إليها بسبابتها وهي سعيدة كطفلة، بينما نظر لها مبتسمًا شاردًا في تفاصيل وجهها، الذي لم يغب عن مخيلته قط..

- عارف إن الدقن الطويلة حلوة قوي فيك؟

- ماحلقتهاش من ساعة اللي حصل، كنت بموت يا مرام..

نكس رأسه وصمت هنيهة، ثم نظر لها مرة أخرى قبل أن يطلق زفرة طويلة ويستطرد بنبرة مليئة بالأسى..

- لما قابلت علا وحكتلي على اللي حصل كنت بموت وأنا بسمعها، مش عارف إزاي كل ده تم بالسرعة دي!! سألت عليكي كل اللي أعرفه وروحت بيت والدتك ملقيتش حد و...

- ممكن مانتكلمش في أي حاجة حصلت؟ مش عاوزة افتكر أي لحظة في الفترة دي...

نكست رأسها لثوان، حبست أنفاس ودموع أعوام بائسة، جثم عليها جرح غائر يترف بلا هوادة في أعماقها، انفجرت دموعها بغتة، ثم نظرت إليه مجددًا:

- كان بيعاملني زي أقل كلبة، حاجات كتير اتكسرت جوايا يا طارق... كنت عاملة زي شجرة واقفة لوحدها وسط صحرا، وكل دقيقة تيجي رياح قوية تحاول تقلعها من مكانها.. متخيل الإحساس؟

- آه طبعا متخيل جداً، ياريتني كنت أعرف ساعتها بكل ده، ياريتني كنت أعرف إن اللي كان بيعمل فيكي كده هو الكلب اللي قعدت قدامه أكثر من ساعتين بكلمه بطريقة حلوة، لو كنت أعرف كنت محيته من الدنيا كلها... خلينا في اللي جاي.. أنا خلاص مش محتاج حاجة تاني من الدنيا، طالما بقيت معاكي من جديد...

- عمري ما نسيتك يا طارق.

- كنتي قدام عيني طول الوقت يا مرام...

نظرت إلى ساعتها...

- أنا لازم امشي يا حبيبي، سيبت بنتي كتير قوي ولازم أرجع أطمن عليها.

مكتبة عابث الإلكترونية

- انتي متسيبيني؟ ماتسبنيش يا مرام هموت... قالها متوسلًا كطفل متشبث بطرف ثوب أمه.

- هقابلك بكرة يا حبيب قلب مرام، على فكرة ابنك عسول قوي، شبهك جدًا يا طارق...

- أنا متخيل شكل بنتك، أكيد زي القمر زيك...

صمتا لنصف دقيقة، استطرد طارق...

- في كلام كتير هنتكلم فيه لما اقابلك بكرة. يللا يا حبيبتي عشان ماتتأخرش...

سار معها حتى سيارتها... قالت له:

- يللا يا حبيبي عشان أوصلك...

- لا يا روح قلبي، أنا هتمشى شوية مع نفسي كده، محتاج ألملم أفكاري وأقعد مع نفسي... أهم حاجة انتي خلي بالك من نفسك، ولو احتاجتي مني أي حاجة اتصلي بيا هكون قدامك بعد دقيقة...

- ربنا مايحرمنيش منك يا حبيبي... هستنى اتصالك تقول لي هنتقابل فين والساعة كام...

مضت... تاركة له نظرة يعيش عليها لليوم التالي وأخذت مقابلها قلبه وعقله عنوة دون استئذان... وقف يراقبها إلى أن غابت عن نظره. سار

من الأوبرا إلى ميدان رمسيس، حزم أمتعة حزنه وألقى بها من فوق أوبري قصر النيل حينما وقف فيه لدقائق يفكر في مرام، ذهب بعدها إلى وسط البلد ليشتري بدلة جديدة قبل أن يحلق ذقنه وشعره، عندما وصل إلى رمسيس شعر بالتعب، فاستقل تاكسي للمنزل، عاد أدراجه منتشيًا بحبيبته التي قابلها بعد فراق، فعاد قلبه ينبض داخل صدره من جديد...

عادت مرام للمنزل، وجدت فيروز، فاستغربت من وجودها، قابلتها بجفاء وابتسامة مصطنعة، لكن فيروز لم تهتم بجفائها، وقابلتها بعناقٍ حار مصطنع أيضًا، قائلة لها:

- بقالي أسبوعين عاوزة اتصل بيكي مش عارفة...

- الله... حلو قوي البرفيوم ده يا "فيرو"....

بدا على وجهها الارتباك واضحا، الوحيد الذي كان يناديها "فيرو" كان معتز، ارتبكت أكثر عندما أردفت مرام بتهكم وسخرية:

- مالك يا فيرو؟!! آه سوري نسيت إنك بقالك ييجي أسبوعين مااتدلعتيش...

- طب بصي بقى يا مرام، هجيبلك م الآخر، انتي شكلك عارفة حاجات كتير، مش موضوعنا دلوقت، الأيام جاية كتير هنلقح فيها على بعض لحد ما نزهق، أنا دلوقت جيالك في موضوع تاني خالص... أنا ليا

مكتبة عابث الإلكترونية

عندك أمانة يا حبيبتي، إديهاني ويادار ما دخلك شر، أحسن ما نعادي بعض...

جلست مرام واضعة قدميها على منضدة أمامها في وجه فيروز، قالت بنبرة حادة:

- ياااه!! جيالي في الوقت ده، وبدون ميعاد سابق عشان الأمانة؟ طب بصي انتي بقى يا فيروز، لو انتي فاكرة إني البنت الصغيرة بتاعة زمان اللي بتخاف من الصوت العالي والتهديد تبقي غلطانة، والأمانة اللي بتتكلمي عنها مش هتشوفيها حتى لو وقفتي على دماغك..... آه حاجة تانية؛ موضوعك انتي ومعتز أنا بالعاه بمزاجي، بس مش معنى كده إني عديته... لالالا مش هيعدي، بس المسألة مسألة وقت، انتي دورك لسة ماجاش...

شعرت فيروز أن الأرض تلف بها، نكست رأسها لثوان محاولة عبثًا إخفاء ارتباكها، ردت عليها بشفاه مرتعشة:

- مرام يا حبيبتي، اللي كان بيني وبين معتز حصل غصب عني، هو اللي أغراني...

- أغراكي إية يا وسخة؟ انتي مش خايفة لحسن أقول لمحمد؟

أهون على فيروز أن تتلقى لطمة على وجهها من مرام من أن تسمع ذلك الكلام، ردت بصوت مبحوح:

- هـ.. هو... هو إنتي... انتي ممكن تقولي لمحمد؟ مراااام أنا عارفة إنك عاقلة ومش هتعملي كده، معتز مات خلاص، وإنتي كنتي بتكرهيه أساسًا، تعالي نبدأ صفحة جديدة مع بعض، أنا عمري ما كنت وحشة معاكي، الخير اللي باسمك في بنك كريدي سويس في زيوريخ ليا فيه ١٨ مليون، ده شقا عمري وحقي يا مرام وإنتي أكتر واحد دقتي الظلم وماترضيش إنك تاكلي على حد حقه...

- الله عليكي!! مومس بتتكلم عن الفضيلة!! ماشاء الله عليكي بجد...

بالكاد ابتلعت فيروز كلمة "مومس"، لكنها خُشرت في حلقها، وكانت بحاجة إلى جرعة سائل لم تبخل بها مرام، فأردفت:

- مش أخويا محمد وسخ وكلب فلوس؟ بس عمره ما هيكون أوسخ منك يا قذرة... أعضاء بشرية يا وسخة؟!!!

- إحنا بناخد أعضاء من جسم واحد ميت، بنحطها لجسم واحد محتاج العضو ده، بالعكس إحنا كده بنعمل خير.

- وأهل الميت ده بيبقوا عارفين؟ وياترى ميت جسديًا وللا معنويًا!! في الحقيقة الميت هو ضميرك، ضميرك انتي والكلاب اللي بتستغلوا حاجة الفقرا، وبتسرقوا أعضاءهم، بدال ما تعالجوهم ببلاش أو تساعدوهم.. بتشطبوا على الحاجة الوحيدة اللي لها قيمة في حياتهم، الحياااة!!! بس مافيش فايدة، للأسف ضميرك انتي واللي زيك مالوش علاج..... أنا قعدت أقلّب ع النت لقيت بلاوي.. مصر بسبب اللى زيكوا بقت

مكتبة عابث الإلكترونية

التالت على مستوى العالم فى تجارة الأعضاء البشرية يا ولاد الكلب، عرفتي تتعاملي في السكة دي إزاي؟!! ماشاء الله ولا كان ياااااابن عليكي، كلميني شوية عن الفقير اللي بتدوه ملاليم مقابل عضو من جسمه... أو اللي بيفوق من عملية يلاقي نفسه بدون كلية أو رئة... أو الدم اللي بتجمعوه من التبرعات وبتبيعوه بالشيء الفلاني، كلميني عن الأفارقة اللي بتخلصوا على حياتهم، كلميني عن...

- أوعدك يا مرام إن...

قاطعتها بصوتٍ عال، قاطبة جبينها، مشيرة بسبابتها ناحية الباب:

- إطلعي برة .. إطلعي برة يا أحقر حد على الأرض.. منك لله...

جزت على أسنانها حتى كادت أن تكسرها قبل أن تخرج دون أن تتفوه بكلمة، تجر وراءها أذيال الإهانة وبقايا كرامة مبعثرة..

رنَّ هاتف مرام عند خروج فيروز... هذه المكالمة هيَ أكثر شيء تحتاجه مرام الآن...

- أيوة يا حبيبي...

- إيه يا روح قلبي وصلتي؟

- آه.. أنا وصلت من نص ساعة تقريبًا... انت فين دلوقت؟

- أنا هدخل البيت أهو بس كنت محتاج آخد جرعة منك ومن صوتك قبل ما أدخل...

- ربنا يخليك ليا يا طارق ويخليني ليك يا حبيبي، أنا بحبك قوي يا طارق... قالتها بضعف بعد تنهيدة بعمق...

- عمري ما هسيبك تاني يا مرام، استني مني تليفون بكرة.

حذف المكالمة من سجل المكالمات الواردة والمستلمة، دخل منزله بلا قلب أوعقل حاملًا بدلته، قميصين، بضعة رابطات عنق، حليق الشعر والذقن، بوجه أحمر بعد شحوب وجرت في عروقه الدماء لتدب فيه الحياة من جديد حتى بدا كنجم سينمائي، مسحته بسمة بعينيها في تعجب، شعرت بفرحة يشوبها قلق وريبة، سألته بمكر:

- مامة إسلام عاملة إيه دلوقت؟

- عاملة إيه إزاي؟ وأنا إيش عرفني؟!! (استدرك بسرعة قاطبًا جبينه، ثم أجابها بغبطة).. آه آآآه كويسة حجزناها في المستشفي...

- وهو اللي يروح المستشفي مع صاحبه عشان والدته بتموت يرجع حالق دقنه وشعره ومظبط نفسه وحالته المعنوية عالية قوي كده؟!!

- لما كنت في المستشفى بصيت في المراية اتخضيت من شكلي، قلت أظبط نفسي وأنا راجع واشتري شوية لبس بالمرة، مالك يا بسمة؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- مممممممم.....

لا تزال تتفحصه بعينٍ ناقدة.. أمسك برسغها وجذبها إليه وحضنها، شعرت بسمة بحضنٍ أجوف، خال من المشاعر، أخبرته في حنان أو هكذا تظاهرت- أنها افتقدته كثيرًا في الفترة الماضية. فأخبرها أنه سيعوضها عن كل لحظة مضت، سألها عن يوسف فأخبرته أنه نام منذ قليل، طلبها بعينٍ متظاهرة بالاشتياق، أومأت بالموافقة..... بعينٍ متظاهرة بالرغبة.

وافقت... ليس كُلّ مرة، لكن لأنه فقط طلب منها ذلك، وافقت لعلّها تقتل ما تبقى بداخلها من كرامة زوجة قبلت على نفسها العيش مع شخص تسكنه امرأة أخرى، كرامة زوجة أحبت قلبًا تزاحمها وتشاركها فيه امرأة أخرى...!!

اعتلاها بجسده فقط دون مشاعر، مغمضًا عينيه ليضاجع مرام بقلبه، ولاتزال رائحة أنفاسها عالقة في ثنايا صدره لم تغادر، بينما تنظر بسمة يمينها صوب صورة زفافهما المعلقة على الحائط، "من هذا الرجل الذي بجانبي في الصورة؟!! من هذا الغريب الذي يعتليني الآن مفرغًا شهوة زائفة كاذبة؟!!...

حبست بعينيها دموعًا ألحت عليها إلحاحًا، تريد أن تنفجر لتخرج، بالكاد استطاعت كبح جماحها بعد أن ضغطت على أعصابها طيلة أربع دقائق، شعرت فيها بالغرفة تلف بها، حتى انتهى، ثم قبّلها على

جبينها.. نام على جانبه الأيسر موليًا ظهره لها، ولا زالت شاردة لا تطيق سماع أنفاسه المتسارعة التي خفتت في غضون دقيقتين قبل أن يستغرق في النوم....

*****

استيقظت مرام في الصباح الباكر، نظرت في المرآة، لاحظت أنها بحاجة للذهاب إلى مركز التجميل للاهتمام بنفسها من جديد واستعادة نضارة وجهها وبشرتها الخمرية التي يَبست وامتقعت، نظرت لعينها التي طالما أخبرها طارق أنه يعشقها، تذكرته فسرحت فيه وفي كلامه، فارق كبير بينه الآن وبين أيام الجامعة، بين انطلاقته كشاب وسيم ورزانته كرجل أنيق، لكنه في كل الحالات مميز، ومثلما كانت تحب انطلاق شبابه فهى الآن تعشق رزانة وهدوء رجولته. تذكرت كلامه معها أمس، فابتسمت لتكشف عن نغزتها الساحرتين...

دلفت إلى غرفة ابنتها، فتحت النوافذ فتسلل نسيمٌ عليل داعب صفحتها، أيقظت ندى والمربية، اصطحبتهم إلى ماكدونالدز، لم تسمح للمربية أن تجلس في منضدة مجاورة، جعلتها تجلس معها في نفس المنضدة. تناولن الإفطار، ثم توجهت مباشرة إلى مركز التجميل...

خرج طارق من الحمام، لم يعد يستخدم الدش البارد كما كان يفعل، بينما بسمة تحضر الإفطار، حالته المعنوية أضحت في أوج ارتفاعها، شعر أنه يريد أن يفتح ذراعيه ليحضن كل العالم. ارتدى بدلته

مكتبة عابث الإلكترونية

الجديدة التي أشتراها بالأمس، وضع أزراره الذهبية. تناول الفطور مع بسمة، واحتسى قهوته ناظرًا لها فوجدها حزينة، شاردة الذهن، ابتسامتها منكسرة. لم يستطع أن يذهب إلى عمله وهو يراها هكذا، عدَّل من وضعية جلوسه، ليصبح مواجهًا لها مباشرة.. وضع يده على ركبتها، نظر لها في حنو قائلًا بهدوء مُتقن:

- متخيل انتي بتفكري في إيه دلوقت... مش عارف إيه سبب ده، بس أنا عاذرك، كان بيني وبينها خطوات، والمفروض إني أجري عليها، لكن بعد اللبهة اللي شفتها في عنيكي لما كنت في المستشفي، استحالة أقدر أبص لأي حد غيرك.

نظرت له مُحاولة تصديقه، ابتسمت له كطفلة خجولة، لفَّ خصلتها وراء أذنها، وضع قبلة في راحة يدها برفق، كالذى يزرع بذرة لزهرة اللافندر في حقله، أردف:

- لازم تعرفي يا بسمة إن الدنيا بالنسبة ليا هي انتي ويوسف، ربنا يخليكو ليا ويخليني ليكو... بسمة، أنا بحبك...

ارتمت في حضنه، بعد أن دهمها سيل من الدموع، حضنها برفق حتى هدأت، قالت له:

- مش قادرة اتحمل أشوفك لحد غيري يا طارق، انت أول وآخر حد حبيته.. مُدرك؟

- مُدرك طبعا يا حبيبتي، بس أرجوكي تأكدي إنك دلوقتي في حياتي حاجة كبيرة جدًا، أكبر من الأول على فكرة... أنا همشي عشان ماتأخرش على الباص، مش عاوز أشوف الحزن ده تاني..

- حاضر يا حبيبي....

قالتها بفرحة لم يسعها صدرها، ونزل سريعًا ليلحق بسيارة العمل. استقبله زملاؤه بحفاوة.. كانوا قلقين عليه لاسيما بعدما قرأوا عن الحادث في الصحف، لم يخل مكتبه ولم يكف هاتفه لمدة ثلاث ساعات، حتى انتهى أخيرًا، وشرع يغلق باب مكتبه، فوجد من يدفعه ووقف أمامه مبتسمًا:

- أستاااااااذ حمدي... أرجوك ماتزعلش منى عشان مقابلتكش لما جيتلى، أنا كنت همو..

- ماتتكلمش خالص أنا مقدر حالتك يا حبيبي، انت أخبارك إيه دلوقت؟

- تعالى ادخل ده في حاجات كتير جداً عاوز أحكيلك عليها، بس استنى أما أعمل تليفون....

- ألو.. حبيبة قلبي ونور عينيا، حبيبتي عاملة ايه؟..... ربنا يخليكي ليا يااااارب هاا هشوفك إمتى؟..... يا حبيبتي أنا ممكن أمشي في أي

مكتبة عابث الإلكترونية

وقت مش مفيد بمواعيد..... أوكي يا روح قلبي هتوحشيني لحد الساعة ستة... باي...

أغلق مع مرام، ثم أخذ يقص لأستاذ حمدي ما حدث له بالتفصيل...

*****

أتت رياح مقتل معتز بما لا تشتهيه سفن محمد، إذ رأى رئيس مجلس إدارة الشركة أنه لا يوجد مبرر الآن لوجوده وشغله منصب المستشار الهندسي، خصوصًا أنه لا يمتلك أي مقومات تجعله يظل قابعًا في هذا المنصب، ويتقاضى الآلاف شهريًا، فالسبب الوحيد لوجوده كان معتز. والآن قد انتفى ذلك السبب...

دخل محمد الشركة كعادته بعد الظهيرة، وسط نظرات الموظفين الشامتة، فجميعهم يرون أنه لا يفعل شيئًا مفيدًا للشركة، مُندهشين من المبلغ الكبير الذي يتقاضاه شهريًا. لم يدرك نظراتهم، واجتازهم قاصدًا مكتبه، فوجد ورقة الاستقالة موضوعة أمام حاسوبه.. ابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يدلف إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة..

- إيه ده يا فندم؟!!

- ده جواب الاستقالة يا بشمهندس أعتقد واضح...!!

- بس أنا مش عاوز استقيل.

- بس إحنا عاوزين!!

- المفروض حضرتك في عقد مفتوح بيننا

- لا يا بشمهندس... العقد كان بيني وبين معتز الله يرحمه، ودلوقتي أعتقد مافيش أي مبرر لوجودك، ثم إن حضرتك - آسف يعني - ما أشغلتش أي شيء للشركة من أول ما جيت.

- طب على العموم أنا ليا مستحقات. قانونًا حوالي ٣ مليون و٤٠٠ ألف...

- حضرتك يا بشمهندس تعرف مشروع قرية فيوبلازا اللي في شرم؟

- لا!!..

- ههههه مستشارنا الهندسي العظيييييم مايعرفش أهم مشروع في مشاريعنا!! واللي متوقف بقاله سنتين...!!

- مال أمه يعني؟

- المشروع ده ياحبيبي، متوقف عشان الشركة المودة للخرسانة الجاهزة استخدمت فيه أسمنت مغشوش، إزاي اتبنى من غير موافقتك؟ ده كفيل يدخلك السجن مش يخرجك من الشركة بس، لكن عشان العشرة اللي مابيننا ومابين معتز الله يرحمه عدينا الموضوع

مكتبة عابث الإلكترونية

وساوِيناه مع العملاء، والمفروض نبدأ نشتغل على ترميمه بعد خمس شهور..

نكس رأسه خجلًا، فضحك رئيس مجلس الإدارة بسخرية وأردف:

- هتستقيل وللا لأ؟

ضحك محمد بصوت عال، ضحكة بائسة يشوبها ابتسامة حزينة، كاد أن يدمع:

- طبعًا...

وقع على استقالته، وتنازل عن كافة مستحقاته، ورحل جارًا أذيال خيبة الأمل، لا يدري إلى أين يذهب. ظلّ يسير بسيارته طوال اليوم، يفكر في هذه المصيبة التي حلّت عليه فقصمته:

- لازم أواجه نفسي إني ابن ستين كلب فاشل وكل ده الشركة كانت مستحملاني عشان زفت معتز.... ليهم حق... طب وبعدين؟ هقول لفيروز إيه لما أروح؟ ياترى أبوها ممكن يوافق يرجعني قطر تاني؟ إزاي؟ ده أنا اتخانقت معاه لما بقيت مستشار هندسي في مصر، مع إن على حسه برضه كنت مستمر في قطر برغم إني مكنتش مؤثر هناك، أيوة مكنتش بعمل حاجة مفيدة...

هعمل إيه دلوقت، ده أحنا بنصرف ١٥: ٢٠ ألف في الشهر!! ده أنا كل اللي محوشه حوالى ٣٥ ألف!! يا نهار أزرق....

ظل هكذا إلى أن وجد نفسه فوق كوبري أكتوبر، شُل تفكيره، شعر بإعياء شديد، ركن سيارته فوق الكوبري، وقف ينظر للنيل، فلكَّ رابطه عنقه، شعر ببرودة تسري في جسده.. فكر في أن يلقي نفسه من أعلى الكوبري ويموت منتحرًا، لكنه نكص عن الأمر.. بكى بحسرة عندما واجه نفسه بتفاهته، أنانيته، غطرسته، غروره، كذبه وظلمه، ظل هكذا حتى حلّ عليه الغروب، وهو يُراقِب في صمت مُطبق قرص الشمس لحظة الغروب...

*****

قرص الشمس لحظة الغروب ونزولها عند أفق السماء، منظر له ذكرى سيئة مع طارق، فهو يذكره دومًا بفراقه عن مرام، لكنه الآن يستمتع برؤيته من ارتفاع مائة وستين مترًا، عبر نافذة مطعم برج القاهرة الدوار، متأملًا الفضاء الواسع، الذي برغم اتساعه لا يستطيع أن يسع فرحته في هذه اللحظة، لأنه سيقابلها بعد دقائق. تنهد بعمق، وارتسمت ابتسامة مشرقة على محياه عندما فكر في ذلك. قطع ابتسامته لمسة رقيقة على كتفه، صاحبها صوتًا عذبًا رقراقًا:

- بحبك قوي ..

استدار، فاتسعت حدقتاه حينما رآها، أدرك أن الشمس لم تغرب بعد، فهو الآن في حضرتها، تشرق أمامه وتدور حولها الكواكب، وجهها الخمري الساحر المستدير غابت عنه آثار حزن أيام بائسة، نظر لها في

مكتبة عابث الإلكترونية

حنان واحتواها بعينه، احمرَّ وجهها خجلًا. أفتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة. أمسك يدها وقبَّلها، واستطرد:

- أكيد دافنشي لو كان شافك قبل موناليزا كان هيغير رأيه.

- أنا أجمل من موناليزا؟

- ده موضوع مافيهوش كلام، غير قابل للنقاش، بس أنا ماكنتش هخليه يرسمك، عشان الجمال ده كله بتاعي أنا لوحدي، ومش هرضى حد غيري يشوفه.

نظرت له ولازالت لا تصدق ما تراه:

- عارف... اللي أنا عايشاه دلوقت كنت بحلم بيه من أول يوم شفتك فيه، بنفس هيئتك دي، وبتبصلي وبتبتسم وبتقولي أحلى كلام، وكان نفس المكان ده بالظبط اللي في خيالي، ونفس الموسيقى اللي شغالة... لما بوست إيدي افتكرت فيلم تيتانيك لما جاك عمل كده مع روز..

- الحب اللي كان بيحبه جاك لروز مايجيش حاجة جمب حب طارق لمرام، لو جمعوا حب العالم كله في كفة، مايجيش ١% من حبي ليكي..... ده شيء مفروغ منه...

*****

دخل محمد الفيلال، مطأطأ الرأس، قميصه خارج البنطلون، رابطة العنق مفكوكة تمامًا. رأته فيروز الجالسة على كرسي هزاز في الحديقة، نظر لها نظرة بائسة بوجه مُتعَب مُرهَق يحمل ملامح خيبة الأمل، ثم دخل دون الاكتراث بابنته المتشبثة في يده...

دخلت وراءه منفعلة:

- انت مالك عامل كده زي اللي بيبرشموا!!

لوَّح لها بيدٍ مرتعشة أن تكف عن التحدث بصوت عال:

- سيبيني في حالي يا فيروز.. أنا حاسس جِمل تقيل قوي على قلبي كإنه سخرة كبيرة...

قالت بتأفف وسخرية...

- انت هتمثل وهتعمل فيلم؟ مالك في إيه؟ انت ليه بقيت مُمِل وعيشتك بقت سودة كدة؟

- طردوني من الشغل... عاملوني كإني كلب

شهقت من هول الصدمة واتسعت عيناها، أجهش فجأة بالبكاء، تمنى أن تحنو عليه وتضمه إلى صدرها لتواسيه وتهون عليه همه..

- يانهار أسود، إزاي ده حصل؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- كانوا سايبني معاهم عشان خاطر معتز بيه...

نكس رأسه متأسيًا، ردت عليه فيروز منفعلة:

- هو معتز دة ورايا ورايا؟

رفع رأسه مندهشًا، ارتبكت ورمشت رمشات سريعة، استطردت بنبرة منخفضة:

- هما قالولك إية يعني في الشغل؟ الموضوع جه إزاي يعني؟!!

- ماقالوش حاجة، أجبروني أمضي على الاستقالة واتنازل عن كل مستحقاتي.

- يانهار اسووووود. يعنى إحنا كده هنشحت؟

- أكيد مش هيخلصك دة. كلمي باباكي يرجعني شغلي في قطر تاني...

- آآآه أقوله إيه يعني؟ بابا أساسا مخنوق منك، ومش طايق يجيب سيرتك مش عارفة ليه... إنت عملتله حاجة؟

- آه... شديت معاه في الكلام قبل كدة، هروح اتطمن عليه وأشوفه، يمكن يطلعنا من الهباب اللي احنا فيه ده... هو أملنا الوحيد دلوقت...

نظرت له بتهكم وسخرية..... طيب ياخويا... اطلع نام بقى.. اطلع...

*****

ابتسمت بسمة بطارق، فوجدت هاتفه مغلقًا. ظلت تنظر ليوسف وهو نائم بجوارها ثم وقفت عند النافذة تتأمل السماء والنجوم التي تزينها..

منظر السماء المتبرجة ليلًا من نافذة مطعم فسيح خافت الأضواء ببرج القاهرة كان رائعًا جدًا في هذه الليلة المتلألئة بالنجوم، التي بدت وكأنها مجتمعة احتفالًا بلقاء قلبين، بعد فراقٍ دام طويلًا. جلسا، بينهما شمعتان، مقطوعة Kenny G المفضلة لديهما تدوي في المكان، والتي تذكرهما بالماضي، عندما كانوا يسمعونها معا. عشر دقائق من الصمت والنظرات المتبادلة، كلاهما يريد أن يُملي عيونه من الآخر، كل نظرة من أحدهم للآخر تشي بحبٍ لو وُزِعَ على أهل كوكب الأرض لكفى وفاض. بادر طارق بالحديث:

- عارفة اني أسعد واحد في العالم دلوقتي؟

- مش أسعد مني يا طارق يا حبيبي.

- بس.. عنيكي دي اللي ياما سرحت فيها وعشقتها، حاسس إنها مليانة هموم يا مرام، احكي لي يا حبيبة قلبي مالك؟

- تعبانة.. جوايا هموم كتير جدًا يا طارق، مابقتش قادرة أقاوم اللي أنا فيه لوحدي، حواليا صراعات كتير جدًا ومشاكل. بس كل ده بانساه يا حبيبي بمجرد ما أحس إننا خلاص رجعنا لبعض.

- يا حبيبتي، قوليلي وارمي عليا كل مشاكلك وهحلهالك، تاكدي.

مكتبة عابث الإلكترونية

- مش عارفة أبدأ منين..... انت عارف معتز سايبلي ثروة حجمها إيه؟

- آه طبعا أكيد كبيرة جدًا، تجارة الأعضاء البشرية أرباحها وهمية. آهو راح لحال سبيله، قوليلي انتي بتفكري في إية بالظبط يا مرام..

- الثروة دي كلها فلوس حرام. كان حاطط في بنك سويسري باسمي اكتر من ١٠٠ مليون جنيه، غير الممتلكات اللي في مصر. الثروة دي نقمة مش نعمة.

- أفهم من كده إنك عاوزة تتخلصي منها؟

- آه يا طارق، دي فلوس حرام.... وانا بخاف م الفلوس الحرام

- طب بصي... أنا شايف إنه طالما حط المبلغ ده باسمك، وفي بنك برة مصر. يبقى أكيد كله من تجارة الاعضاء البشرية.

- يعني إية؟!!

- هقولك... أنا شايف إن كل الفلوس الحرام واللي فيها شبهة بتتمثل في الفلوس اللي برة، عشان كده كتبها باسمك، عشان مايكونش ليه أي علاقة بيهم، وأي فلوس تانية جوة البلد أو عقارات وعربيات وكده، فلوسهم عادية.. من المستشفى والعيادة....

- اممممم نظرية مقبولة فعلًا...

- وبالتالي انتي تتخلصي من الفلوس دي لو انتي شايفاها مُرهِقة لضميرك، بينما الفلوس التانية اللي جوة مصر فدي حقك الشرعي انتي وبنتك...

- بالظبط... الفلوس اللي جوة مصر حوالي ٢٠ مليون.

- جميل. يبقى ده حقك الشرعي الحلال انتي وبنتك. والباقي شوفيله صرفة.

- صح عندك حق. آه يا طارق لو تعرف عدد اللي خد منهم أعضاء. كتير جدًا...

- وعرفتي منين؟

- منا معايا ملف فيه اسماءهم وكل تفاصيلهم. غير دم التبرعات، غير الأفارقة اللي بيتاجروا في أعضاءهم بعد ما يقتلوهم....

- خلاص اتحلت...

- فهمني!

- انتي تاخدي المبلغ كله، وتوزعيه على الناس دي، أو على أهاليهم، من ناحية تبقي اتخلصتي من الفلوس، ومن ناحية تانية تبقي عوضتهم.

- فكرة ممتازة... أنا هاخد الفلوس، وأدي للمحامي أتعابه، والباقي على ضحايا معتز. هحصر أسماءهم وأوزعها عليهم...

مكتبة عابث الإلكترونية

سرح فيها لثوان، نظرت له نظره اجتاحته كفيضان يجتاح مدينة:

- وحشتيني قوي يا مرام، اتهدلت من غيرك، ياما حلمت بيكي وياما دعيت ربنا اني أكمل عمري معاكي، وأشوفك من تاني...

- وأنا كمان يا طارق، أنا مش هقدر أعيش من غيرك ثانية واحدة بعد كده...

- ولا أنا طبعًا، أنا لو عشت ثانية من غيرك تاني أموت...

- بس فيه مشكلة يا طارق... وأعتقد إنها مش سهلة وماينفعش نغمض عينينا عنها...

نكس رأسه بعد أن بدت ملامح الحزن على وجهه...

- عارف.. بسمة... بس تفتكري هعمل إية؟

- طبعًا أنا عمري ما هقولك طلقها... مش هرضاها على بسمة

- وهي عمرها ما هتقبل إني أتجوز واحدة تانية علها، وبالذات إني... ولو عرفت إني إتجوزتك هتطلب الطلاق. ولو رفضت هتلجأ للخلع...

- طب وبعدين؟

- مرام.. أنا مش هقبل إن أي حد تاني يبعدني عنك أو يبعدك عني، أنا هدمر أي حواجز ممكن تمنعني عنك، مش هقبل بأي عائق...

- ولا أنا... عارف، لو خيروني بين بعدي عنك وبين الموت، هختار الموت.

- هتجوزك على سنة الله ورسوله، ومامتك وقرايبك المقربين هيعرفوا، وإن شاء الله هقدر أوفق بينك وبين بسمة، وهعامل ندى زي ما بعامل يوسف بالظبط...

- طب ومحمد؟

- ماله زفت؟!! ماتجبليش السيرة دى تاني. مالهوش عندي حاجة ولا ليه عندك حاجة، ولا هروحله أطلبك منه، ولا هحط لساني على لسانه، ولا هقبل إنه يحضر فرحنا أساسًا.

- هههههه خلاص يا حبيبي اللي تشوفه أنا معاك فيه، أهم حاجة أبقى على ذمتك زوجة تانية ايه المشكلة كفاية اني متأكدة إنك هتعوضني عن كل لحظة هتغيب عني فيها...

- في حاجة تانية مهمة يا مرام لازم تعملها قبل ما نتجوز... أي فلوس أو أي حاجة ساهبالك معتز هتتكتب باسم بنتك. وأي عقارات أو فيلا أو عربية هتتباع وتتحول فلوسها باسمها برضه، وإنتي مايكونش مكتوب باسمك أي حاجة، وأنا اللي هصرف عليكي... مافيش مليم هيتصرف عليكي أو على ندى من فلوس معتز...

أومأت له بالموافقة وهي تنظر له مبتسمة، أردف:

مكتبة عابث الإلكترونية

- والشقة اللي انتي فيها. هتبيعها برضه. وأنا هشتريلك شقة وتعيشي فيها...

- إزاي؟

- أنا كنت محوش قرشين. حوالي ٥٠ ألف. هاخد قرض ٥٠ زيهم ويتخصموا من مرتبي بأقساط طويلة الأجل... وهدفعهم مقدم لشقة في اكتوبر جمب شغلي.

- طب ولية تشتري؟ خلينا عمليين. إحنا ممكن نأجر شقة مفروشة. وأنا هدفع نص الإيجار وانت هتدفع النص التاني.

- مممممم لا في الحالة دي أنا هدفع الإيجار كله. هأجر شقة في حدود ٢٠٠٠ جنيه. والحمد لله . كمان تلات أربع شهور هترقى وهيزيد مرتبي ٢١٠٠ جنيه. يعني بسمة مش هتحس بأي تأثير على مرتبي.

- جميل جدًا...

- والشقة هتبقى قدام الشركة على طول. بحيث إني أقدر أشوفك كل يوم. وهقدر أظبط أيام جمعة وسبت هقضيها كلها معاكي. وهخلي بسمة تروح لماما أو العكس...

- يا حبيبي أنا يكفيني قوي إني أشوفك ربع ساعة في اليوم. أهم حاجة مش عاوزة جوازنا يأثر على علاقتك ببسمة أرجوك...

- مبدئيًا. أنا كل يوم هشوفك في الساعة بتاعة الـ break... وبعد الشغل هقعد معاكي ساعتين تانيين. وهقول لبسمة إن الشركة زودت عدد ساعات العمل.

صمت لثانيتين ثم أردف بحماسة تملأ وجهه:

- أنا هعمل المستحيل عشان أقدر أوفق بينك وبينها. ومش هحسسك إنك زوجة تانية. لسبب بسيط. إن انتي السبب في إن قلبي بينبض. انتي الأصل يا مرام، ولو انا متجوز غيرك ١٠٠ ست. ومش متجوزك إنتي هعتبر نفسي مش متجوز...

- ربنا يخليك ليا يا حبيبي.. أهم حاجة يا طارق إوعى تزعل بسمة... أرجوك...

- بسمة إنسانة جميلة ومافيهاش عيب.. بس المشكلة اني مش قادر أحبها الحب اللي تستاهله، لأن انتي مستحوذة على قلبي...

قاطعته...

- طب لو اترجيتك تصلح علاقتك معاها؟ طارق أنا مش عاوزاها تبقى زعلانة أبدًا. لما قابلتها أول مرة عند العيادة حسيت من كلامها وانفعالاتها إنها مظلومة، وعايشة مأساة بسببي.

مكتبة عابث الإلكترونية

- مممم هحاول الفترة اللي جاية إني أصلح كل حاجة، بالنسبة لجوازنا.. إن شاء الله هنتجوز بعد ما تخلصي العدة مباشرةً، حوالي ٨٠ يوم مش عارف هيعدوا عليا إزاي..

- هيعدوا عليك وإنت بتصلح علاقتك مع بسمة ويوسف، وأنا من ناحيتي هنجز موضوع الفلوس اللي في سويسرا دي..

- إن شاء الله خير...

نظرت في ساعتها..

- ياخبر أبيض الوقت معاك مش بحس بيه خالص، يللا أحسن سايبة ندى مع ماما

- بوسيلي وقوليلها بابا طارق هيفسحك المرة الجاية. وسلميلي على مامتك قوي

أغلقت عينيها لا تصدق السعادة التي تغمرها، شعرت بأن سعادتها اكتملت وهي ترى في طارق الأب الذي كانت تتمناه لابنتها... رافقها حتى سيارتها:

- إركب يا حبيبي عشان هوصّلك...

- لا يا روح قلبي أنا محتاج أتمشى شوية مع نفسي. بالراحة وإنتي سايقة وخلي بالك من نفسك...

بعد ساعة ونصف، عاد طارق إلى منزله، وجد بسمة نائمة على جنبها الأيمن محتضنة يوسف، قبّل كل منهما قبلة خفيفة على جبينه، صنع فنجان قهوة، جلس في غرفة المعيشة، أخذ يفكر كيف سيستطيع الزواج بمرام وتعويضها عن فراق سنين مضت، في الوقت نفسه لا تعرف بسمة، مع عدم المساس بأي حق من حقوقها... ليس لديه خيار آخر، نعم... سيتزوج مرام تحت أي ظرف، لا تستطيع أي قوة في العالم أن تمنعه من ذلك. بالفعل ذلك ليس معناه أنه يكره تلك المرأة التي نضج قلبها على حبها له. رمق ساعة الحائط، ليجدها قد قفزت ساعتين. دلف إلى غرفة النوم، وجد بسمة لازالت نائمة على جنبها الأيمن، نام خلفها على نفس الوضعية، واحتضنها من الخلف...

بينما جلست مرام مع والدتها، تحكي لها عن طارق وكل الظروف المحيطة به، والتي جدت عليه بعد فراقهما. في البداية رفضت والدتها زواجها منه، لكنها عادت فدعت لهما بالتوفيق بعدما أقنعتها مرام. حينئذٍ نامت مرام في سكينة، سعيدة باقتراب تحقيق الحلم.

*****

صباح اليوم التالي....

وقف طارق أمام المرآه يرتدي بذلته، سارحًا يفكر كيف يُمَهد لبسمة موضوع زيادة ساعات العمل، حتى لا تفاجأ حينها... ارتدى قناعًا عبوسًا والتزم الصمت، وكما توقع سألته:

مكتبة عابث الإلكترونية

- مالك يا حبيبي؟ مكشركده ليه؟

- مافيش ما تشغليش بالك

- في ايه يا طارق بجد؟

- الشركة بتخسر يا بسمة.. اتأثرت بالثورة، وبقالنا سنة بننفق من فائض الربح لحد ما بقت داخلة على إفلاس... مجلس الإدارة مالقوش حل غير انهم يزودوا عدد ساعات العمل ويبقى ١٠ ساعات بدال ٨ ساعات... يعني جاية على دماغنا

- يالهوي، يعني هترجع كل يوم الساعة ٩؟

- وبمكن ١٠

- ده ظلم وإفترا...

- هاعمل إية؟ أكل العيش والكل مضطر البلد مافيهاش شغل. هيبدأوا في النظام الجديد ده بعد شهرين تلاتة...

شردت بسمة لهنيهة، تقاوم إلحاح ظنونها التي تحلق بداخلها، لمحها طارق في المرآة، فسألها بفضول:

- مالك يا بسمة بتفكري في اية؟

- مافيش حاجة، ربنا يستر...

- يللا سلام يا حبيبتي، خلي بالك من نفسك...

- حاضر يا حبيبي... قالتها وهي تعدل رابطة عنقه، فضمها إلى صدره وقبلها على جبينها...

*****

قبلتها على جبينها فاستيقظت:

- بسم الله ماشاء الله يا حبيبتي.. عارفة يا مرام.. آخر مرة شوفت وشك منور كده كان قبل الجوازة السودة..

- ليه يا ماما تفكريني بالسيرة دي ع الصبح وأنا صاحية مبسوطة... يللا قومي حضري نفسك عقبال ما ألبس ندى، عشان هنعيش في شقتي في المهندسين...

في طريقها للمنزل اتصل بها محمد، ردت عليه مندهشة:

- اية يا محمد؟

- ازيك يا مرام

- كويسة... في إية مالك؟

- أنا عاوز أشوفك دلوقتي يا أختي. حححح. حالًا

- مالك طيب إية اللي حصل؟ مراتك وبنتك كويسين؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- كويسين، بس ممكن أقابلك دلوقتي؟

- أوكي. كمان نص ساعة في سوليدير كافيه جامعة الدول.

ذهبت إلى الكافيه، ومعها أمها التي أصرت على مرافقتها. وجدناه جالسًا متقلقلًا، تائه النظرات، والانكسار واضح في طريقة نهوضه ليصافحهما بيدٍ مرتعشة وبدا من الواضح أنه لم يتوقع حضور أمه. صافحته مرام بجمود، بينما لم تمد والدتها يدها له عندما مد لها يده. أدرك من نظرتها أن كل الذي حدث له ليس من قبيل الصدفة؛ بل بتدبير من الذي لا ينام...

سحب يده "المرتعشة"، متجاهلًا كل ذلك... قال بحروف متقطعة:

- مرام أنا في مصيبة. طردوني من الشركة... ودلوقتي أنا بقيت عاطل..

- ليه؟! مش انت مهندس شاطر وألف شركة تتمناك؟ مش دايما بتقول كده؟

- مهو حتى لو اشتغلت مش هيبقى بنفس المرتب اللي كنت باخده قبل كده، ومش عارف أعمل إية..

- طب انت بتقولي الكلام ده ليه؟ إيه اللي أقدر أعمله؟

- لا، تقدري تعملي كتير، مش معتز سايبلك ملايين؟ أنا هاخد منك نص مليون وهنشارك بعض، انتي بالفلوس وأنا بالمجهود...

- لا يا محمد مين اللي قالك ان معتز سايبلي فلوس؟ ده ماسابليش غير الديون...

- انتي هتكدبي عليا يابت؟.... قالها بانفعال، مسقطا من على وجهه قناع الانكسار

- بت أما تبتك. وإتكلم معايا بأسلوب محترم، عشان مانقومش ونسيبك!!

- خلاص يا مرام. لو مش عاوزة تديني نص مليون؟ إديني عيادة معتز اعملها مكتب هندسي...

- بيع فيلتك الجميلة وهات شقتين، شقة تعملها مكتب هندسي، وشقة عيشوا فيها، وخلي فيروز هانم تتنازل شوية وماتركبش عربية وعيشوا بعربية واحدة...

- ماهي مش هترضى بكده يا مرام...

- ولا أنا كمان هرضى يا محمد. طالما مش عارف تأمر مراتك، عايزني انا اسمع كلامك؟!!

- وإنتي هتعملي إيه بالفلوس والثروة دي كلها؟

- وإنت ماااااااال حضرتك؟ ومع ذلك هقولك... كل حاجة معتز سايباهالي، هبيعها وهحطها باسم ندى في البنك ، تنفعها لما تكبر.

مكتبة عابث الإلكترونية

- وهتعيشي إزاي وهتصرفي منين؟

- إية ده هو أنا ماقلتلكش؟ (قربت وجهها منه قائلة بصوت خافت) مش طارق هيتجوزني..

شعر كأنه لمس سلك كهرباء عارٍ يغذي مدينة بأكملها.. صعقة جعلته متجمدًا. واتسعت حدقته (طارق هيتجوزني!!).. كأنها قذيفة أصابته، اخترقته فأحرقته، فقد النطق، شعر بألم في الجزء الخلفي من رأسه، صاحبه ثمانون جرذًا قذرين عاثوا في جسده قرضًا... ونسي أماكن خروج الحروف من حلقه.

شعرت مرام بوقع الكلمة عليه فأردفت:

- ماسمعتش كويس؟ أنا حاسة إنك ماسمعتش... أنا.. وطارق... هنتجوز...

- ط... طارق طارق؟.. سألها وهو يزدرد ريقه

- وعشان هو "راجل" ومايقبلش إن واحدة ست تصرف عليه، اتفقنا أني أبيع كل حاجة واكتبها باسم ندى... وهيجيبلى شقة نعيش فيها..

- بس أنا مش موافق على طارق....

- ومين قالك توافق؟! أنا دلوقتي ولية أمر نفسي، وولية أمر ندى، ومامتي عايشة وموافقة، يبقى رأيك بالنسبالي لا يمثل شيء...

- طب بيعي كل حاجة.. وسيبيلي الشقة اللي انتي قاعدة فيها دلوقتي، أهي دورين، هخليها مقر مكتب هندسي وأشغله.

- حتى الشقة دي هبيعها.. ثم انها بتاعة ندى

اقتربت أكثر، همست له بسخرية:

- بقولك... طارق هيجيبلي شقة.. عشرين متر!!... نعيش فيها.

نكس رأسه متألمًا، ضغط عليها بكفيه حتى لا تنفجر من شدة الألم، رفع رأسه بعد ثوان وغمغم كالضارع:

- يعني انتي يا مرام ترضي إني أتغرب تاني، واشتغل برة مصر؟ قطر مابقتش زي الأول...

قاطعته والدتها بثقة...

- حتى قطر مش هتعرف تروحها... لأن حماك حالف مايتوسط ليك في أي حاجة تاني. أنا مش بشمت فيك يا ابن بطني.. بس أنا قولتلك إن قلبي وربي غضبانين عليك. وانت كنت فاكر إنها مش هتصيبك... اهو اللي انت عملته كله إتردلك يا محمد.

عم الهدوء محيطهما، نظرت له مرام لثوان، ثم أضافت على كلام والدتها:

- ولسة هيتردلك أكتر وأكتر.. إستنى بس يا محمد كل حاجة بوقتها...

مكتبة عابث الإلكترونية

طلبت من النادل الشيك، وضعت له ثمن قهوته، وتركتاه جالسًا يفكر في المصائب التي حلّت عليه. مرّ عليه شريط حياته، معاملته لهن، أدرك أن رد فعل مرام منطقيًا نتيجة لما فعله معها ومع أمها. نكس رأسه ودسّها بين كفيه يفكر، كيف سيخرج من هذا المأزق. ظل هكذا لأكثر من ساعة احتسى فيها أربعة فناجين قهوة، ثم قرر أن يقوم، فطلب الشيك من النادل، دسّ يده في جيبه، وأخرج حافظته.. وجد بها إيصال استلام نتيجة التحاليل، الذي نسيه، فحاسب النادل وذهب قاصدًا معمل التحاليل وهو يضحك بسخرية من فكرة الإنجاب والوريث.

بينما هو يخرج، دخلا هدير وعلاء، وجلسا في نفس مكانه. حصل علاء على وظيفة مسائية كفرد أمن. في البداية كان ممتنعًا بعض الشيء، حيث إنه خريج تجارة ويعمل محاسبًا في النهار وليس من اللائق أن يعمل كموظف أمن في الفترة المسائية، لكنه كان لابد أن يثبت لطارق أنه يستحق هدير وسيكون عند حسن ظنه...

- دلوقت أهم حاجة يا حبيبي إننا نرتب نفسنا ونشوف ألوياتنا، وهكون معاك خطوة بخطوة...

- ربنا يخليكي ليا يا هدير، أنا متأكد إننا لما نقول لطارق هيفرح، لازم أكبره قدام باباكي...

- إن شاء الله خير. معلش يا علاء انا عارفة إنك هتتعب يا حبيبي لكن لله يهون عشان نعيش مع بعض في بيت واحد...

- يا حبيبتي أنا عشان خاطرك أهد أي أسوار وحواجز بيني وبينك...

*****

استلم نتيجة تحليل السائل المنوي، ذهب به مباشرةً لطبيبه الذي أخذ يمسح جيدًا بياناته بعينيه، بدا على وجهه التجهُم، انتاب القلق لصدر محمد وأخذ يساوره، سأله بخوف:

- إيه يا دكتور؟..... طمني...

رفع طبيبه عينيه، خلع نظارته ووضعها على مكتبه، صمت ثوان ثم ألقى حجرًا من أحجار الأهرامات على صدره قائلًا:

- الحيوانات المنوية عددها قليل ومافيهاش حركة، تكاد تكون معدومة. في حالتك كده الحل الوحيد للإنجاب إنكم تعملوا حقن مجهري... نختار الحيوانات اللي فيها حيوية ونشتغل عليها

قاطعه باستهجان:

- إزاي يعني يا دكتور؟!! مش فاهم...!! أنا مخلف وعندي بنت انت بتقول إيه؟

مكتبة عابث الإلكترونية

رمقه الطبيب رافعًا حاجبيه، أكد له أنه من المستحيل أن يحدث حمل لزوجته بشكل طبيعي طبقا للتحليل الذي أمامه.. ربما لو كان لديه تحليل قديم بنتيجة غير هذه، لقال إن شيئا استجد عليه..

شعر محمد أن النور قد انطفأ فجأة، حلّ السواد جميع أرجاء الغرفة، تسلل برد شديدًا إلى جسده، شعر أنه يسقط من أعلى برج في العالم ليتلقاه فاه الموت. لاحت في مخيلته صورًا كثيرة تتحرك أمامه بطريقة عشوائية غير منتظمة، وضعها جنبًا إلى جنب بتركيز شديد، علّه يُكوِن منهما صورة كاملة...

- أمس قالت له فيروز: هو معتز دة ورايا ورايا... فرمقها مندهشاً...!

- انت طول السنة سايبني لوحدي في مصر، ومسافر برة، ليه كل ده؟!! عشان بتجري ورا طموح عاوز تحققه؟!! جميل محدش يقدر يغلطلك، لكن مش على حساب حياتك الزوجية، وحياتي أنا كمان. انت عارف أنا بحس بالوحدة إزاي في غيابك؟ أنا كتير ببقى محتاجالك ومش بلاقيك!!

- تذكر عيد ميلاد جودي، عندما حضنها معتز بقوة شديدة مغمضًا عينيه من فرط التأثر، وقد قال له أحدهم مازحًا أن المهندس محمد والدها لم يحضنها بتأثر هكذا...

- ركز أكثر في ملامح جودي، تذكر النغزتين في وجهها. ليس في وجهه مثل هذه النغزة، ولا في وجه فيروز..... بل كانت تبدو واضحة عند معتز...

- منذ قليل، عندما كان مع أخته مرام، وفي نهاية حديثهما قالت له: واسة هيتردلك أكتر.. استنى بس ...

شعر بالشلل يسري بداخله، بعد أن غاص الخدر في جسده بالكامل، للحظات لم يستطع تحريك نصفه السفلي، شعر أن نهاية جسده عند خصره، نفض أفكاره عن رأسه وخرج عن شروده، نهض كالمجنون، وذهب دون كلمة...

*****

جلست مرام في غرفتها تقلب وتتفحص بتركيز شديد وتمعن الأوراق التي أخذتها من حفناوي، الذي سيحضر بعد ساعتين. كم الأشخاص الذين باعوا له أعضاءهم بثمنٍ بخس طلبًا للمال صادم، وجدت ملفًا به تفاصيلهم، البدو الذين كان يتعامل معهم، أعداد الأفارقة الذين كانوا يتاجرون في أعضائهم.. ملفًا آخر يوضح الملايين الطائلة التي كان يربحها، عقود الأراض والفيللات، شاليه في الغردقة، حسابات بنكية في مصر... رتبت الأوراق حسب أولوية التعامل معها، حتى أخبرتها الخادمة أن حفناوي بانتظارها، فنزلت له...

- ازيك يا حفناوي.

- ازيك يا مدام مرام، أخبارك إية وأخبار الهانم الصغيرة والهانم الكبيرة؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- الحمد لله بخير..

- إمبارح عرفت من ناس أعرفهم في المباحث آخر أخبار قضية معتز...

- خير في حاجات جدت؟

- آه يا فندم، أعضاء المافيا اللي كانوا متواجدين في مكتبه ساعتها اتحكم عليهم أحكام مختلفة، وفرغوا مكالمات كانت مسجلة على تليفون معتز بينه وبين موظف في المطار، كان بيسهلهم مرور برطمانات وأيس بوكسات جواها الأعضاء البشرية، اتقبض عليه وصدر حكم ضده برضه، ده غير الأطباء والممرضات اللي شهدوا على بعض...

- الحمد لله ربنا يخلص العالم من شرورهم. ماتعرفش اسم فيروز جه في الموضوع وللا لأ؟

- بنت الشياطين ماكانتش سايبة وراها أي دليل، حتى اتفاقاتها مع السماسرة كان عن طريق أرقام تليفون مختلفة، وكانت بتستخدم شفرات في المكالمة، مكانتش بتتكلم بشكل واضح زي ما قلتلك.

- ربنا قادر... هتروح منه فين... بقولك إيه يا حفناوي.. في سؤال عاوزة اسألهولك عن معتز...

- أنا خدّامك يا مرام هانم...

- هو مالهوش أي قرايب أو معارف؟ ده ماحدش جه يعزيني برغم إن الموضوع اتعرف يعني!!

- يا هاااااانم معتز في حكم المقطوع من شجرة، أو بمعنى أصح عيلته مابتسألش على بعضها، عيلة قطب عيلة كبيرة ولها جذور في محافظات كتيرة، لكن بينهم خلافات تراكمت ودلوقت ماتلاقيش منهم اتنين تلاتة يودوا بعض، ثم إن والده ووالدته زي مانتي عارفة ماتوا وهو في كلية الطب، بعدها عمل كل حاجة لا تتخيلها عشان يكوّن الثروة دي.. زماااااان عمل صفقة بملايين مع صاحب شركة سياحية كبيرة كانت بتبني مشروع في الاقصر ولقوا آثار، كان وسيط فيها بينه وبين تجار كبار عرفهم بالصدفة، خد منها مبلغ حلو وقبل ما يتجوزك كان بيشتغل فترة في الموضوع ده، وكان..

قاطعته متبرمة باقتضاب

- خلاص ماتعرفنيش عنه حاجة.... كام المبلغ اللي انت طلبته مني؟

- خمـ... خمسة مليون حضرتك..

- جميل. أنا عاوزة أبيع كل الممتلكات، هنعمل مزاد ع العقارات، وهناخد أعلى سعر، بعد ما نبيعها هنحط كل المبلغ في البنك باسم ندى بنتي....(نظرت حولها في عجلة) حتى الشقة دي هنبيعها...

مكتبة عابث الإلكترونية

- جميل يا فندم بس ليه كل ده؟ دي الأراضي والعقارات أحسن استثمار، وسعرها بيزيد كل مدى، وزي ما بتقول النظرية الاقتصادية الشهيرة: العقار قد يمرض لكنه لا يموت...

- مهو برضه في البنك هيكون ليها عائد، ودة مبلغ مش صغير، المهم أنا مش جايبك عشان الموضوع ده بالأخص، أنا جايبك عشان تنجزلي موضوع فلوس سويسرا..

- أنا كنت مستني حضرتك تقوليلي نبدأ.. عشان اشتغل عليهم عاوزاهم امتى؟

- قدامك شهرين ونص بالكتير يا حفناوي. تحول الفلوس من سويسرا لمصر في حسابي، في نفس الوقت تخلص لي موضوع بيع كل الممتلكات، يعني م الآخر تشتغل على الموضوعين دول مع بعض في وقت واحد...

- حاضر يا مرام هانم، بس هندخل الفلوس على أجزاء، يعني ممكن على تسع أو عشر مرات متباعدة، وعلى كذا حساب مختلف...

- جميل جدًا.. أهم حاجة إنجزلي الموضوع ده بأسرع وقت عشان ألحق أوزعها..

- إزاي يا فندم؟ مش فاهم سعادتك...

- الفلوس دى حرام، ومش بتاعتي، وهترجع لأصحابها، للمتضررين اللي مكتوب اسماءهم في الملف اللي إديتهولي.

بدا على وجه الرجل التأثر، طأطأ رأسه ماسحًا عينيه بأنامله في تؤدة، قائلًا:

- متضحيش يا مدام بأكتر من ١٠٠ مليون عشان ناس ماتعرفهومش لإن الفلوس حرام؟ وأنا اللي بطلب منك ٥ مليون؟!! طب والله أنا ماعنديش ربحة الدم...

- أفهم من كده إن ضميرك صحي ومش هتاخد الـ٥ مليون؟

- لالالا طبعا يا فندم، دي كانت لحظة تأثر وعدت وراحت لحال سبيلها، إن شاء الله كل ده هيتم قبل الميعاد كمان، أستأذن معاليكي يا مرام هانم....

- اتفضل يا حفناوي... أهم حاجة محدش يعرف موضوع إني هوزع الفلوس دى حاجة لله وماحبش حد يعرفها...

- يا فندم لو قولتيلي انسى اسمك ماعنديش مانع، عمومًا ربنا يقدرك على فعل الخير... استأذن حضرتك..

- اتفضل...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

دخل محمد الفيلا، خطا بخطوات ثقيلة، مطأطئ الرأس شاردًا، وجد فيروز جالسة في الحديقة ممددة قدميها على أحد الكراسي، تُقلم أظافرها التي تهتم بها دومًا... جلس بجوارها في هدوءٍ تام، رمقته بتعجب وسخرية، ثم أكملت تقليم أظافرها، جرت جودي نحوه قائلة "بابا... بابا "... رمقها بعينٍ شاخصة، حملها ووضعها على فخذه، ينظر لها في صمت نظرات جامدة خالية من أي مشاعر، ظل هكذا لأكثر من دقيقة، حتى رمقته فيروز مرة أخرى بترقب، كسر الصمت صوت نشيجه، أخذ شهيقًا بانفعال زفره ببطءٍ شديد، قال للطفلة بابتسامة منكسرة:

- إزيك يا حبيبتي، وحشتيني، كتير كنت ببصلك وأشيلك... وأحضنك وقلبي كان بينفطر لما بحس إني ماسك حتة مني.. حتة من صلبي.

ارتخت يد فيروز تاركة ما تفعله، تنصت بترقب الرسالة التي بود إيصالها، استطرد:

- ياترى يا جودي بتحبيني زي ما بحبك؟

أطبق على ذراعها بقوة، فبكت متألمة، ولا زالت فيروز تنظر له بنظرات قلقة.. فاستطرد قائلًا:

- ماتعيطيش يا حبيبتي، تعبي أحكيلك حكاية حلوة؟ (رمق فيروز ثم نظر للطفلة مرة أخرى) مرة واحد كان فاكر إنه يقدر يملك كل حاجة

في الدنيا، لكن طلع غلطان.. حتى بنته اللي كان فاكرها من لحمه ودمه!! للأسف .. ليه كنتي بتخونيني وتكدبي عليا، وتقوليلي باااااابا...

نظر لفيروز فجأة كالمجنون، اتسع بؤبؤ عينها، ألقى الطفلة على الأرض، بعض واقفًا ينظر لها كتمثال، فنهضت بسرعة محاولة الهروب من أمامه، وبينما تمر بجانبه مدَّ يده وجذبها إليه بقوة من شعرها، ولايزال واقفًا نفس الوقفة، هتف في وجهها بصوت عال:

- البت دى تبقى بنت مين يابت؟...

صرخت بشدة، محاولة -عبثًا- أن تفلت شعرها الطويل من قبضة يده.. كرر عليها نفس السؤال صارخًا في وجهها، فأجابته بصوت متحشرج:

- ب.. ب... بنتك.

- بنتى أنا يابنت الكدابة؟ أنا عندي عقم ومابخلفش...

اتسعت عيناها، صعقت من هول المفاجأة، سألها ولازال يجذبها بقوة من شعرها:

- جودى بنت ميييييييين؟ هتقولي وللا أعمل تحليل DNA؟

- سيبني بقولك.... هتقطع شعري

مكتبة عابث الإلكترونية

بالكاد استطاعت أن تفلت منه، ركضت فتعثرت في المنضدة، فوقعت على أرض الحديقة، تلطخ جسدها الأبيض بالطين، حاولت النهوض بسرعة لتهرب من أمامه، لكنه التقطها بطينها كالمجنون، لطمها بقوة عدة مرات أمام الخدم والمربية، الذين يقفون على مقربة منهم مذعورين، سألها بصوت كاد يخترق طبلة أذنها:

- ردي عليا يابنت الكلب... البت دي بنت مين؟

- بنتك.. والله العظ..

- ماتحلفيش يا فاجرة.

صفعها ثمان أقلام على وجهها، كلما وقعت على الطين يلتقطها ويصفعها، مرددًا نفس السؤال " بنت مين دى؟"

وقعت على وجهها عند القلم الثامن، ثبتت لم تتحرك، بينما كان يردد نفس السؤال، استجمعت قوتها، نهضت بكبرياء امرأة ماكرة، نظرت له بجرأة وغل، أجابته بصوت واثق ثابت:

- عاوز تعرف بنت مين دي؟ مش عايز تصدق انها بنتك؟ ما طبعا لأنك عارف انك يا بشمهندس يا كبيبيير كنت بتسيبني بالسنة والسنة ونص لوحدي، تيجي أسبوع تاخد مزاجك وترجع قطر تاني، كرهتك، وبقيت بالنسبالي مجرد مصدر للفلوس، واللي عملته في أختك اللي من لحمك

ودمك خلاني اكرهك أكتر، بيعت أختك عشان وظيفة يا كلب... جمعت فلوس وسافرت واشتغلت، لكن للأسف انت مازلت ولا حاجة.

لازال ينظر لها، كلامها وجرأتها أعيوه، شعر بروحه وهي تفارق جسده، استطردت:

- أول سنوات جوازنا كنت بحبك، إتجوزتك عن حب، لكن اكتشفت بعد كده إنك إنسان تاني كل همه إنه يحقق اللي هو عايزه، حتى لو كان على حساب أي حد. انت كنت بتفكر في نفسك وبس... زرعت يا بشمهندس محمد؟!! أحصد بقى. شيبيبيبيل الليلة زى ما بيقولوا.... البنت دي مش بنتك؟ انت كنت في قطر وبتسيبني بالسنة... منتظر مني أعمل اية؟

رمش بعينيه بسرعة، بدا عليه الضعف، نكس رأسه قائلًا بصوتٍ أجش...

- أنا كنت برة عشان مين؟ عشان أمي؟!

- آه صحيح بمناسبة أمك فكرتني، أمك مش راضية عنك واتبرت منك، ودة اللي خلا بابا مايتوسطش ليك تاني في رجوعك قطر، وبالنسبة للفلوس اللي انت بتعبدها أهي معملتلكش حاجة، فاكر أختك لما قالتلك إنها مستعدة تعيش مع اللى بتحبه بـ ١٠٠ جنيه ف الشهر؟ دة لإنها بتحب واحد شايفاه رجل، مش واحد طماع، عمري ما هنسى إنك أقنعتني نعمل الخطة القذرة على أختك، من ساعتها وأنا كرهتك أكتر.

مكتبة عابث الإلكترونية

واتغيرت بسببك وبقيت إنسانة تانية، طلقني... طلقني ولو انت راجل فعلا قول للناس كلها إن دي مش بنتك. أما معنديش حاجة أبكي عليها.

أحيانًا يشعر المرء أن نباح امرأة ماكرة تحمل صفات كلب ضال، أسوأ بكثير من عضتها، تمنى أن تنشق الأرض فتبلعه هروبًا من كلامها، ضرباتها جعلته ينهار ويخر على ركبتيه في هوان، شُلَّ تفكيره تمامًا، حاول أن يفكر في إنشاء ممر آمن للخروج مما هو فيه، إذا طلقها فسيخسر كل شيء: الفيلا والسيارة باعتبارها حاضنة لطفلة، ليست طفلته.

في الوقت نفسه لن يتحمل العيش معها مرة أخرى، كيف يعيش مع امرأة خانته، وخانته، وخانته حتى تحرَّت الخيانة، أضاء شعاع فجأة في عقله أن يفرغ فيها رصاص بندقيته المعلقة بالداخل فوق المدفأة، لكن كيف يفعل ذلك والمربية وباقي الخدم يقفون على مقربة منه، يتنافسون على رؤيتهم يتشاجرون.... هل سيقضي طوال حياته هاربًا؟ أم يدخل في عاهرة السجن.... عليه الآن أن يأخذ قرارًا حاسمًا...

*****

بعد مرور شهرين ونصف...

عملت مرام دون توقف في تحويل ذلك المبلغ الضخم من سويسرا إلى مصر، فتحت عشرة حسابات كي تحوله على مراحل: كل مرحلة مليون ونصف دولار، في ذلك الوقت كانت الرقابة على البنوك ضعيفة إلى حد ما... بدأت في استدعاء المتضررين لتوزع عليهم التعويض الذي تراه مناسبًا. ليس هناك ما يمنع من إعطاء رجل بائس يرتدي جلبابًا مهدلًا ثلثمائة ألف جنيه، فالعضو الذي باعه لا تعوضه عنه ملايين الدنيا، ومن المؤكد أنه فعل ذلك لحاجته الشديدة للمال...

لم يغب يومًا عن ذهنها بكاؤهم ودعواتهم لها وردود أفعالهم غير المتوقعة، لم تنس ذلك الرجل الذي انحنى ليقبل قدمها عندما أعطته مائتا ألف جنيه وشقة جديدة وحجزت له في مركز طبي عالمي للعلاج، كان هذا الرجل قد اتفق معهم على بيع فص كليته الأيمن مقابل خمسة آلاف جنيهًا، وبعد استئصالها أعطوه ثلاثة آلاف فقط وطردوه خارج المستشفى، وبعد شهر من تدهور صحته اكتشف أنهم أخذوا منه أعضاءً أخرى. كانت تحاول جاهدة زرع البسمة في وجوه وقلوب هؤلاء الذين زرع فيهم معتز وأمثاله التعاسة والحزن والبؤس...

مكتبة عابث الإلكترونية

تبقى في النهاية ٤ مليون دولار، تبرعت لمستشفيات الأقاليم بالأجهزة التي تنقصها، اشترت جهاز رنين مغناطيسي لأحد مستشفيات أسيوط الخيرية، وجهاز أشعة فوق البنفسجية لمستشفى آخر في بنها، تبرعت للجمعيات الخيرية للأيتام، فهي تعلم جيدًا طعم اليتم، عملت أيضًا على تجميع أطفال الشوارع في هذه الجمعيات، ليبدءوا حياة جديدة خالية من الفقر والجهل والمرض...

في النهاية أعطت لحفناوي ٥ مليون كما تم الاتفاق بينهما مسبقًا، بعدما أنهى إجراءات بيع كل ممتلكاتها، وتحويلها باسم ندى ابنتها، كما طلب طارق الذي دأب في العمل بجد واجتهاد جُلّ وقته، ليثبت أنه مازال محتفظًا بكفاءته في العمل، وليثبت لمجلس إدارة الشركة التي يعمل بها أنه لم يتأثر بالأحداث التي جَرَت له، وأيضًا لإثبات أنه يستحق الترقية المُقبل عليها...

يؤدي واجباته ومهامه في العمل بحالة نفسية مرتفعة وسعادة بالغة، يتعامل مع زملائه بتعاون وبحفاوة، لم يمر عليه يوم دون أن يتحدث إلى مرام، يمسح رقمها من سجل المكالمات قبل دخول منزله، حريص طول الوقت ألا تعرف بسمة شيئًا، أو يتسلل الشك بداخلها، ظل طوال هذه الفترة يعاملها معاملة حسنة، لم يدع عودة مرام تؤثر على علاقته ببسمة إلا إيجابيًا، وحمل روح الدعابة معها، كي يحقق التوازن الصعب بين بسمة ومرام.

لم ينس أيضا متابعة أخته هدير وعلاء، وأخيه شريف، ووالدته ووالده... سعى إلى إعطاء كل شخص في حياته حقه، وأكثر مما يستحق.

اكتشف في هذه الفترة أشياءً جميلة في بسمة، صفات لم يكن يعرفها من قبل، أو لم يكن يريد أن يعرف، أو لم يكن لديه الاستعداد لذلك، بالطبع هذا ليس معناه أن يصرف نظر عن زواجه من مرام، بل شعر أنه لا يستطيع العيش بدونهما، أو يرجح كفة واحدة على الأخرى. جلس يومًا أمام المرآة يرمق وجهه متسائلًا: هل تفكيري في مرام كان بسبب نرمي من بسمة؟ هل الأشياء الجديدة التي اكتشفتها في بسمة كانت تخيبها عني بسبب شعورها بأني أفكر في امرأة أخرى؟ يقولون إن القلب لا يستطيع احتواء أكثر من امرأة، لكن ماذا لو كان في حياته امرأتين رائعتين، تتصفان بكل الصفات الحميدة؛ واحدة تزوجها دون مشاعر فأحبها بعد ذلك، بل عشقها، وأحدثت فارقًا كبيرًا في حياته وأحالتها إلى جنة، والأخرى محفورة داخل قلبه..... كأسطورة قديمة نُقشت بدقة وإتقان نحّات ماهر على جدرانِ معبد..... هل تفكير الإنسان في الماضي وتشبثه به يصنع حاضراً موازيًا لحاضر يعيشه؟!!

أدرك أنه ببساطة، يحب الاثنتين... مثلما يحببنه، وربما أكثر...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

بنسيون ردئ بوسط البلد، حوانطه متاكلة بفعل تحرش الرطوبة بها، قابع في إحدى غرفه الضيقة العفنة الرائحة المهندس محمد: الكث اللحية، رائحته لا تقل قذارة عن رائحة الغرفة، أصبح على حافة الجنون أو الانتحار، كثيرًا ما يتحدث لنفسه بصوتٍ عال، وأحيانًا يسرح لدقائق ثم يقهقه بضحكات عالية دون سبب.. أحيانًا أخرى يصرخ فجأة بكلام غير مفهوم أو يحدث جلبة، فيطرق عامل البنسيون الباب عليه بقوة وينهره ويوبخه بألفاظٍ قبيحة كي يكف عن الضوضاء، فينزوي على سريره في خوف دافنًا رأسه بين ركبتيه ويديه في خوف ورعشة... صار يخاف من الأماكن ومن الناس..

ذات مرة، كان يسير في الشوارع بملابسه المهترئة القذرة، فألقى أمامه بعض الصبية ألعابًا نارية، فجرى خوفًا وصعد فوق الرصيف، فاصطدمت قدماه بأحدهم وانكفأ بوجهه على الأرض وسط ضحكاتهم عليه وسخريتهم منه.. فنهض مرتبكا مسرعا هربًا منهم، فانتفض هلعًا من صوت إغلاق أبواب أحد المحلات...

طلّق فيروز، التي أخذت الفيللا لأنها حاضنة للبنت، رحل يومها بدون حتى ملابسه، وبدون المبلغ الذي كان يودعه في خزينة الفيللا، أخذ فقط السيارة، التي باعها بثمنٍ بخس، لينفق منه، وسينفد يومًا.. لكنه لم يعد يفكر ماذا سيفعل بعد ذلك...

لم يجرؤ على الذهاب لمرام طوال هذه الفترة... حاول مرة واحدة الاتصال بها، لكنها لم تجبه، فنسى تمامًا أن له أختًا...

ماذا كان، وكيف أصبح!! مهما ابتعد ونأى بنفسه عن العالم سيظل حاملًا عاره على صدره، يكفي أن يعرف أن هناك طفلة تعيش حاملة اسمه، وهي ابنة رجل آخر... كلما يتذكر حاله هذا يجهش بالبكاء..

بعدما وجد وظيفة أخرى بعد الظهر، كان علاء يعمل ليل نهار، كل شهر يعطي هدير ٢٠٠٠ جنيه، ويأخذ ٢٠٠ جنيه لزوم مصاريفه في أضيق الحدود. كانت هدير تساهم كل شهر بـ ٥٠٠ جنيه أيضًا، فاستطاعا في ثلاث شهور جمع ٧٥٠٠ جنيه، فأخذا شقة على الطوب الأحمر على الطريق الدائري قانون قديم، بمقدم خمسة آلاف جنيه، وخمسمائة جنيه إيجارًا شهريًا، وتبقى معهما ألفان جنيه اشتريا بهما إسمنت لمحارتها...

شريف كذلك اقترب من طارق أكثر.. نصيحة أخيه ومساندته غيرا من تفكيره، وحصل على قرض يبدأ به حياته كي يتزوج من الفتاة التي يحبها... كان طارق يراقب إخوته عن كثب، يطلع أولًا بأول على آخر مستجدات حياتهما، يشجعهما ويشعر بالفخر بهما...

*****

قبل انتهاء عدة مرام بثلاثة أيام...

جلس طارق مع بسمة ويوسف يتناولان الإفطار، شرد لهنيهة يفكر كيف يرتب كلامه.. ثم قال لها:

مكتبة عابث الإلكترونية

- مامتك وباباك عاملين إيه يا حبيبتي؟

- بابا كويس، وماما بس اللي تعبانة شوية، آخر مرة كنت عندها حسيت بكده...

- ألف سلامة عليها يا حبيبتي، عمومًا عندك عشرين يوم ممكن تقعديهم معاها.. الفترة اللي جاية هسافر كتير وهكون ما بين فرع الشركة في القاهرة وفروعها في الغردقة وبورسعيد واسكندرية...

- تلات أسابيع يا طارق؟ كتير!!

- هحاول أعدي عليكي في الأيام اللي هكون فيها في القاهرة... معلش يا حبيبتي الشركة بدأت تستعيد عافيتها، وكلفوني بمهام أباشرها بنفسي في فروعنا برة القاهرة...

- وهتبدأ إمتى؟

- إن شاء الله بعد تلات أيام...

- أوكي يبقى على رأيك هروح لماما آخد بالي منها شوية..

- طب ما تخليها تجيلك تقعد معاكي هنا...

- قلتلها بس هي مش بتستريح برة بيتها، وبالمرة يوسف يغير جو.. مش عارفة التلات أسابيع دول هيعدوا إزاي يا طارق، أنا من غيرك أموت.

- بعد الشر يا بسمة، هيعدوا بسرعة إن شاء الله، وبعدين ماهو هيكون معاكي حتة مني..

- ربنا يخليكم ليا يارب..

ذهب إلى غرفة النوم، فتح الكومود وأخذ منه ثلاثة آلاف جنيهًا، أعطاهم لها وأخبرها إذا احتاجت أي شيء آخر تتصل به، وإن وجدت هاتفه مغلقا تعيد الاتصال لاحقًا... قبلهما ورحل بسرعة، حتى لا تفوته سيارة العمل...

جلست بسمة تراودها الظنون من كل جانب وتتحرش بها، كلما تقاوم التفكير في مرام، تتفاجأ بالأمر يهاجمها مرة أخرى، هل طارق ملاك ولم يقابل، أو يسع لمقابلة مرام؟!! وإذا قابلها؛ ماذا حدث بعد ذلك؟ وإن لم يفعل هو.. فهل مرام لم تحاول الاتصال به أو مقابلته ورؤيته؟! آلاف من علامات الاستفهام جالت في خاطرها وتجولت بحثاً عن إجابة، شعرت بالإعياء من التفكير، فنفضت هواجسها عن رأسها على مضض...

عند منتصف اليوم، ذهب طارق إلى البنك لسحب عشرة آلاف جنيهًا، اتفق مع أحد السماسرة الذي استأجر له شقة مفروشة تبعد عن عمله مائة متر، ثم ذهب إلى أحد معارض السيارات للاتفاق على استئجار سيارة بعد ثلاثة أيام. لا أحد يعرف خبر زواجه من مرام سوى

مكتبة عابث الإلكترونية

إسلام صديقه وحمدي زميله في العمل، ولم يمانع في إشاعة الخبر بين أقاربها، فلا وجود لأي علاقة بينهم وبين عائلة بسمة.

مرام تعيش هي الأخرى أسعد أيام حياتها، شعرت أيضًا بالسلام النفسي، بعد أن تخلصت من الملايين المشبوهة التي كانت تؤرق ضميرها، اتفقت مع والدتها أن تعتني بابنتها طوال الثلاثة أسابيع القادمة، أعطتها خمسة عشر ألف جنيهًا، وأخبرتها أنها ستأتي لها بين الحين والآخر لتطمئن عليها وعلى ابنتها، وأخبرت أيضًا المربية المتفانية ألا تهتم بأي شيء سوى بابنتها ووالدتها...

*****

حفلات صاخبة شبه يومية في فيللا المهندس محمد - سابقًا - يتجمع فيها أصدقاء فيروز من أيام الجامعة ومن النادي وبعض الذين تعرفت عليهم في مراكز التجميل المختلفة.

لم تخل هذه الحفلات من الرجال أيضًا، فقد توسعت دائرة معارفها من النادي والفيس بوك، ولا يخلو الأمر من أن يداعبها أحدهم أو يرمقها بنظرة إعجاب أو رغبة، فلا تحرم نفسها من المتعة.

زاد طول لحية محمد أكثر، صار وجهه أكثر بؤسًا، احتله الشحوب وهاجمته التجاعيد حول العينين، لا يشعر بالوقت ولا يعير له اهتمامًا، يسحب باستمرار من المبلغ الهزيل الذي باع به السيارة، لوجبة غداء لا يأكل ربعها، أو ثمن غرفته القذرة المكممة الرائحة في

البلسيون الحقير.. يريد العيش وسط الناس حتى وإن كان خائفًا، كي لا يعيش منفردًا فتطارده الهواجس وينتحر وإن كان يقضي أغلب اليوم متسكعًا في شوارع وسط البلد...

بالإضافة إلى وظيفة في الصباح، ووظيفة أخرى بعد الظهر، استطاع علاء أن يسترق ساعتين يوميًا منكبًا على لوحة مفاتيح حاسوبه لكتابة الرسائل العلمية، أسوةً بطارق في بداية حياته العملية، مستغلًا سرعته الفائقة في الكتابة... اتفق مع مدرسين ومكتبات الجامعات وطلبة الماجيستير، كان لديه استعداد أن ينحت في الصخر كي يحظى في النهاية بهدير، أما الأخيرة فكانت تحفزه وتشجعه، وتباشر أعمال محارة الشقة وتركيب أسلاك الكهرباء، ربما لم تبذل مجهودًا مثله، لكنها أعطته أغلى شيء تمتلكه فتاة.... قلبها.

شريف أيضًا استلم القرض ونعاقد على محل لغسيل وتشحيم السيارات وبيع بعض قطع الغيار، اختار مكانًا مناسبًا في الشيخ زايد بأكتوبر، جعل أسعاره أقل من الآخرين، إيمانًا بمبدأ الربح القليل يجعلك تربح أكثر، يقدم خدمة وليست سلعة، وبإمكانه التحكم في سعر هذه الخدمة كيف يشاء...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

مسجد الشرطة - طريق الأوتوستراد " شارع صلاح سالم " ...

دخل طارق ببدلته السوداء تتأبطه مرام بفستانها الأبيض، في حضور بعض أقاربهما. وضع يده في يد خالها، يتوسطهما المأذون الذي - بعد أن انتهى من آخر جملة " والله خير الشاهدين "- ولم يلبث أن دعا الحضور للدعاء لهما، حتى نظر لها مبتسمًا، فوجدها تخطف له نظرة في خجل،وقد ارتسمت على محياها ابتسامة ساحرة، نهضا في وقت واحد، أمسكها من يدها وركضا للخارج وسط فرحة كل الحضور....

ركبا السيارة، وانطلق طارق بعيدًا يرمقها من حين إلى آخر، فيجدها تنظر له، ثم توقف فجأة، نظر لها سارحًا في عينيها للثوانٍ ثم نفض رأسه غير مصدق، كرر هذا ثلاث مرات، فتضحك مرام:

- أنا على فكرة عارفة انت حاسس بايه..

- أنا عارف إنك عارفة.. طب أعمل إيه أنا خايف أموت م الفرحة...

أطلقت شهقة وقاطعته بأنامل وضعتها على شفتيه "بعد الشر عليك يا حبيبي"... جعلته يخرج من السيارة، ويقف أعلى مقدمتها ناظرًا للسماء ممددًا يديه وبأعلى نبرة تكلم بها: بحبك يا مراااام

فنزلت من السيارة تلحق بقلبها الذي ركض لطارق، نزل إلى الأرض وحضنها بقوة، جعل كل السيارات المارة بجانبهما في الأوتوستراد يهدءون السرعة ويطلقون أبواقهم ليباركون لهما...

بعد قليل، وبعد استيعاب جزء بسيط مما آلا إليه، سألها عن المكان الذي تود أن تذهب إليه، أجابته بشرود:

- يا حبيبي أنا مش عاوزة حاجة تاني، أنا بقيت ملكك، إيه تاني هتمناه.. مش هيفرق المكان.

- نفس شعوري يا روح قلبي، فاكرة زمان أيام الجامعة لما كان نفسنا إن يكون شهر العسل في الساحل الشمالي؟

- ياااااااااااه يا طارق، طبعًا فاكرة.. بس ممكن نخلها في أي يوم تاني، إحنا من فرحتنا نسينا نرتب للموضوع ده...

- طب تحبي نقضي تلات أسابيع العسل فين؟

- في بيتنا... أنا مايهمنيش أي مكان، وهستمتع بأي مكان انت موجود فيه، لأني مش مبصله وهفضل بصالك إنت...

نظر لها شاردًا، كان دومًا يشعر أن حبهما هذا لا ينبغي أن تكون نهايته مثل أي نهاية أخرى، لا يمكن أن تكون مجرد نقطة في بحر من الألم، بالرغم من آلام الفراق التي عاش فيها سنوات مرت عليه كالدهر، كان يدرك أن هناك شيئًا ما سيحدث حتمًا وستعود مرام لحضنه مرة أخرى تروي ظمأ قلبه، وصلا إلى بيتهم بمدينة ٦ أكتوبر بعد ساعة ونصف، لمحتهم جارة كانت واقفة في الشرفة بالصدفة، أطلقت زغرودة لهم، لوَّحا لها، ثم صعدا إلى الدور الثالث حيث شقتهم.

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

- مالك يا بنتي؟ إيه كل الدم ده؟

ردت بسمة على والدتها ممسكة بإبهامها وتتألم...

- مافيش يا ماما أنا كنت بفتح أمبولة الحقنة بتاعتك فعورتني.

- معلش يا حبيبتي ادخلي اغسلي إيدك، أنا عارفة إني بتعبك معايا يابسمة معلش...

- ماتقوليش كده يا ماما أنا حياتي كلها ليكي، ربنا يخليكي ليا يا رب.

دخلت بسمة الحمام، واضعة كفها تحت صنبور المياه، كلما تقاوم التفكير في خيانة طارق لها، تجد نفسها استسلمت تمامًا لهذا الشعور حتى جرحت يدها جراء شرودها... قطع تفكيرها يوسف عندما نادى عليها... يوسف ذو الملامح القريبة جدًا من والده، هو الذي يهون عليها مرارة أيام سوداء قادمة بدون طارق. كيف سيمر عشرون يومًا هكذا؟!! لحظات الصدق التي تعيشها الآن في زهد عاطفي مع نفسها جعلتها تشفق على مرام. الآن تشعر بما شعرت به في سنين فراقهما...

انتهت والدة مرام من الصلاة وجلست تدعو لابنتها أن يهدئ الله سرها، ويجعلها سعيدة دائمًا في حياتها. برغم وجود المربية معها إلا أنها تظل طول الوقت مع ندى، تداعبها وتلهو معها أغلب الأوقات، لا تنام إلا إذا نامت بجوارها....

*****

ما إن دخلا وأغلق طارق الباب، نظر إليها، فخفق قلبه بقوة حتى كاد ينفجر بداخله. هيَ أيضًا كان لديها نفس الشعور. لكنه ممزوج بالخوف والرهبة، التي زالت تدريجيًا بعد أن أمسك يدها وزرع قبلة في راحتها ثم وضعها على خده. نظرت له بعينها الواسعتين. قالت له كلامًا كثيرًا من خلالها، فهم طارق كل الذي قالته.. لم يخطر بباله أنها ليست بكرًا. وضع يده على خصرها وقبلها على جبينها برفق، نظرت إلى الأرض بعد أن أحمرَّ وجهها خجلًا، أبدت له رغبتها في أن يكون أول شيئًا يفعلانه هو الوضوء والصلاة بنفس ملابسهما. كما اتفقا منذ ثمان سنوات. توضآ وصلَّا، ابتلت سجادة الصلاة بدموعهما، التي انفجرت، ودوى صوت نشيجهما هدوء الشقة...

زال التوتر تمامًا بعد الصلاة، انطفأت رهبتهم، شرع يخلع طرحتها وهو يقبلها، فابتعدت في خجل، واستأذنته متوسلة أن تدخل الحمام، فأومأ رأسه بالموافقة، ثم جلس رافعًا رأسه ناظرًا للسقف، متخيلًا خسارة كل دقيقة تمر عليه بدونها، انتظر، وانتظر حتى شعر بالملل، انتظر أكثر، فتحول الملل إلى ريبة، ثم استحال سريعًا إلى قلق..

طرق على الباب فلم يجب أحد، طرق عدة مرات ولا مجيب، ملايين الاحتمالات التي مرت بطارق في هذه اللحظة، فاضطر إلى كسر الباب، دخل بسرعة متلهفًا..... فاتسعت حدقتاه...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

بعدما انتهت من إعطاء والدتها الدواء، واطمأنت عليها، وأعدت العشاء لوالدها وابنها وخلدا للنوم، دلفت إلى غرفتها بقنابل ظنونها، التي ستفجرها عند هذا الكمين القابع في أحد زوايا الغرفة. مددت جسدها عليه لتنفرد بهدوء الليل - أو ينفرد هو بها - شعرت باضطراب وانقباض في قلبها وقلق يعتلج به، وغصة في معدتها.. عصفت رياح الشك بتفكيرها، فاتصلت بطارق بعد تردد، فلكمتها في صدرها تلك السيدة عندما قالت "الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا "... علّقت نظرها بسقف الغرفة فرأت طارق يداعب ظلمته ومعه مرام. شعرت بوخزة أقوى في قلبها، حاولت - بلا جدوى - أن تُكذب إحساسها، شعرت برغبة في التقيؤ، نهضت بسرعة قاصدة الحمام، تقيأت ثم جلست على الأرض، بعدما لاح في وجهها الضيق والخوف والقلق.... شردت بخيالها لثوانٍ، ثم أجهشت بالبكاء....

*****

بتعيطي ليه يا حبيبة قلب طارق؟ أنا كنت هموت م القلق...

قالها طارق لمرام، التي انزوت في أحد أركان الحمام، واضعة رأسها على ركبتيها، تبكي في صمتٍ مطبق. رفع وجهها برفق، فوجد عينيها حمراوتين من الدموع التي اختلطت بكحلها، حضن دموعها بباطن كفه، وسألها بقلبٍ منفطر...

- آآآآه ياقلبي. بتعيطي ليه يا كل حاجة في حياتي؟

- مافيش يا طارق.

- وحياة طارق عندك يا مرام قوليلي بتعيطي ليه انتي حرقتي قلبي. دموعك دي سكاكين بتطعن فيا وبتخليني زي المجنون.

- بعيط يا حبيبي على الأيام اللي عشتها من غيرك، مش عارفة إزاي عشتها، بعيط من فرحة رجوعنا لبعض وبقينا في بيت واحد...

- ربنا يسامحه بقى. وأدينا أهو الحمد لله رجعنا تاني لبعض بعد فراق سنين، وأعاهدك إني أعوضك عن كل اللي فات، وهبدأ من دلوقت...

نهض فجأة وحملها كطفلٍ صغير فصرخت بصوت خافت متوسلة له بخجل أن يتركها فلم يأبه لتوسلاتها، قبّلها على جبينها، ثم دلف إلى غرفة النوم ووضعها برفق على السرير، تبادلًا نظرات الحنان وهو يخلع طرحتها، امتلكته دهشة عارمة عندما رأى لأول مرة شعرها الناعم الطويل الأسود الفاحم، خصلاته كأمواج بحرٍ في ليلة صيفية رائعة، كشلال منبعه الجنة، ضم وجهها الذي يحمل براءة شهية بكفيه في حنان، طاف ببصره في مفاتنها:

- فاكرة لما كان نفسي أشوف شعرك أيام الكلية وإنتي قولتيلي لأ متبقى تشوفه لما نتجوز.... انتي عارفة إن شعرك يجنن؟ ماكنتش أعرف انه حلو كده. جمالك بالتحجيبة ليه شكل.. ودلوقتي بشعرك الطويل الاسود ده. جمالك حاجة تانية خالص... وهيبقى حاجة تالتة لما تلبسي قميص النوم الأسود اللي اتفقنا عليه...

مكتبة عابث الإلكترونية

قالت بابتسامة خجولة، فارتسمت نغزتها على وجهها:

- أنا جمالي ده كله بسببك انت يا حبيبي، انت اللي رجعتهولي تاني برجوعك، وكل حاجة فيا ملكك..... لوحدك.... إنت.....
بسسسسسسسسسسسسس...

قالتها بهمس خافت ونظرة إغراء تبيح له التهامها بلا رحمة، وغنج قاتل بينما تلمس شفتيه بأناملها، وقد تسمرت نظراتها لشعر صدره الكث... ضاع منها فاحتاج لنصف دقيقة ليلملم ما تبعثر منه، شعر بالغرفة تلف به، وقف على السرير واضعًا يده على خصره، لازال غير مستوعب ما هو فيه، وأخذ يلتفت يمينه ويساره كالمجنون.. خشي أن يكون في حلم وحان وقت إيقاظه. وقفت هي الأخرى وقبلت باطن كفه، همّ ليقبلها فلمست أنفاسه صفحة وجهها، فأشارت في خجل بعينيها لنور الغرفة ليطفئه، فأومأ رأسه بالرفض، فهو يريد أن يراها في كل لحظة وهو يمارس معها الحب..

ما يحدث بينهما في هذه اللحظة ليس مجرد جنس أو معاشرة زوجية، أو شهوة مشتعلة تُمارَس في الظلام، وسرعان ما تنطفئ بمجرد أن ينتهيا منه... إنه أرقى وأسمى من ذلك بكثير، إنه متعة نظر أحدهما للآخر في هذه اللحظة، التحرر من قيود الزمان والمكان فيعتريهما خدر يسري بداخلهما، انفراج نافذة شبقهما على مصراعيها ورغبة كل منهما الجارفة في غرس عشقه في صحراء اشتياق الآخر، تبادل رغبات كل منهما للحنان الذي طالما افتقده من الآخر، نشوة شعور أحدهما

بالمس الآخر عندما يُقبِله ويبتلع لعابه، لذة اختلاط عَرَق كُل منهما عندما يلتصق جسداهما فتُهاجم أنفهما رائحة هذه اللذة، الذوبان الناتج عن لثم شفتيه لشفتها، حتى يصلا لمرحلة الانصهار والامتزاج...

*****

طوال الثلاثة أسابيع التالية، لم يرَ بسمة عند والدتها سوى مرتين، ليطمئن عليها وعلى يوسف، وليؤكد لها مدى انشغاله وضغط العمل عليه، ويخبرها أنه قلما يذهب للبيت لأخذ بعض أغراضه فقط ويعود سريعًا لعمله، كانت تقتنع - أو هكذا تتظاهر - حتى لا تمثل عبئًا عليه إن كان حقًا صادقًا في كلامه. لكنها تشعر دائمًا بأن شيئًا غير طبيعي يحدث، وتنتظر انتهاء الثلاثة أسابيع حتى تعود لبيتها وتتحكم في مجريات الأمور بشكل أكبر.

طوال هذه الفترة لم يدع أي لحظة تمر هباءً بعيدًا عن مرام، محاولًا بكل ما أوتي من مجهود أن يعوضها، ويعوض نفسه عن السنوات التي ضاعت، بينما أخذت الفجوة بينه وبين بسمة في الاتساع، تزداد اتساعًا كل يوم عن اليوم الذي يسبقه..

حتى بعد عودة بسمة لبيتها، لم يعد يداعبها كما في السابق، لم يعد جسدها المثير يلهب غريزته، عودته لمرام وحبه لها الذي يزداد يومًا بعد يوم أفقده مشاعره نحو بسمة وإحساسه بها، كثيرًا ما يكون معها وعقله مع مرام، يتذكر شهقاتها وعبق أنفاسها العالقة دومًا في ثنايا

مكتبة عابث الإلكترونية

جسده، صوتها الذي لا يفارق مسامعه، لمسة يديها ونظراتها لم تزده إلا عشقًا فوق عشق.. ولم تعد بسمة تحتمل تأخره خارج البيت، وكلما تسأله عن السبب يذكِرها بجِدة بما قاله لها عن زيادة عدد ساعات العمل...

*****

عاشت فيروز حياة فوضوية بلا أي معنى أو هدف، لاهثة وراء شهواتها غير آبهة بالعادات والتقاليد وكلام الناس، تنفق ببذخ، معتمدة على ثمانين ألفًا كان محمد يودعهم احتياطيًا في خزينة الفيللا بالإضافة إلى مائة ألفًا قد أخذتهم من معتز يومًا. كانت تعلم جيدًا أنه حتمًا سيأتي اليوم الذي ستنفد فيه هذه المبالغ، لا سيما أن هناك مربية وخدم وطباخين، علاوة على إنفاقها على حفلاتها الماجنة ومراكز التجميل وملابس واكسسوارات. باعت سيارتها الفارهة، ولجأت لوالدها، الذي كان على عِلم بأخبارها وأفعالها. حذرها كثيرًا من تكرار ذلك، وألح عليها أن تكف عن هذه الأفعال وتأتي لتعيش معه، لكنها كانت ترفض وتتمادى أكثر وأكثر، حتى وبخها في النهاية وطردها من بيته وقطع علاقته بها. لم تجد طريقًا آخر للحصول على أموال سوى الاقتراض من صديقاتها، فرفضن جميعًا متذرعات بحجج واهية، باستثناء صديقة لها تقطن في الفيللا المجاورة تدعى مي شاكر، والتي عرضت عليها شراء الفيللا، مع استمرار إقامتها بها بعقد إيجار، حتى يعود أخيها من كندا بعد عشرة أشهر، فوافقت فيروز على الفور، رغم أن مي عرضت عليها ثمنٍ بخس.

محمد أيضًا حياته أصبحت كاحلة أكثر وأكثر، أوشك المبلغ الذي معه على النفاد. فكر كثيرًا في الذهاب لمرام لتساعده، لكنه متأكد من أنها ستوبخه وتمقته ولن تعطيه مليمًا. كره حياته وفكر كثيرًا في الانتحار، لكنه يعي تمامًا أنه أضعف من أن يتخذ ذلك القرار....

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

بعد ثمانية أشهر...

- بسم الله ماشاء الله... البيبي دلوقتي دخل في الأسبوع التمانية وعشرين، ونموه اكتمل تقريبًا، دلوقتي انتي هتبدئي مرحلة جديدة، تحاولي تمشي كل يوم ولو عشر دقايق، تاكلي فاكهة كتير، وأهم حاجة تقللي الملح في أكلك وتشربي كركديه ساقع كتير لأن واضح إنك عصبية وضغطك عالي، ودة مش صح...

بعدما انتهت الطبيبة من سرد نصائحها لمرام، كتبت لها بعض الأدوية والفيتامينات...

منذ حوالي خمسة أشهر، عندما عاد طارق ومرام من معمل التحاليل وتأكدا أنها حامل في الأسبوع الخامس، تغيرت حياتهما رأسا على عقب، بدأ طارق ينظر للحياة من نافذة أخرى، نافذة جديدة تطل على مستقبل آخر غير الذي كان يخطط له من قبل. طالما حلم أن يكون له ابن من مرام، ينظر له دائمًا، يحبه منذ اللحظة الأولى التي يفتح فيها عينيه على الدنيا، يراقبه وهو يكبر أمامه لحظة بلحظة...

لم يمر عليه يوم إلا وقال في قرارة نفسه "مشوف إمتى ابنى من مرام"، أضناه انتظار تلك اللحظة. والآن أغرورقت عيناه عندما رأى فلذة

أبده منها على شاشة السونار، وقد وضحت صورته وسيحل عليه بعد شهرين لينير حياتهما...

كل يوم يمر عليه يكون أصعب من الذي سبقه، حريصًا على اهتمامه بمرام وبحملها، والدتها تمكث معها في منزلهما برفقة ابنتها ندى وتربيتها حتى يهتموا بها في الوقت الذي يكون فيه عند بسمة،

من ناحية أخرى: كان حريصًا جدًا ألا تشعر بسمة بأي شيء غريب قد جدَّ في حياته... أحيانًا كانت تمتعض من تقصيره معها ومع يوسف، لكنه كلما كان يشعر بالشك والريبة قد تسللا إليها كان يأخذهما إلى أي مكان يختارانه ويقضي معهما ليلة سعيدة...

ظل هكذا طوال هذه الفترة: كالذي يمشي على الحبل. يحاول بكل ما أوتي من قوة، صبر، وجَلَد أن يخلق التوازن الأمثل، يمشي كل خطوة بحذرٍ شديد.....

لم ينس أيضًا عائلته التي عاش معها النصف الأول من حياته، حرص دائمًا على متابعتهم والسؤال عن والدته ووالده، وعن آخر تطورات مشروع شريف، وتابع بشغف ما وصلت إليه هدير مع علاء...

إحداث توازن كهذا صعب الحدوث، بالرغم من أنه وجد بعض المشقة في ذلك، لكنه كان يشعر بالمتعة عندما يجد نفسه - من وجهة نظره - قد أعطى كل ذي حق حقه، لأنه لن يحتمل تأنيب ضميره إذا وجد

مكتبة عابث الإلكترونية

نفسه مهتمًا بطرف على حساب الأطراف الأخرى.. أو إذا خُيِّل إليه ذلك، حيث إن بسمة كان لها رأيًا آخر...

منذ ذلك اليوم الذي اختطف فيه طارق وتم نقله إلى مستشفى المعاز التخصصي حتى هذه اللحظة وهي تشعر معه بتغيير في المعاملة. كلما انفردت بنفسها تفاجأ بسهامٍ من الأسئلة يتبعها علامات استفهام تُرشق في عقلها من كل صوب، يقتحم عزلتها حوار ساخن، بل شجار طاحن بين قلبها وعقلها؛ فيقول لها الأخير إن طارق لا يفعل شيئًا يغضبها، بينما يعترض قلبها على هذا ويرفضه... طيلة هذه المدة كانت في الغالب شاردة الذهن، تحاول ألا تشعر طارق بذلك وتتحاشى دومًا أن تتلاقى عيناها بعينيه، حتى لا يلمح الحزن الذي سكنها، أو يرى الدمعة التي تقف على حافة جفنها، أو يلاحظ هذه الرموش التي طالما غازلها، وقد أصبحت الآن ذابلة مثل الوردة التي أهملت... معظم كلامها أصبح صمتًا، كل ردودها أصبحت أحرف معدودة مقتضبة، عندما يلاحظ طارق هذا الشرود يحاول - عبثًا - أن يداعبها أو ينتشلها مما هي فيه، فيفشل أن ينتزع منها ولو ابتسامة، وإن ابتسمت فتكون ابتسامة صفراء مُجاملة لا تتعدى ثغرها، كالوردة التي ليست لها رائحة ولا لون يميزها. لأنها زُرعت مرتوية بدموعها وسط حديقة قلبها الجدباء المقفرة.

*****

أداء حفلة من حفلاتها الصاخبة، تعرفت فيروز على شاب يصغرها بسبع سنوات، أخو إحدى صديقاتها، أعجبت به وراقت لها هيئته وتكوينه الجسماني وجرأة نظراته.

بعد حوار لم يتعد خمس دقائق، اتفقت معه أن ينتظرها داخل الفيلا إلى أن تنتهي الحفلة، وكالعادة أخبرت الخدم أن يرحلوا، ومربية ابنتها أن تأخذ البنت إلى غرفتها وتغلق الباب عليها من الداخل، لتخلو لها الفيلا وفعل ما يحلو لها...

بالفعل انتهت الحفلة، وانتظرها بالداخل، لكنه لم يكن بمفرده؛ فقد اتفق مع صديق كان معه أن يرافقه ويختبيء في إحدى الغرف... بينما هو ينتظرها عند البار...

انصرف كل الحضور مع بدء شروق شمس اليوم التالي حوالي الساعة السادسة والنصف صباحًا، دخلت سكيرة ورائحة الخمر تفوح من فمها، اتجهت نحو البار، حضنته وشدته من معصمه إلى الطابق الأعلى في غرفة النوم، وبمجرد دخولهما الغرفة فوجئت بصديقه يخرج من الغرفة التي كان مختبئًا بها، جذبوها بالقوة للداخل، وتناوبوا الاعتداء عليها بعد أن جرداها تمامًا من ملابسها، ثم اغتصباها بقوة وإذلال ومهانة وسط صرخاتها وتوسلاتها أن يتركاها مقابل أي شيء يطلبونه، ظلت تبكي وتصرخ بصوتٍ عالٍ.. كلما يعلو صوتها كلما صفعاها أكثر بجنون وهيستيريا، أحكم أحدهم قبضته على رقبتها وطلب منها أن تعطي كلًا منهما عشرة آلاف جنيه فوافقت على الفور،

مكتبة عابث الإلكترونية

أسرعت إلى الغرفة المجاورة حيث تستقر الخزينة في سلام. وبينما تفتحها لتأخذ منها عشرين ألفًا، جحظت عيناها عندما رمقت البندقيتان المعلقتان فوقها، التقطت إحداهما، فتفاجأت بالشابين يدخلا عليها الغرفة. أطلقت بيدٍ مرتعشة رصاصة اخترقت رقبة أحدهم وسقط ملاقيًا مصرعه في الحال، فانقض عليها الآخر بقوة محاولًا أخذ البندقية منها أمام مقاومتها. لكنه نجح في النهاية في أخذها منها بالقوة، ضربها بمقبضها الخلفي في رأسها عدة ضربات قوية، حتى تهشم رأسها، وأصيبت على أثرها بنزيف داخلي في الجمجمة، ولاقت ربها هكذا.. عارية... مخمورة...

جرد الشاب الخزينة من كل ما تحتوي من ذهب وأموال، نظر يمينه ويساره في قلق ثم فر هاربًا، بينما كانت المربية في إحدى الغرف تراقب المشهد من خلال ثقب المقبض، واضعة يدها على فم جودي حتى لا تصدر صوتًا ويشعر أحد بها، جرت نحو النافذة لتتأكد من ابتعاد الشاب الهارب من الفيلا، ثم هرعت إلى الهاتف...

*****

بينما كان مستقلًا سيارة العمل في طريقه للشركة، فوجئ باتصال مرام به وهي منهارة تمامًا لا تستطيع التفوه بكلمة كاملة؛ بالكاد فهم منها أنها تريده أن يحضر لها حالًا. لم تمر ربع ساعة حتى وصلت السيارة إلى مقر الشركة، عبر الشارع فقط حيث شقتهما، طرق الباب في قلق، خشى أن يكون حملها قد سقط، فتحت له فوجدها في حالة مذرية

وانهيارٍ كامل، ضمها إلى صدره حنان ليهدىء من روعها، سألها مخطوفًا:

- في إيه يا حبيبتي؟ حاجة حصلتلك أو حصلت لابننا؟

- ف... ف... فيروز

- فيروز؟ فيروز مين؟ بالراحة بس...

- ف... فيروز اتقتلت... فيروز اتقتلت يا طارق...

صمت برهة وجيزة محاولًا استجماع تركيزه

- مش فيروز دي.. مش فيروز دي مرات محمد أخوكي؟

- آآآ....آه مراته.

- طب اهدي.. اهدي يا حبيبتي. إية اللي حصل واتقتلت إزاي؟ ومين اللي قالك؟

- محمد أخويا، المربية بتاعت بنته اتصلت بيه وقالتله، بعدها اتصل بيا بعرفني أنا وماما... والمربية قالتله إن هي كانت مع شاب ساعتها...

- إزاي؟ مش المفروض محمد عايش معاها؟ انتي قصدك إنها خانته؟ إهدي أرجوكي...

مكتبة عابث الإلكترونية

- لا ماهو محمد طلقها من فترة كبيرة وسابلها الفيلا، بس مش عارفة إية السبب بالظبط، ممكن يكون حس أو عرف إنها كانت على علاقة بمعتز...

سكتت فجأة، واتسعت عيناها إدراكًا.. تشبث طارق بآخر كلمة قالها وقد بدت الدهشة عليه...

- إيه؟!! انتي قولتي إية؟ هي كانت على علاقة بمعتز؟

شعرت أنها وقعت بلسانها، فأوقعت نفسها في ورطة. لم تكن تريد أن تذكر هذا الموضوع حفاظًا على كرامة أخيها... اضطرت أن تخبره...

- طارق الموضوع ده أرجوك مايطلعش برة. دي واحدة بقت دلوقتي في ذمة الله... فيروز كانت على علاقة بمعتز. وكانت متفقة معاه على قتلك ساعة ما اتخطفت، هي اللي رتبت خطة خطفك، وكانت بتساعد معتز في موضوع الأعضاء البشرية... أهي اتقتلت وراحت لحال سبيلها...

وقف مندهشًا مما يسمعه، لكنه نفض رأسه عن تلك الدهشة فليس وقتها، وذهب معها إلى الفيلا...

في طريقه إلى هناك، كان كل ما يشغله ويشغل تفكيره ماذا سيفعل عندما يرى محمد وعيونهما تتلاقى. هذا السمح الذي كان السبب في كل المصائب والمعاناة والمتاعب التي حدثت له في حياته، هذا الرجل

الذي تسبب في معاناة قلبين لا ذنب لهما سوى أنهما أرادا البقاء معًا للأبد...

*****

عند الباب تستقر جثة لشاب ملقى على وجهه وعينيه مفتوحتين كادت أن تنفجر، على بعد ثلاثة أمتار جثة فيروز العارية الملطخة بالدماء، المهشمة الجمجمة ملقاة على الأرض بجوار الخزينة، حولها فريق من المباحث يرفع البصمات ويصور المكان. في الغرفة الأخرى، يحقق فرد من النيابة مع المربية، وتجلس جودي على حجرها منهارة من البكاء...

في الأسفل، يجلس محمد على الدرجة الثالثة من السلم المؤدي إلى الدور العلوي، بائس الملامح، واضعًا رأسه بين كفيه ناظرًا للأرض، مهينة أقرب لمتسولي الشوارع، باللحية الكثة التي يتخللها بعض الشعرات البيضاء، والملابس القذرة المهترئة العطنة الرائحة، التي يشمها من يبعد عنه بمترين، والشعر المجعد القذر الذي هاجمه الشيب من الجانبين، لم يتبق معه سوى ثلاثة آلاف جنيه، وينفد ذلك المبلغ الذي باع به السيارة...

برغم بكائه الشديد على فيروز، وحزنه الذي اقتحم قلبه بسبب مقتلها، لكن عقله كان مشغولًا بالفيلا ومحتوياتها، فمقتلها حدث في الوقت المناسب لاسترداد الفيلا، بزعم أنه والد الطفلة، إنها القشة التي ستنجيه من الغرق...

مكتبة عابث الإلكترونية

تفاجأ بدخول مي شاكر صديقة فيروز، والتي اشترت منها الفيلا بلدي بخس منذ سبعة أشهر، تعجب من حضورها المفاجئ ونبرتها الواثقة مع وكيل النيابة، الذي تصادف وجوده بالأسفل لفحص باقي الفيلا..

- صباح الخير يا فندم... كنت عاوزة أعرف حضراتكم متخلصوا تحقيقات إمتى؟ والفيلا هتفضى إمتى؟

سألها وكيل النيابة محدقًا:

- مين حضرتك؟ ولية بتسألي الأسئلة دي؟

- حضرتك أنا مي شاكر صاحبة الفيلا دي، وكنت مأجراها للمرحومة، أدي العقد اللي يثبت ملكيتي للفيلا متسجل في الشهر العقاري من سبع شهور، وأدي عقد الإيجار اللي يثبت إنها كانت مأجراها مني لحد ما أخويا يرجع من كندا بعد عشر شهور... وكان ناقص في عقدها تلات شهور...

نظر وكيل النيابة إلى العقد جيدًا متفحصًا الأختام..

- على العموم حضرتك تقدري تقدمي أوراقك دى للجهات المختصة لإثبات صحة التوقيعات. والفيلا هتفضى بعد أسبوع بالكتير قوي ...

- شكرا جدًا لحضرتك. هبقى أبعت المحامين بتوعي يباشروا الموضوع ده.. ميرسي جدًا ليكو

وقف محمد مذعورًا بعدما سمع ذلك الحديث، استوقفها ليستفسر منها أكثر، تحدث معها وهو يهتم بصوتٍ متحشرج..

- ... مدام مي، إيه موضوع العقد اللي معاكي ده؟

نظرت له لهنيهة بعينٍ ضيقة متفحصة في تعجب واستهجان محاولة تذكره، تذكرته أخيرا ونظرت له شذرًا واضعة منديلًا على أنفها إشارة الى ضيقها من تلك الرائحة الكريهة التي تفوح منه، تحدثت إليه باستعلاء وتأفف:

- نعم؟! عاوز إية؟ وإنت مالك!!.. ده عقد شرا الفيلا دي من فيروز، مالك. في حاجة؟!!

- آه في حاجاااات طبعًا... إنـ. انتي كداية والعقد ده مزور...

- مزور؟!!....

أخرجت نسخة من العقد وألقته في وجهه وسقط على الأرض..

- خد يا بيه ياللي بتقول مزور، إرفع عليا قضية وقول الكلام ده وأنا هبهدلك في المحاكم وهاخد منك تعويض وهسجنك وهرفع عليك قضية سب وقذف وتشهير...

ثم تركته ورحلت، بعد أن وبخته بألفاظٍ قبيحة، وبينما تخرج اصطدم كتفها بكتف مرام عند الباب، نظرت لها الأخيرة في دهشة، ولم تأبه لها

مكتبة عابث الإلكترونية

كثيرًا.. دخلت مستندة على ذراع طارق، فوجدت أخاها ساندًا على ركبتيه ويديه، يلتقط نسخة العقد الذي أُلقي في وجهه.

نهض في بطءٍ شديد، فوجد أخته تدنو منه متأبطة رجل، خطا نحوهما عرجًا، منحني الظهر، محدقًا بعين متفحصة نصف مغمضة، إنها لحظة الحقيقة...

تجمد فجأة بعد الخطوة الثالثة، استقام ظهره، لم تمر ثانيتين حتى ذُهل بصره حينما أدرك أنه طارق، الذي صُعِقَ هو الآخر عندما رآه في هذه الهيئة.... وقفا متجمدان يرمقان بعضهما البعض كتمثالين حجريين متقابلين في مقدمة متحف...

*****

جلست بسمة في حزن تتصفح الفيس بوك، آخر مرة نشر طارق صورة رومانسية على صفحتها كان من عشرة أشهر تقريبًا، فدخلت على صفحته تتفحصها، ربما تجد مرام عنده في قائمة الأصدقاء فلم تجد، حاولت - عبثًا - البحث عن اسمها في الفيس بوك، ولكنها وجدت آلاف النتائج، ساورها شعور قوي أنه على علاقة بها، أقوى من ذي قبل، خشيت أن تستخدم حيلًا أكثر ذكاءً، فتكتشف أنه بالفعل على علاقة بها، وتصبح ظنونها حقيقة لا تستطيع أن تتحمل مواجهتها.. لا تمتلك الجرأة والشجاعة لمواجهة هذه الكارثة...

فوجئت بشاب يرسل لها طلب صداقة، دائمًا ما تجد مثل هذه الطلبات فترفضها على الفور، إلا هذا الطلب، توقفت عنده، دخلت صفحته الشخصية، فكرت هل سترفض طلب صداقته أم لا؟... سمعت صوتًا بداخلها يحثها على قبول الطلب، قاومت هذا الصوت بصوتٍ عال، تحدث لها بصوتٍ أعلى، لأول مرة يتجرأ على أن يتحدث معها في مثل هذه المواضيع.. تسمرت وتجمدت عيناها، تعرف جيدًا هذا الصوت، ودائمًا ما كانت تقاومه وتهزمه، لكنه الآن استفل ضعفها، هوانها وحرمانها، وبخها وألح عليها بقوة لتقبل هذا الطلب..!

- إيه هيجرى يعني لو قبلتي طلب الصداقة ده؟ إقبليه مش هتخسري حاجة، انتي هتتكلمي معاه بس، وكلام بريء.. وبعدين طارق مش هيعرف أساسًا، وبعدين مهو بيخونك، ومش بعيد يكون بيخونك مع مرام دلوقت.. انتي بقالك قد إيه مانمتيش معاه ولا قرب منك ولا لمسك؟ تفتكري هو حاسس؟ تفتكري هو حاسس بالحرمان اللي عندك؟ حرمان جنسي وعاطفي ومعنوي.. ارضي غرورك شوية انتي بقالك قد إيه محدش قالك كلمة حلوة.. مش هتخسري؟

بينما على الجانب الآخر نصحها ضميرها ألا تفعل ذلك، فطارق لا يستحق هذا، في الحقيقة كانت حائرة ما بين هذا الشيطان وما بين ضميرها.. إلى أن أخذت القرار...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

وقف محمد في هوانٍ وانكسار يرمق طارق بحدقتين متسعتين، بينما الأخير ينظر له بعين ضيقة شاردة، بعد أن نفضت عروقه وضغطت دماءه إلى مخه كخرطوم سيارة إطفاء الحرائق. كلًا منهما تذكر نفس الشيء، نفس اليوم، يوم المؤامرة التي عانى منها قلبان، لم يملكا شيئا سوى علاقة حب عفيفة وحلم كبير... اضطرب محمد من نظرات طارق التي تنم عن غلٍ وكره، لن ينسى أنه أمام رجل حَطَّم حلمهما على صخرة طمعه وجشعه، كان حجر عثرة في طريقه لخلوده في جنة مرام، قتل أمانيهما وأهال التراب عليها بلا هوادة أو رحمة...

نظر لمرام وغمغم في عنجهية وحماقة مشيرًا بسبابته لطارق:

- انتي جايبة كلبك القديم معاكي عشان يشمت فيا طبعا لما يشوفني في الحال ده؟ جايبة ابن الـ.

قاطعته بغضب وحدة:

- عيب يا محمد. اللي بتتكلم عنه ده أرجل واحد في الدنيا، ع الأقل مش كداب، ع الأقل مش طماع، على الأقل رجل... مكافح وبعتمد عليه... الرجل ده يبقى جوزي يا محمد على سنة الله ورسوله، وللا انت فاكرني كنت بهزر معاك لما قلت لك إننا هنتجوز؟

قاطعها طارق بعينيه، قائلًا لمحمد ناظراً له نفس النظرة، وارتسمت ملامح الكره على وجهه بالكامل...

- ياااااه. لسة زي ما إنت؟!! كنت فاكر نفسك إنك هتملك الدنيا بطمعك، ماتتصورش أنا بكرهك قد إيه! ماتتصورش انت عملت فيا

إيه! قد إيه أنا شايفك حقير! مع إن الشماتة فيك ده شيء طبيعي، بس أنا مش زيك عشان أشوفك في الحال ده وأشمت فيك، أنا بس عاوز أقولك كلمة واحدة، اللي انت فيه ده نتيجة أعمالك السودة، ومع ذلك أنا مش مسامحك في اللي انت عملته معانا.

استطردت مرام:

- محمد.. مبقاش فاضل ليك حاجة غير بنتك، حاول تحافظ عليها، دي نصيحة من أختك الصغيرة، إبدأ من جديد واعمل اللي ماعرفتش تعمله قبل كده.

صمت محمد ثوانٍ، اغرورقت عيناه، ثم خر على ركبتيه، وابتلت لحيته الكثة بالدموع. بدا لأول مرة بدون قناع، تحدث دون حرج كأنه يتحدث إلى نفسه، لم يعد يملك أي شيء ليبكي عليه، غير مكترث قال بصوتٍ مبحوح:

- يااااااه يا مرام؟ فيللا إية؟ ومراتي مين؟ وبنتي فين؟ ومستقبل إية؟!! كل فلوسي راحت، وفيروز طلقتها.. عارفة طلقتها ليه؟ عشان جودي مش بنتي، عاوزة تعرفي بنت مين؟ بنت معتز جوزك يا مرام...

أخذت أخيرًا نصيبها هيَّ الأخرى من المفاجآت، تيبست من هول الصدمة، تعرف أنه يوجد علاقة بين معتز وفيروز لكن ليس لدرجة أن تكون قد أنجبت منه! شعرت بدوارٍ شديد وغثيان مفاجيء، أردف محمد في حسرة بصوتٍ واجف:

مكتبة عابث الإلكترونية

- البنت دي أنا اتأكدت إنها مش بنتي لأني اكتشفت مؤخرًا إني عندي عقم، الهانم اتحججت بإني كنت بسافر كتير وماكنتش مهتم بيها عشان كده خانتني ولقيت اللي يهتم بيها ويحبها، بنت الكلب أجيرتلي إني أطلقها لأني خفت من الفضيحة، وطردتني من الفيلا.. استفدت إيه دلوقت؟ أهي طلعت بايعة الفيلا من زمان، والفيلا مافيهاش ولا مليم...

لم تستطع مرام التحكم في دموعها، شعرت بالأسى مما تسمع ويحدث حولها، اعتصر قلبها مما رأته من الناس المريضة وأطماعهم وأخلاقهم، لم يكن طارق مصدومًا أقل منها جراء كلام محمد، اكتفى بالنظر إليه وهو يغادر بخطواتٍ ثقيلة متهدلة في بؤس، متخبطًا في مشيته والدموع تنهمر من عينيه، لا يعرف أين سيذهب، وماذا سيفعل...!!

ظل طارق ومرام واقفين لدقيقتين كاملتين صامتين، ثم نظر لها نظرة تسللت من خلالها الطمأنينة إلى قلبها، أمسك يدها وقبلها في هدوء، فابتسمت له وتأبطته وعزما الرحيل. عند الباب سمعا جودي تعاود صراخها. عاد لها طارق وأخذها من المربية ليريها مع ندى ابنتها، وابنهما الذي سيحل عليهم قريبًا. نظرت له مرام وابتسمت ابتسامة احترام وتقدير.. كل يوم يمر عليها، كل فعل يقوم به طارق يؤكد لها أنها كانت محقة عندما عشقته أكثر من نفسها...

مشيا لمسافة طويلة وسط الهدوء، حضن يدها بيده كي يزيل عنها رهبة الموقف، حذرها من أي مشاعر سلبية قد تؤثر على حملها، وحلمهما القابع داخلها...

وبينما يتحدث لها، سكت فجأة حينما تسلل له صوت غريب دوى في مسامعه.. "فيروز خانت محمد عشان أهملها وماكانش مهتم بيها... بسمة!

- طارق.... طارق... أنا بكلمك بقالي عشر دقايق انت سرحت في إيه؟

- قولتي.. كنتي بتقولي إيه يا مرام؟....

قالها شاردًا عنها تمامًا.. نفض رأسه بقوة محاولًا طرد ذلك الصوت من أذنه، متمتمًا بصوتٍ خافت:

- لالالالا.. أكيد ماتعملش كده...

قالت له مرام مستفسرة رافعة حاجبيها:

- مين دى يا طارق اللي أكيد ماتعملش كده؟!!

- مافيش حاجة يا حبيبتي...

قالها، وردد الجملة عشرات المرات في نفسه... "بسمة ماتعملش كده"....

*****

انهزت نوم يوسف وهدوء المنزل، فقبلت على الفور طلب الصداقة، فوجدته online. بادر بالحديث معها، في البداية كان التعارف، شعرت برهبة، فلم تتحدث إلى شخص لا تعرفه من قبل. بدأ معسول الكلام، بما كان كافيًا لتتحدث معه بأريحية أكثر. استأذنته عشر دقائق،

مكتبة عابث الإلكترونية

نهضت وفتحت دولابها وارتدت قميص نوم أحمر قصير مثير، مشطت شعرها وأسدلته على ظهرها وتعطرت بالعطر الذي يحبه طارق، خطت بالكحل رموشها الطويلة التي تحيط بعينها الواسعتين، ثم وضعت بعض الأحمر على شفتيها المكتنزتين، نامت على جانبها الأيسر ممددة ساقيها المرسومين بإتقان قبل أن تضع أمامها حاسوبها المحمول..

سألها إن كانت متزوجة، فأجابته بنعم، نسخ لها منشوراتها التي تنم عن حزن يسكن أعماقها، وأخذ يتحدث معها بجرأة أكثر، حتى وصل إلى سؤالها عن علاقتها بزوجها... شعرت بقشعريرة سرت في جسدها بالكامل.. تحدث بلا خجل.. عن الحب، الجنس، النشوة.. تخدَّرت أكثر ولم تجبه، وأخيرا فوجئت به يطلب منها مقابلتها وممارسة الجنس معها واعدًا بتعويضها عن قسوة من يهملها..

جحظت عيناها، رمقت ما حولها في ذهول، نظرت في دهشة إلى ساقيها الممددتين أمامها، استفاقت فجأة وحذفته، ثم حذفت المحادثة بالكامل..

- يانهار أسود إيه الكلام الفارغ اللي بعمله ده؟ إيه العبط ده؟!!

نهضت كالمجنونة واضعة يديها على خصرها رافعة رأسها مغمضة عينيها حبسًا لدموع تريد أن تنفجر، ضربت باب الغرفة بقبضتها عدة مرات، وقفت أمام مرآة التسريحة، فتحت عينيها فانسالت دموعها الساخنة على وجنتيها في صمتٍ وهدوء، رمقت وجهها بالمرآة، علَّقت نظرها لوجهها باستحقار شديد... أطالت النظر.. أطالت أكثر، ثم بصقت بقوة على المرآة، فتحت الدرج في انفعال بيديها المرتعشتين،

أمسكت بمقص، قصت خصلة من شعرها وألقتها على الأرض قبل أن ألقي بجسدها على السرير، وظلت تبكي حتى استغرقت في النوم...

*****

الساعة الخامسة مساءً، بعد أن ذهب مع مرام وبقي معها عدة ساعات ليطمئن عليها، واطمأن أنها تناولت الغداء وأخذت الفيتامينات ونامت، أوصى المربية على البنتين، ثم ذهب لبسمة.

دخل المنزل، فسمع صوت نشيج بسمة من غرفة النوم، دلف إليها فوجدها مستلقية على السرير دافنة رأسها تحت الوسادة، قميص نومها منحسرًا إلى الأعلى كاشفًا عن فخذيها وبجانبها حاسوبها المحمول. مسح الغرفة بعينيه، فوجد مقصًا على التسريحة، وخصلة من شعرها ملقاة على الأرض، وضع يده عليها برقة ليوقظها، فانتفضت مستفيقة من سباتها فجأة تتلفت حولها، ثم نظرت إليه في صمت نظرة ليس لها معنى، وأخذت حاسوبها ولاتزال ترمقه، دلفت إلى غرفة يوسف ونامت بجواره...

أطرق برأسه، غير مستوعب ما يحدث، خلع ملابسه في تؤدة ومدد جسده المرهق على السرير، شعر أنه مخدر من فرط النعاس، ولم تلبث أن مرت دقيقة حتى استغرق في النوم...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

كل يوم بِجِل الصبح مشرقًا يحمل نسائمه العطرة، وقطرات الندى التي تسقط على الزهور فتزينها، بعد أن تعكس أشعة الشمس التي تسقط عليها. وطيوره المغردة بأصواتها العذبة عندما تطير في السماء الزرقاء الصافية. تنثر الشمس أشعتها على الكوكب، فتضيئه رويدًا رويدًا إعلانًا عن ميلاد يوم جديد، وتغفو ظلال الأشجار الوارفة على الأرض. يذهب كلٌ منا إلى عمله في بهجة، هذه هي سنة الحياة، الطبيعة التي مَنّ الله بها علينا، وليس لها أي ذنب إن رأيناها غير ذلك...

كان هذا الصباح بالنسبة لطارق جحيمًا حقيقيًا. استيقظ من نومه عبوس الوجه، شاعرًا بمارد الحزن يجثم على صدره، أخذ حمامه وارتدى ملابسه، وصنع لنفسه قهوته. بعدما انتهى من احتسائها، دلف إلى غرفة يوسف، فوجد بسمة نائمة ووجها ناحية الحائط، مد يده ليوقظها، قالت له بصوتٍ متحشرج دون أن تدير له ظهرها:

- أيوة يا طارق عاوز إيه؟

- كنت عاوز أعرفك إني هسافر كمان يومين تلاتة عشان الـ...

أشارت له بكفها وقاطعته بحدة واقتضاب:

- إعمل اللي انت عايزه، تروح تيجي تسافر تقعد، ده شيء ميخصنيش، انزل بللا عشان ناقص دقيقتين على ميعاد الباص بتاعك...

ابتلع طارق باقي كلامه، أومأ برأسه في تأسي، ثم أخذ هاتفه ومفاتيحه ومضى...

بمجرد أن دخل مكتبه، جلس وقد بدا على وجهه التجهم والحزن، أدرك أنه برغم حرصه الدائم على خلق توازن بين بسمة ومرام، إلا أنه اخفق. يحب بسمة كثيرًا، يريد بالفعل أن ينتشلها من أنقاض الشك المتراكمة فوقها، لكنه الآن مشغولًا بأمر آخر، فهو على بُعد خطوة من معانقة نطفته القابعة في أحشاء مرام... شعر بالإعياء من كثرة التفكير.. يجب عليه انتزاع بسمة من دائرة الشك التي سجنت نفسها بداخلها، لكنه يريد أيضًا ينتزع مرام من دائرة الحزن التي أحاطتها، رتب أولوياته ثم أمسك هاتفه واجرى اتصال...

- أيوة يا مرام. بقولك إيه عشان أنا مش فاضي هقولك على حاجة بسرعة وهقفل...

- قول يا حبيبي في اية؟

- إحنا اتجوزنا ومروحناش في شهر العسل أي مكان...

- أي مكان وأي زمان بكون فيه معاك يا حبيبي يعتبر شهر عسل

- ربنا يخليكي ليا يا حبيبتي... حضري نفسك عشان يومين تلاتة وهنروح شرم أو الغردقة أو أي مكان نغير فيه جو وعشان كمان تنسي

مكتبة عابث الإلكترونية

موضوع أخوكي والحاجات الغريبة اللي حصلت دي... هنقعد أسبوع ونرجع...

- بجد يا حبيبي.. والله يا طارق أنا كان نفسي أقولك نسافر في أي مكان نغير جو لأني حالتي النفسية زي الزفت... حاضر يا حبيبي هحضر نفسي.. ربنا يخليك ليا يا طارق ... طارق .. أخبارك إيه مع بسمة؟

- بعد ما نرجع هاخدها هي ويوسف أفسحهم أسبوع برضه.. المهم حضري بقى شنطتك ولبسك وكل حاجة.. باي

- باي يا قلبي...

دلف إلى غرفة المدير العام ليوقع له على إجازة.. رفض في البداية، لكن طارق أكد له أنه يحتاج لهذه الإجازة جدًا، وسيباشر عمله من هناك، فوافق على مضض.. شكره بحرارة، ثم خرج فوجد أمامه أستاذ حمدي، الذي رمق الورقة التي في يده فعرف إنها إجازة

- آيوة ياعم. الأجازات كترت...

- إزيك يا أستاذ حمدي.. أنا تعبان قوي ومرام كمان على وشك الولادة، وحصلنا حاجات كتيرة جدا الأيام اللي فاتت...

- إية ده. إية ده!! أنا أول مرة أشوفك في الحالة دي يا طارق من ساعة جوازتك، إحكيلي.. تعالى نروح الكافيتيريا عشان نرغي براحتنا...

*****

أخيرًا انتهيا هدير وعلاء من تشطيب الشقة، وأصبحت الآن متوقفة على الأثاث، أبلغ علاء والد هدير الحاج عفت بذلك، ففرح كثيرًا وتأكد أن طارق كان مُحقًا عندما راهن على علاء، وحدد معه ميعادا لشراء الأثاث معًا...

هدير أيضًا كانت تفتخر به دومًا لأنه شخص يمكن الاعتماد عليه، كانت تساعده على قدر استطاعتها في الانتهاء من الشقة.. اتصلت بأخيها طارق للاطمئنان على صحته وعلى آخر أخباره، وأيضًا لتبشره بأنهما قد انتهيا من تشطيب الشقة، ففرح كثيرًا لذلك ووعدها أن يتحمل هو ثمن السفرة، حتى يخف العبء قليلًا عن علاء، أخبرها أيضًا أنه سيسافر خلال يومين لإنهاء بعض الأعمال وسيزورهما قبل أن يسافر...

*****

- طب انت قررت تروح امتى؟ وهتقضي الإجازة دي فين؟

سأل أستاذ حمدي، بعد أن حكى له طارق ما حدث له في الفترة الأخيرة، فأجابه طارق:

- بكرة أو بعده إن شاء الله هنروح... والمكان هنحدده النهارده... هنأجر شاليه في أي مكان.. المهم يكون المكان ده هادي..

ضرب أستاذ حمدي كفًا بكف وهو يغالب ضحكه قائلًا بدعابة:

مكتبة عابث الإلكترونية

- أنا مستغرب من الملايين اللي مع مراتك دي كلها.. المفروض تشاركوا قصر على الساحل الشمالي أو تركيا أو إيطاليا... هبهبهبه زي ما بلشوف في الأفلام يعني...

- يا أستاذ حمدي مش أنا اللي أخلي مراتي تصرف عليا أو أقعد في مكان هي شارياه. ده مبدأ...

- ماشي يا حبيبي بس دي فلووووووس مالهاش أول من آخر.. أنا مش شايف إن فيها حاجة عيب خالص يا طارق... إنتوا الاتنين بتحبوا بعض

- لا يا أستاذ حمدي ده مبدئي.. ممكن أكون غلط، لكن أنا كنت عاوز من الدنيا حاجة واحدة بس وخدتها.. مرام... مرام بس مش ملايينها ولا أملاكها...

- ياعم ربنا يخليهالك، ده انت فقري هقولك إية.. لازم أحترم مبدأك.... على العموم اسمع، أنا عندي شاليه في الساحل الشمالي، هتصل دلوقتي بالحارس اللي هناك يخلي الناس تنضفه وتحضره النهارده وبكرة عشان يكون جاهز بعد بكرة... روح قضي فيه الأسبوع انت ومراتك... وخلي بالك منها ومن ابنكم يا حبيبي...

أخرج ورقة وقلما، ووصف له المكان والعنوان، ثم أعطاه مفاتيح الشاليه. نظر له طارق مبتسمًا عاجزًا عن شكر هذا الصديق الخلوق على مواقفه النبيلة معه...

*****

أنا عارف إني قصرت في حقك قوي، وعارف إني ماكنتش بهتم ببكي الفترة اللي فاتت. وعارف إن ده اللي مخليكي متضايقة وحزينة طول الوقت. وفاهم إيه اللي بيدور في دماغك..

أنا مسافر بعد يومين، هقعد أسبوع... عشان فرع الشركة الجديد. أوعدك أول أما أرجع من السفر إني هعوضك عن كل الأيام دي، مخليكي أسعد واحدة في الدنيا، أنا كل اللي عاوز أكدهولك. إني أقسم بالله العظيم بحبك... وحياة يوسف...

بصوت منهك يائس قال طارق هذا الكلام لبسمة، التي ترنو بعينيها بعيدًا عنه، حتى اغرورقت. لم تنبس بكلمة، كانت فقط تنصت دون تصديق، فكلامه لم يعد يمس قلبها ويخترقه كما في السابق، أصبح بالنسبة إليها شخصًا غريبًا، الفجوة بينهما أخذت في الاتساع حتى أصبحت المسافة بينهما كالمسافة بين الشمس والمريخ، اجتاحها هم وحزن مرير جثم على صدرها، سيطر عليها الأنين الممزوج باليأس والأسى، إلى أن صار مثل الفيض ملأها وقادها إلى حالةٍ مزرية، ترجاها أن تتحدث ولو بكلمة، فأومأت بالرفض...

رمقها في يأس، لمح في زوايا عينيها حزن العالم كله، مدركًا هو الآخر تلك الفجوة التي صارت بينهما، لكنه لا يدري ماذا يفعل. لا يستطيع أن يتركها هكذا، فاغتمامها وشرودها هذا كالخناجر تخترق صدره وتمزق قلبه.. كان بحاجة إلى التحدث لها وسماعها، لكنه أمر مستحيل أمام رفضها هذا. كان الأمر أشبه بمحاولة الكتابة على الماء، أو على رمال

مكتبة عابث الإلكترونية

وسط عاصفة. اكتفى بالنظر لها في أسى. حضن رأسها بكفيه في حنان وقبلها على جبينها..... قبلة خفيفة...

*****

استيقظت مرام في اليوم التالي. ذهبت إلى طبيبتها فطمأنتها على الجنين ونصحتها أن تبقى هادئة في الفترة القادمة وألا تتأخر في السفر عن أسبوع كي لا تُرهَق. نصحتها أن تمشي كثيرًا حتى موعد الولادة، وأن تنأى بنفسها عن أي ضغوط أو مشاكل، نظرًا لأن ضغط الدم عندها عالٍ. وأخيرًا أوصتها بكثرة المضاجعة في الأيام المقبلة كي تسهل عملية الولادة. بعد ذلك ذهبت إلى البنك لتسحب عشرة آلاف جنيه، أعطتها لوالدتها لتنفق منها خلال سفرها، أوصت المربية على ندى وجودي، وبدأت تحضر حقيبتها استعدادًا للسفر...

انتهى طارق أيضًا من تحضير حقائبه، بينما تجلس بسمة مع يوسف في غرفته، بعد أن أغلقتها من الداخل. طرق عليها الباب، لكن بلا مجيب. نكس رأسه في تبرم، ثم ترك الحقائب بجوار الباب، أخذ سبعة آلاف جنيه من درج مكتبه، وذهب إلى أسرته ليراهم قبل سفره ويطمئن عليهم...

في الطريق، اتصل بمرام ليطمئن عليها وعلى الجنين بعدما خرجت من عند الطبيبة، وأخبرها أنه سيصل في الفجر لتكون مستعدة...

طرق الباب. ففتحت له والدته في تؤدة. حينها أشرقت على محياه ابتسامة قد غابت عنه منذ فترة. نظر لها في شوقٍ ولهفة طفل، ارتمى في حضنها وبكى. كرحالة قضى حياته كلها في الترحال من بلد يحبها إلى بلد يعشقها، وأخيرًا وجد موطنه الأصلي ومسقط رأسه بعد أن سكنه التعب والإرهاق...

شعر بأنه قد ألقى بهم ثقيل من قلبه، راحة كبيرة عندما بكى في حضن والدته، التي انزعجت جدًا عندما رأته هكذا، وشعرت بالقلق عليه. لكنه طمأنها على نفسه وأخبرها أنه بخير، ظل يتحدث معها لفترة طويلة، وكل دقيقتين يقبل يدها ويضعها على خده. وعدها أنه سوف يجعلها تسافر السعودية لأداء العمرة بعدما يعود من سفره، فدعت له وأخبرته أنها لا تريد من الدنيا شيئًا سوى أن تراه هو وإخوته في أفضل حال...

بينما يتحدث معها، استيقظ الحاج عفت من نومه. نهض طارق وأقبل عليه وحضنه وقَبَّل يده، وظلا يتحدثان، بينما دلفت والدته للمطبخ لتجهيز الغداء، واتصلت بهدير التي تباشر تشطيب شقتها، وشريف القابع في محله، لتخبرهما أن طارق سيتناول الغداء معهم، وأن يحضرا لجمع شملهم...

" أحنّ إلى خبزِ أمي"...

مكتبة عابث الإلكترونية

دَوّت هذه الجملة الرائعة للأروع محمود درويش في مسامع طارق، عندما هاجمت أنفه رائحة طبي والدته المنبعث من المطبخ. تذكر تلك الأيام الخوالي حينما كان صغيرًا، يرمق تلك السيدة العجوز عندما كانت شابة تقف أمام البوتاجاز وتطهو أربعة أصناف في آنٍ واحد، وتقف بجوارها هدير في الخامسة من عمرها لتعلمها الطهي. حينها كانت والدته تستطيع حمل طبق الأرز وطبق السطة في يد، بينما باليد الأخرى تحمل طبق الملوخية دون أن تهتز. وها هي نفس السيدة الآن بعد أن اشتعل رأسها شيبا، وانحنى ظهرها، تحمل بكلتي يديها المرتعشتين طبق الملوخية، وكاد أن يسقط، فركض نحوها بسرعة ليلحقه ويأخذه منها ليضعه على المائدة. رمقها بطرف عينيه فلاحظ على وجهها التأثر بالموقف وشعورها بضعفها وتقدمها في السن.. احتواها في حضنه وقبّل يدها وأخذ يداعبها حتى ابتسمت ابتسامة صافية. برغم هرمها لكن لم تتغير رائحة الملوخية ولا قوامها أو طعمها الذي طالما اشتهاه...

دخل المطبخ ليأخذ منها باقي الأطباق ويضعها على المائدة، ممسكًا كل طبق بيديه الاثنتين، حتى لا تشعر والدته أنها الوحيدة التي تفعل ذلك، وعلى مقربة منهما يقف الحاج عفت يراقبهم عن كثب مبتسمًا...

دخل شريف، وبعده بخمسة دقائق هدير، وجلست الأسرة حول المائدة.. تبادلوا أطراف الحديث في مواضيع عدة، وبعد أن انتهيا من الغداء، دلفت هدير إلى المطبخ لتغسل الأطباق، دخل وراءها طارق

ليطمئن عليها وعلى آخر أخبارها مع علاء. اطمأن أن كل شيء على ما يرام مثلما كان يريد وأكثر، قبلّها وأعطاها السبعة آلاف جنيه. في البداية رفضت أن تأخذ المبلغ، لكنه أصر، قال لها إن هذا تقدير لها ومكافأة لعلاء على أنه لم يخذله أمام والده. كان هدير وعلاء في أمس الحاجة إلى هذا المبلغ الذي سوف يعجل زواجهما على الأقل أربعة أشهر....

شكرت هدير أخاها، وحضنته وهي تبكي من الفرحة...

خرج طارق من المطبخ ليدخل غرفة شريف، اطمأن عليه واعتذر له لأنه لا يسأل عنه كثيرًا، معربًا عن فرحته لأنه بدأ يسير في الطريق الصحيح، وفرح عندما افتتح ورشته لغسيل السيارات، أخبره ألا يتردد في طلب أي شيء يحتاجه، وحثه على الزواج في أقرب وقت ممكن، حتى يكمل نصف دينه ويطمئن عليه والده ووالدته، فأخبره شريف أنه بالفعل ينوي ذلك وسيتقدم لمحبوبته بعد شهرين. فبارك له طارق واحتضنه.

خرج ليسلم على والده ووالدته، حضنهما وأخبرهما أنه سيسافر غدًا وسيعود بمشيئة الله بعد أسبوع، فدعت له والدته إلى أن مضى...

مرّ في طريقه على معرض السيارات الذي أجر منه سيارة يوم زفافه على مرام، استأجر سيارة لمدة أسبوع، وذهب بها إلى بيته، لكنه وضعها في جراج بعيدًا قليلًا عن المنزل...

مكتبة عابث الإلكترونية

دخل بيته، فوجد بسمة جالسة أمام حاسوبها، تشاهد وهي تبكي فيديو زفافهما، بينما يجلس يوسف أمام التلفاز ليشاهد أحد قنوات الأطفال. جلس بجواره وظل يداعبه ويلعب معه ويحضنه كل دقيقة، سألته بسمة في شرود إن كان جائعًا لتُحضِر له العشاء، فأخبرها أنه أكل عند والدته... فعادت لتكمل مشاهدة الفيديو. ظل يلعب مع ابنه قرابة ساعة ونصف، إلى أن غلبه النعاس. ذهب بعدها إلى بسمة، التي أعادت مشاهدة الفيديو... حضنها من الخلف هامسًا في أذنها:

- انتي عارفة يا بسمة إني مازلت فاكر كل لحظة حصلت في اليوم ده؟

نظرت له نظرة تحمل اللوم، مبتسمة بانكسار ولامبالاة:

- كويس إن انت لسة فاكر!!

- عمري ما نسيت أي حاجة بينا يا بسمة... أقسم بالله بحبك

- بقالك كتير مابتجيبش سيرة مرام... ياترى نسيتها وللا رجعتلها؟

تماسك جيدًا محافظًا على ثباته الانفعالي، حاول بصعوبة ألا يظهر على وجهه أي رد فعل، رغم تفاجؤه بسؤالها المربك. أجابها مبتسمًا بهدوءٍ شديد ونبرة واثقة:

- حاولي يا حبيبتي ماتفكريش في أي حاجة مالهاش علاقة بالواقع. ماتقوليش كلام استحالة يحصل، فكري في مستقبلنا ومستقبل ابننا أفضل، وعمومًا أحب أطمنك إن كل اللي في دماغك مجرد ظنون

وأوهام، انتي مراتي وأم ابني. وكل حاجة في حياتي بتاعتك.. وملكك.. لوحدك..

- أتمنى تكون صادق، وإن يكون كل اللي في دماغي ظنون فعلًا... هنام؟

- آه هنام عشان ألحق أصحا ع الساعة ٤ الفجر.

حملت بسمة صغيرها النائم في غرفة نومهما ووضعته على سريره في غرفته، عادت إلى غرفة النوم فوجدت طارق قد أضاء شمعتين، واستلقى على السرير وجذبها نحوه، جلسا يتحدثا لساعةٍ كاملة وهي في حضنه، محاولًا إقناعها بأن كل ما تفكر فيه مجرد هواجس وأوهام لا أساس لها من الصحة.. كان حريصًا ألا يسافر تاركًا ظنونها تتلاعب بها، كان حريصًا على أن يكون مطمئنًا عليها، أخذ يداعبها حتى استطاع أن ينسيها ما تفكر فيه - أو هكذا خُيِّلَ إليه - ابتسمت في النهاية، وتسرب شيء من الارتياح لدواخلها المضطربة، اعتلاها ولعق رقبتها، فضاعت تحته ضياعًا وأحاطته بذراعيها، أخذت أنفاسه الساخنة تلهب وجهها، بعد أن استسلمت تمامًا ومشت بأناملها على ظهره، ما هي إلا نصف دقيقة ونهضت فجأة، وأزاحت يده القابضة على نهديها ودفعته عنها:

- مالك يا بسمة في ايه انتي اتجننتي؟ انتي حالفة ما تعدى الليلة على خير؟!

قالها مزمجرًا حانقًا... فردت عليه بهدوء قاطبة جبينها

مكتبة عابث الإلكترونية

- لف كده وريني ضهرك...

استدار بحسن نية ولاتزال علامات الغضب على وجهه، قالت له مبتسمة بعينين تتفحصه..

- الله.. إيه الجمال دة؟... مين اللي مخربشك في ضهرك كده؟ خربشة جميييييلة!!

حاول ابتلاع لعابه، لكنه حُشِر في حلقه وأصبح كعلقم. تجمد بصره، حبست أنفاسه فجأة، شعر بالعرق يتصبب من مسامات جلده، كل ثانية تمر عليه دون إبداء مبرر واضح ومقنع سيزداد شكًّها ويستحيل يقينًا. بعد مرور ثانيتين وجزء من الثانية الثالثة أجابها في استهجان:

- انتي بتتكلمي بجد؟ للدرجادي بتشكي فيا يا بسمة؟ عمومًا أنا كنت بهرش في ضهري بالمسطرة الحديد عادي يعني..!

رفعت حاجبيها وحدجته بنظرة تنم عن عدم تصديقها له... في قرارة نفسه يعي أنها مُحِقة، ما هذا المبرر الواهي؟!! يجب إضافة بعض الحركات الدرامية ليُخيل عليها، لوى فمه امتعاضًا وأردف:

- دايمًا كده تنكدي ع الواحد؟!! ده أنا ساعتين وهسافر!! هو يعني هتكون واحدة هي اللي مخربشاني كده؟ حرام عليكي انتي بشكوكك دي هتحولي حياتنا لجحيم... اكتر مبي سودة، إيه القرف دة..!!!

عكس رأسه لهنية، رمقها بطرف عينه فوجدها تتفرس ملامح وجهه، فأردف معاتبًا:

- يابسمة حرام عليكي انتي كده بتهدمي كل شيء جميل بيننا... ده أنا بقالي ساعة بكلمك وبوصفلك حي ليكي، بتشكي فيا يا بسمة؟ هو أنا هلاقي زيك تاني؟ أقسم بالله العلي العظ..

قاطعته بأسى:

- يا طارق أنا حاسة أنك متجوز عليا أو على علاقة بواحدة تانية، وبالأخص...

- مراااااااااااااام... يللا قولها...

- بصراحة آه، بقيت بحلم إن انتوا اتجوزتو وإنكو مع بعض

- هو أنا لاقي وقت أقعد معاكي لما اتجوز واحدة تانية؟ ده أنا شغلي بقى لـ ٩ و١٠ بليل!! عمومًا ريحي نفسك.. مرام جوزها سابلها ملايين خدتهم وسافرت...

- آه طبعا عشان كده انت كمان هتسافر عشان تقابـ..

نهض ليخرج وهو يقول لها

- لاااااااا انتي اتجننتي فعلًا.. أنا هقوم أنام هناك

مكتبة عابث الإلكترونية

جذبته لها.. وقالت بغنج بعدما اقتنعت

- تعالى هنا... انت رايح فين؟ مافيش خروج من هنا...

- تفتكري؟ بعد الكآبة اللي رشتيها في وشي دي؟!!

- آه افتكر... انت بتشك في قدراتي وللا إيه؟

وبالفعل استطاعت أن تعيده لنفس اللحظة مرة أخرى، شعرا فى هذه الليلة بأشياء قلما يشعران بها، أحس طارق هذه الليلة بلذة قلما يشعر بها، وبسمة أيضًا؛ فإحساسها بهذه اللذة مع حبيبها طارق، مختلف تمامًا عن شعورها بنفس اللذة ولكن مع زوجها طارق...

*****

استيقظت مرام عند أذان الفجر، توضأت وصَلَّت على كرسي، تممت بعدها على حقائبها، ثم ارتدت ملابسها لتنتظر قدوم طارق...

استيقظ طارق أيضًا عند أذان الفجر، دخل الحمام ليغتسل، وعندما خرج وجد بسمة قد استيقظت وتحضر له الإفطار. دخل ليصلي، لكنها طلبت منه أن يفطر أولًا إلى أن تغتسل هي الأخرى وتصلي معه الفجر ليؤمها، ابتسم لها وأومأ رأسه بالموافقة...

استيقظ يوسف، فوجدهما يصليان الفجر، فوقف أمامهما يقلدهما حتى انتهيا، فأخذه طارق في حضنه، فجاءت بسمة من الخلف لتدخل

بجوار يوسف في حضن طارق، الذي حضنهما في رفق ممزوج بالقوة، أغمض عينيه واستنشق رائحتهما وأخذ يقبلهما لخمس دقائق... ثم نهض ليرتدي ملابسه في عجالة...

عند الباب، قبل أن يرحل، استدار لهما، فوجد بسمة تبكي، أخذها مرة أخرى في حضنه.. لثم جبينها..... ثم مضى.

وضع حقيبته في السيارة، ذهب إلى مرام التي كانت تنتظره، فنزلت بسرعة ومعها المربية حاملة الحقيبتين. جلست بجواره، فنظر لها طارق بشوق ولهفة، أمال برأسه نحو بطنها لسماع صغيرهما القابع في أحشائها.. ثم مضى قاصدًا الساحل الشمالي.

ظلت مرام طول الطريق ترمقه في صمت. هو أيضًا كان يخطف نظرة لها كل دقيقة ويبتسم. سألته مرام بحميمية:

- ليه يا حبيبي الساحل الشمالي بالذات؟

- فاكرة أيام الكلية لما في يوم قولتيلي إن نفسك تروحيها؟

- آه يا حبيبي فاكرة... انت عارف اني عمري ما رحتها ولا مرة؟

- ربنا يخليني ليكي يا حبيبتي وأحققلك كل اللي انتي عوزاه... على فكرة احنا هنروح الشاليه بتاع أستاذ حمدي... كلمتك أنا عنه قبل كده..

- آه .. مش دة زميلك في الشغل؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- آه يا حبيبتي... الحمد لله ربنا مديني نعمة كبيرة .. حب الناس..

- ماحدش في العالم ده كله بيحبك قدي..

- طبعًا يا حياتي.. ولا أنا كمان بحب حد في الدنيا دي كلها قدك... انتي أجمل ما في حياتي يا روح قلبي...

رنَّ هاتفه فوجد رقمًا غريبًا...

- ده رقم مش اسم... يا ترى مين اللي بيتصل بيا في الوقت ده!! ربنا يستر...

- ألو. مين معايا؟ آآآه إزيك.. أنا لسة ماسك طريق العلمين أهو وإن شاء الله ساعتين بالكتير هكون هناك..... شكرًا ربنا يخليك لو حسيت إني تهت هبقى اتصل بيك، مش ده رقمك؟ خلاص إن شاء الله.... شكرا لذوقك.. مع السلامة...

- مين ده؟.... سألته في دهشة

- ده حارس الشاليه بيعرفني إن الشاليه اتنضف خلاص. أستاذ حمدي قاله يبقى يتصل بيا يعرفني، وقاللي أبقى اتصل بيه لو احتاجت أي مساعدة...

- الحمد لله أنا افتكرت حد من القاهرة بيتصل بيك كنت هحس بنكد بصراحة... بص بقى أنا مش عاوزة حاجة خالص تشغلك عنى في الأسبوع ده، وللا أقولك هات موبايلك ده كده..

- هههههه هتعملي اية يا مجنونة؟

- مش انت قايل لبسمة إنك هتسافر في شغل؟ يبقى المفروض أساسًا الشريحة دي تتشال من الموبايل خالص على الأقل أول يوم.

نزعت الشريحة ووضعتها في جيبها، وأردفت:

- هبقى اديهالك وإحنا راجعين القاهرة...

- هههههههه ماشي يا ستي إعملي اللي انتي عوزاه، انتي دلوقتي عروسة في شهر العسل ومن حقك تتدلعي زي ما انتي عاوزة... وهاتي موبايلك انتي كمان أقفليه وحطيه في التابلوه...

بعد حوالي ساعة، غفلت مرام وهي تنظر لطارق الذي لمحها بطرف عينيه، شعر بأن قلبه من فرط السعادة كاد أن يطير.

وصل أخيرًا إلى الساحل الشمالي، لم يجد صعوبة في إيجاد القرية والشاليه، حيث إن العنوان الذي معه مُفصّل. نزلت مرام من السيارة، ودخلت مع طارق الذي يحمل الحقائب بيديه. طلب منها أن تأخذ المفتاح من جيبه وتفتح. دخلا الشاليه وأغلقا الباب، اتسعت حدقاتهما من جماله بالداخل، سألته مرام بفضول امرأة:

مكتبة عابث الإلكترونية

- شاليه جميل قوي يا طارق... زميلك ده أكيد مدير أو عضو مجلس إدارة...

ابتسم لها، وارتسمت الدهشة على وجهه...

- لا خالص. لا ده ولا ده.... ولا كنت أتوقع أبدًا إنه يكون عنده شاليه بالمنظر ده! أنا عاوز أقولك إنه ماعندوش عربية أساسًا... أستاذ حمدي موظف عادي، هو المسئول عن تنسيق التعاون بين الشركة والمطار والشحنات، ومرتبه تقريبًا نفس مرتبي...

فاندهشت مرام وقالت له ساخرة...

- الله؟!! أومال إزاي عنده الشاليه الفخم ده؟ وفي الساحل الشمالي؟ أوعى يكون حرامي أو مختلس، أو حاجة زي كده يا طارق...

- لا مش للدرجادي، ده راجل زي الفل... ممكن يكون وارثه أو جايبه بالتقسيط أو بتاع حماه...

قاطعت كلامه ضحكات عالية متقطعة صادرة من أعلى ناحية السلم، رنت رنينًا عاليًا في أرجاء الشاليه فاخترقت هدوءه، من رجل يتزل ببطء وسط الظلام في تؤدة. التفت طارق ناحية مصدر الصوت بعد أن ضم مرام بذراعيه.. راقبه في صمت حتى ظهر وجهه قائلًا له:

- مراتك ذكية قوي يا طاروووق...

لحظت حدقة طارق عندما رآه، سأله مندهشًا:

- انت جيت هنا إزاي؟

سألت مرام بنفس الدهشة:

- مين ده يا طارق؟!!

أجابها بينما لازال ينظر للرجل بعينٍ شاخصة:

- ده الأستاذ حمدي يا مرام... انت جيت هنا إزاي حضرتك؟ ومن امتى وإنت هنا؟ مش شايف إن كده مايصحش؟

أجابه بمرح وتهكم وهو يخطو لهم بخطوات واثقة:

- جيت بعربيتي... مهو أنا!!!!!.... عندي عربية..... آه على فكرة أنا هنا من ساعة ما الحارس اتصل بيك، أصل أنا قلتله يتصل عشان يطمني انت فين وقدامك قد إيه عشان تيجي... إيه رأيك في المفاجأة. مش بالذمة مفاجأة سعيدة؟

قاطعه طارق بجدة...

- لا طبعًا... مفاجأة مش سعيدة حضرتك... المفروض إنك مديني مفتاح الشاليه عشان استجم فيه أنا ومراتي، لكن وجودك هنا دلوقت مايصحش وخصوصًا إنك ماقلتليش قبلها، المكان دلوقتي له حرمة، لو كنت أعرف إنك هتقتحم الحرمة دي بالمنظر ده وطريقة

مكتبة عابث الإلكترونية

الكلام المستفزة دي ماكنتش وافقت أبدًا اني آخد منك المفتاح.... ثم أنا عاوز أعرف. انت مرتبك مش كبير عشان يكون عندك كل ده؟ في إية يا أستاذ حمدي؟

صمت لثوانٍ كاتمًا ضحكة عالية. ثانيتين ثم انفجر ضحكًا مرة أخرى، وأجابه:

- بس ماتنكرش إنها مفاجأة...

- منا قلت لك مفاجأة زفت على دماغك. إيه لعب العيال ده؟!! أنا همشي من هنا فورًا...

استدار مع مرام ليخرج، فتفاجأ بثلاثة رجال مشهرين مسدساتهم يظهرون واحدًا تلو الآخر من أركان المكان. شهر حمدي مسدسه هو الآخر، وهدد طارق ألا يتحرك، بينما أحد الرجال أحكم غلق الباب وأخذ من مرام المفاتيح، وأرغمهما على الجلوس على أريكة في منتصف الصالة..

كادت مرام أن تغيب عن وعيها، لولا تشبثها في ذراع طارق الذي لاتزال تتملكه الدهشة من هول المفاجأة.. سأله:

- أنا مش فاهم حاجة... مين دول يا أستاذ حمدي؟!! وإنت عاوز إيه مش فاهم...؟!!

- جميبيبل ، بص بقى يا بطل.... انت ومراتك الجميلة متفضلوا عندنا هنا ضيوف معززين مكرمين، لحد ما تنفذوا طلب صغير....

- طلب إيه؟

- بص يا طاروق... الموضوع ومافيه...

*****

منذ يومين...

حينما علم من طارق أنه يشرع في الذهاب للاستجمام مع مرام، وجدها فرصة سانحة أمامه لتنفيذ خطته التي طالما حلم بكيفية تنفيذها، فأعطاه مفتاح الشاليه على الفور دون تردد...

في اليوم التالي.... ليمان ٢٠٦.. سجن وادي النطرون، في صالة الزوار الفسيحة...

يجلس حمدي منتظراً "شكرى الطيب" الرجل الأبرز في مافيا الأعضاء البشرية. وصاحب الصفقة الأخيرة التي لم تتم، والذي قُبِضَ عليه أثناء تواجده في مكتب معتز يوم مقتله، وبحوزته مستندات تدينه؛ شكري هو الوسيط بين معتز وبين أحد تجار الأعضاء البشرية في أوروبا، وله عدة منافذ لتهريب الأعضاء البشرية، عبر الأنفاق في سيناء،

مكتبة عابث الإلكترونية

عبر البحر المتوسط. وعبر مطار القاهرة الدولي بالتعاون مع أحد موظفي الأمن هناك.. ومع حمدي لاشين موظف شركة الشحن المسئول عن الموافقة بخروج الطرود التي تحتوي على الأعضاء البشرية في برطمانات وصناديق ثلج صغيرة، على أنها طرود عينات قطع غيار سيارات لشركة وهمية.

ربح حمدي من مثل هذه الصفقات ملايين الجنيهات.. كان يفعل ذلك مع موظف الأمن مرتين أو ثلاث مرات شهريًا...

سأله شكري وقد بدت علامات الاندهاش على وجهه:

- إزيك يا حمدي مش عادتك يعني.. عاوز إيه؟

- أولًا... أنا جاي أشكرك جدًا عشان ماجيبتش سيرتي في التحقيقات وماقلتش حاجة علينا.

- على إيه يا حمدي؟!! انت ياما خدمتنا برضه، أي نعم مكانش ببلاش وكنت طالع واكل نازل واااااكل، لكن كُنَّا بستفاد منك. ولعلمك أنا برضه مابلغتش عن الواد بتاع المطار لكن حظ أمه إنهم سمعوا اسمه في مكالمات التليفون اللي فرغوها... أنا بتاجر في أعضاء بشرية، لكن مش خسيس ولا خاين... ولا عمري يوم كنت ندل عشان أبلغ عنك.

- على العموم الحمد لله وربنا يفك سجنك يا شكري..

- الله يخليك.. انت جاي ليه بقى؟

- جاي أردلك الجميلة دي... انت عارف طارق اللي كان معتز هيخدره وياخد منه أعضاءه؟

- آه سمعت اسمه في التحقيقات. مال أمه؟!! مهو ده سبب كل المصايب الله يخرب بيته؟

- أمو زفت ده معايا في الشركة...

(رفع حاجبيه وباندهاش شديد قال له) ياراااااجل؟

- مش وقت استغراب.. مش ده الغريب. الغريب إنه اتجوز مرات معتز.. كانوا بيحبو بعض من زمان، ووَقَّعت حفناوي المحامي في الكلام وعرفت منه إن معتز سايبلها حوالي ١٢٠ مليون في بنك برة مصر ورجعوها على دفعات، والفلوس دي أنا مستخسر أخدها منهم لوحدي، عشان كده أنا جيتلك النهارده عشان تساعدني وتديني رجالة وسلاحين تلاتة، لأنهم بعد ٢٤ ساعة هيكونوا مشرفين في الشاليه بتاعي، ولازم نحضر نفسنا دلوقتي قبل كمان شوية. لأني بالعافيه قدرت أقنعه إنه يستنى يومين، بحجة إني هنضفله الشاليه...

- مممم يابن الايه!! طب بص. أنا هديلك عنوان ناس تقابلهم... متقولهم أمارة هقولك عليها... وفهمهم الموضوع كله بالتفصيل وهم هيبقوا من إيدك دي لإيدك دي

- ماشي يا شكري ربنا يخليك...

مكتبة عابث الإلكترونية

- ربنا يخليك انت يا حبيبي.. قللي بقى نسبتنا هتبقى كام؟

- هديكو ٣٠ %...

- ٥٠ %... ٦٠ مليون ليك وزيهم لينا...

رد عليه حمدي منفعلًا بصوتٍ منخفض:

- كتيبيير قوي، يعني أنا غلطان إني جيت لكم؟ منا كنت ممكن أروح أأجر أي بلطجية من أي داهية.

- لو ماكنتش عارف إن إحنا الوحيدين اللي نقدر نساعدك ماكنتش هتيجي، وسيبك بقى من موضوع إنك جاي تشكرني والكلام ده، ماانكرش إني صدقتك في الأول، انت من جواك عارف إنه صعب تجيب بلطجية أو ناس مش واثق فهم في موضوع كبيبيير زي ده...

ذهب حمدي لبرهة وجيزة بنظره بعيدًا ليفكر سريعًا في الأمر، ثم أومأ رأسه بالموافقة على مضض، قائلًا له جازًا على أسنانه:

- ماشي يا شكري مش هنختلف..

غادر حمدي ليمان وادي النطرون متجهًا مباشرةً إلى هؤلاء الذي أرسله لهم، ليضع خطته التي تسير الآن كما خطط لها بالضبط...

*****

صاح طارق مندهشًا:

- انت! إزاي كل ده ماكنتش أعرف ولا عمري حسيت؟!! ليه كل دة؟

أجابه حمدي - الجالس ممددًا قدميه على كرسي أمامه - بانفعال:

- ليه إيه؟ أنا غلطان عشان عاوز العدل يعم كل الأرض؟ أنا الفقير اللي عاوز ياخد من الأغنيا عشان يدي للفقرا اللي زيه! أنا بجد مستغرب جدًا!!! ليه انت اللي تتجوز مرام اللي معاها ملايييييين مالهاش آخر. وأنا لأ؟!.. زي ما كنت مستغرب لما بلاقي عميل في شركتنا عاوز يدخل بضاعة بمليون ويبيعها بعشرة مليون، أو لو كان عاوز يهَرَّب برة البلد برطمانات صغيرة.. برطمانا!!!!!!!!!ات صغيرة جواها حتة لحمة بخمسين ألف مثلاً... كان لازم أدخل اللعبة أشوفها بتتلعب إزاي وينوبني من الحب جانب...

شعر طارق بدوارٍ شديد، بعد أن نزل كلام حمدي عليه كالصاعقة، لكنه تماسك...

- يعني معتز كان بيتعامل مع الشركة اللي إحنا شغالين فيها؟ وكان في بينها وبين معتز تعاون في تهريب الأعضاء البشرية؟!!

- لا طبعًا.. وهو لو كانت الشركة طرف في الموضوع كان هيبقى معايا ٨ مليون في ٣ سنين؟ أنا اللي كنت بوافق على خروجها بعد ما أمضي

مكتبة عابث الإلكترونية

على إن الشحنة مطابقة للموصفات ومافيهاش حاجة ممنوعة... وتدخل الطيارة بالكراتين بتاعتنا ومتقفلة كويس...

- ياولاد الكلب!! وجندتو موظف الأمن في المطار طبعًا عشان المرحلة اللي بعدها؟

- آآآآه.. الموظف ده أنا حطيت في حسابه مليون جنيه عشان مايجيبش سيرتي في الموضوع... من ساعة ما دفعت المليون جنيه وأنا دمي محروق بيغغغغلي! أنا مش عارف ليه ماخلصوش على أمك وخلصنا من وجع القلب ده!!

- ياااااااه. للدرجادي انت جواك إسود كده؟ كل ده كنت شايله جواك؟ تقابلني بابتسامة وتخليني استريحلك وآمنلك.. عشان تستدرجني لهنا؟

- من ساعة ما سمعت اسمك فى الموضوع واتفاجئت إنك إنت كنت السبب في مصايبي... وأنا بغلي، أكتر من ست شهور وأنا كل ما بشوفك دمي بيتحرق على المليون جنيه اللي دفعتهم، وعلى حنفية الفلوس اللي اتقفلت بسبب قدم أمك النحس... وفوق ده كله عشان الـ ١٢٠ مليون اللي برة مصر، ليه يكونوا معاك ومايكونوش معايا أنا؟!!

صاحت مرام رافعة حاجبيها باندهاش:

- طب حفناوي قالك إن فيه برة مصر ملايين باسمي!! ماقالكش بالمرة إن صرفتها كلها؟

اتسعت عيناه، شعر بوخزة في قلبه ونهض من مكانه ببطء... سألها بابتسامة مذعورة وهو يرمش سريعًا وبالكاد ازدرد ريقه:

- نعم؟!! انتي قلتي حاجة؟!!

- الفلوس كلها صرفتها.. وزعتها على الغلابة اللي حضرتك سفرت أعضاءهم برة البلد!! مش مصدقني اتصل بيه اتأكد...

قال له طارق: للدرجادي يا حمدي الفلوس تعمل فيك...

قاطعه حمدي بصوتٍ عال وهو يخرج هاتفه من جيبه: شششششششش اسكت..

تحدث أحد الرجال لمرام: يعني إيه تصرفي ١٢٠ مليووووووو...

قاطعه حمدي بصوتٍ أعلى واضعًا الهاتف على أذنه: شششششش انت كماااااان... ألو.. إيه يا زفت ياحفناوي... فاكر موضوع فلوس مرام مرات معتز.... آه الفلوس اللي برة مصر.. آآآآيوة.. الفلوس دي فين؟..... كلها؟!!.....

ألقى هاتفه على الأرض فتهشم، رفع رأسه لأعلى وضغط عليها بكفيه قائلًا بصوته الأجش:

مكتبة عابث الإلكترونية

- آآآآآآآآآآآآآآه يا نهار أزرق... يعني إيه؟!! (استدار لمرام وصرخ في وجهها) يعني إيييييييييييه؟ انتي كافرة؟!! يعني إيه توزعي ١٢٠ مليووووووون على شوبة ولاد كلب ميتين؟

فَزَعَت مرام، ارتمت غريزياً في حضن طارق هروبًا من صوته، ضاغطة بيدها أسفل بطنها من الألم، بكت هلعًا، فاحتواها أكثر...

بدا القلق والتوتر على وجوه الثلاثة رجال الذين يراقبون الموقف في صبر قد نفد، نظروا لبعضهم البعض غير قادرين على التفوه بأي كلمة، لاحظ حمدي قلقهم بذعر، التفت بسرعة لطارق كأنه تذكر شيئًا هامًا قائلًا له:

- طيب الفلوس اللي برة مصر، خلاص طارت.. أوكي. ماشي، فين الفلوس اللي جوة مصر بقى؟ فلوس الحاجات اللي اتباعت والفلل والأراضي والشقق...

شرعت مرام في التحدث فقاطعها طارق:

- المبلغ ده محطوط في البنك باسم...

قاطعه أحد الرجال بعد أن نزل الصبر من كتفه، قائلًا لحمدي:

يعني إيييييه يا حمدي، الموضوع هيعدي كدة؟ الـ ١٢٠ مليون طاروا إزاي؟!! وإية موضوع الفلوس اللي جوة مصر دول؟ يطلعوا كام يعني؟

رد عليه حمدي واضعًا يده على رأسه، مفجوعًا كالثكلى:

- من ١٠ لـ ١٥ مليون المفروووووض...

- يعني إية؟ يعني إحنا جايين ناخد ١٢٠ مليون... انت ٦٠ وإحنا ٦٠. نقوم نلاقي نفسنا معانا بالكتير ١٥ مليون؟

- طب يعني نعمل إيه؟ نعمل إيييييه؟

- ماتعملش حاجة يا حمدي... إحنا اللي هنعمل، وجه سلاحه نحو طارق ومرام، هرول إليه حمدي يستوقفه..

- انت مجنون؟!!... تعالى عاوزك

أخذه حمدي بعيدًا، وتحدث معه في وجود الرجلين الآخرين، أقنعهم أن يتريثوا حتى يحصلوا منهما ولو على الأقل الـ ١٥ مليون وربما أكثر، فليس من مصلحتهم أن يقتلوهما دون الحصول على هذا المبلغ، وبعد ذلك يمكنهم القضاء عليهم وإلقاءهم في الطريق... نظروا لبعضهم البعض، اقتنعوا بكلامه على مضض، ١٥ مليونًا ليست مبلغا هزيلا، وعمومًا سيكون أفضل من قتلهم دون الحصول على لا شيء... بعدما اقتنعوا، قال حمدي لطارق مشهرًا عليه مسدسه:

- بص يا طاروق، موضوع فلوس برة سيبك منه دلوقتي، خلينا في اللي جوة مصر الغالية، حرم سيادتك الجميلة هتصرف من البنك المبلغ

مكتبة عابث الإلكترونية

اللي باعت بيه أملاك معتز الله يرحمه، أنا مش عارف هم كام بالظبط بس حفناوي قاللي...

فزعت مرام أكثر من هول الموقف، ومن المسدس الموجه إليها، ومن ضغط الدم الذي كاد يقضي عليها. شعرت بانقباضات قوية ومنتظمة في الرَحِم، صاحبتها انقباضات أقوى بأسفل البطن، آلام متقطعة في الظهر، حتى صرخت صرخة مدوية، صرخة هزت أرجاء الشالية واخترقت الهدوء حوله، فزع حمدي عندما وقعت عينيه تحتها ووجد سائلًا كالماء المختلط بالدم يسيل منها، لاحظه طارق أيضًا، ولاتزال مرام تصرخ أكثر... احتضنها طارق بقوة، ثم أسندها على يد الأريكة قبل أن يرتمي على قدم حمدي يقبلها متوسلًا بصوت متهدج:

- أبوس رجلك يا حمدي اتصل بأقرب مستشفى.. مرام بتولد والنزيف ده أكيد خطر على حياتها وحياة اللي في بطنها.. أبوس رجلك وهديكو كل اللي إنتو عاوزينه بعدها... انت عارف يا حمدي إن حياة مرام وابننا اغلى عندى من أي حاجة تانية...

رمقه حمدي لوهلة، ربما تكون نظرة شفقة! ربما تمعن في صدق نواياه، لكنه بعد ثوانٍ أومأ رأسه بالموافقة على إحضار طبيب لها... صاح أحد الرجال:

- يعنى إيه يا حمدي؟ إحنا هنقلبها مستشفى الجلاء؟! هو إحنا جايين نولد الهانم؟

- يعنى نسيبها تموت ومناخدش حاجة؟ إحنا لسة متفقين على إيه؟ حياتهم مرهونة بالملايين اللي عاوزينها منهم...

نظر الثلاث رجال إلى بعضهم البعض، بإيماءة تنم عن الموافقة على مضض، فاطمئن حمدي:

- جميل.. واحد منكم ييجي معايا نشوف دكتور نسا، والاتنين الباقيين يفضلوا هنا معاهم...

ذهب في الحال مع أحد الرجال، بينما أخذ طارق يجفف العرق الذي يتصبب على وجه مرام ويحنو عليها بحنانه ويهون عليها ألمها... ويقرأ لها القرآن...

كان الأمر صعبًا بالنسبة لحمدي، فقلما توجد مستشفى في الساحل الشمالي، لكنه أخيرًا وجد مستشفى خاص، دخلها فاستقبلته الدكتورة إسراء أخصائية النساء والتوليد، طلب منها أن تأتي معه حيث توجد مرام، واصفا لها الحالة بالضبط، فرفضت الطبيبة الذهاب معه، وأخبرته أنه مستحيل أن تذهب معه نظرًا لحالتها التي وصفها وتتطلب غرفة عمليات مجهزة، وأن الوقت ليس في صالحهم، لكنها أخبرته أنها سترسل معهم سيارة إسعاف مجهزة لنقل الحالة إلى المستشفى، ووعدته أن في غضون ساعة ستكون الحالة مستقرة، حيث إنها ستبذل كل ما في وسعها...

مكتبة عابث الإلكترونية

لم يجد وقتًا للتفكير، وليس أمامه خيارًا آخر سوى الموافقة على نقل مرام للمستشفى... ليس خوفًا على حياتها، بل حرصًا منهم على إتمام الصفقة.

بالفعل ذهب حمدي مع سيارة الإسعاف، بينما ذهب الآخر بالسيارة التي أتوا بها، وفي غضون ١٠ دقائق وصلوا إلى الشاليه. قام المسعفون ومعهم طارق بوضع مرام على نقالة الإسعاف، وبعدما أدخلوها جلس طارق داخل السيارة بجوار مرام، تبعه حمدي زارعًا مسدسه في خصره قائلًا له بصوتٍ منخفض:

- خلي بالك أنا لولا عارف إنه ماينفعش مراتك تدخل المستشفى لوحدها ماكنتش خليتك تيجي معانا. بس قسمًا بالله لو حسينا إن في حركة غدر، أو حد حس بحاجة مش طبيعية سواء بقصدك أو مش قصدك، هقتلك انت ومراتك وابنك اللي لسة ماجاش، احنا أسهل حاجة عندنا القتل، مانت عارف يا أبو طارق...

رمقه طارق بطرف عينيه عاجزًا عن استيعاب هذا الشخص، الذي طالما عانقه وتحدث معه وحكى له عن كل أسراره، لكنه سرعان ما نفض التفكير فيه عن رأسه، فلا يعنيه شيء الآن سوى إنقاذ مرام، التي ظلت لمدة ٤٥ دقيقة تتزف، واضعة يدها أسفل بطنها وتعتصر ألمًا...

دخلت مرام غرفة الولادة، وتبعتها مباشرة د. إسراء، التي أمرت بتحضير غرفة العمليات بمجرد ذهاب سيارة الإسعاف لإحضارها لكسب الوقت.

بينما تخلع الممرضة ملابس مرام، وتوصل أخرى أجهزة النبض بها، كانت طبيبة التخدير تستعد لحقنها، لكن إسراء فوجئت بمرام تمنعهم من خلع ملابسها، وتتحدث لها وهي تعتصر ألمًا وتتأوه من قوة الانقباضات...

- دكتورة... أنا عاوزة أقولك حاجة قبل ما اتخدر وأغيب عن الوعي. خدمة يا دكتورة ياربت تنفذيها وهكون مدينة ليكي بحياتي أنا واللي في بطني اللي مش عارفة هيشوف الدنيا وللا لأ؟

- حاضر يا حبيبتي إبقي قوليلي كل اللي انتي عاوزاه بعد العملية لأن نبض الجنين بيبطأ وكده خطر عليه وعليكي انتي كمان وضغطك عالي جدًا

قالت طبيبة التخدير، بينما كانت ممسكة بحقنة التخدير وتقيس لها ضغط الدم.. فسألتها د. إسراء:

- مالك يا مدام مرام؟ شكلك عاوزة تقولي حاجة مهمة. الناس اللي برة دول اغتصبوكي أو عملولك حاجة؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- يا دكتور، الناس اللي برة دول خاطفيني أنا وطارق وبيساوموا على حياتنا، وناويين يقتلونا بعد كده أنا متأكدة... بعد ما تعمليلي العملية، سواء كان في نصيب الجنين يعيش أو لاقدر الله مات، سواء أنا عشت أو مت، في أي حالة من الحالات اتصلي بالشرطة وبلغي عنهم من غير ما حد يحس خالص...

دست يدها في جيبها وأخرجت شريحة موبايل طارق التي أخذتها منه في طريقهما إلى الشاليه. وأعطتها للدكتورة إسراء ببدٍ مرتعشة ملطخة بدماء النزيف الذي يكاد أن يودي بحياتها... وبدأت تتحدث وهي على وشك أن تغيب عن الوعي... بنبرة منهكة..

- دى... دى شريحة تليفون طارق جوزي، أرجوكي استعمليها في حالة لو لاقدر الله حصل حاجة لطارق، اتصلي بأي رقم من عيلته، وهتلاقي رقم متسجل باسم "شركة الإيمان" ده رقم والدتي، ابقي اتصلي بيها لو أنا مُت...

- كل اللى إنتى قولتيه أنا فهمته كويس وتأكدي إني هعمله، بس أرجوكي هدي أعصابك لأن ضغطك بيعلى أكتر ودة غلط على حياتك إنتي والجنين...

*****

الحياة بدون مرام شبه مستحيلة وخصوصًا أنها الآن ليس بمفردها، بل بداخلها يقبع حلمهما في خطر الآن، جلس طارق، على يمينه حمدي

الذي لا يزال ممسكًا بمسدس صغير كاتم للصوت على أهبة الاستعداد لاستخدامه إذا بيَّن طارق أي شيء غير عادي، أو لفت الأنظار... ظلَّ معه كظله الذي لا ينفصل عنه، لدرجه أنه دخل معه مسجد المستشفى ووقف بجواره وهو يصلي!!

ساعة ونصف الساعة، شعر فيها طارق أن قلبه سيتوقف في أي لحظة من شدة الخوف والقلق، ينظر بعينٍ ثاقبة إلى الباب المؤدي لغرفة العمليات، مترقبًا خروج د. إسراء التي خرجت أخيرًا بوجه عبوس تسأل عن زوجها.

إنها لحظة الحقيقة... انتفض من مكانه وأخبرها أنه زوجها بلسانٍ ثقيل عاجز عن التفوه بكلمة كاملة، نظرت له في تأسٍ بالغ:

- أنا آسفة يا أ. طارق، إحنا عملنا اللي علينا لكن ده قدر ربنا...

خرَّ طارق على ركبتيه، بعد أن شعر بنصفه الأسفل وكأنه تخدر، فقد روحه التي عاش ويعيش وسيعيش من أجلها، بعد مرام لا شيء في الحياة يستحق أن يتنفس لأجله، أردفت الطبيبة:

- الجنين كانت حالته صعبة، اتوفى بعد دخول مدام مرام غرفة العمليات بدقايق، لأن ضغطها كان عالي جدًا، ولولا ستر ربنا كانت ممكن تروح مننا هيَ كمان..

نهض متلهفًا كأنه عادت إليه الحياة مرة أخرى...

مكتبة عابث الإلكترونية

- المهم مرام يا دكتورة.. كويسة؟ أقدر أشوفها؟

- آه الحمد لله بس لسة ماعدتش مرحلة الخطر.. تتحسن بس وتشوفها

صاح حمدي مزمجرًا وبلهجة حادة في وجه د. إسراء:

- لو سمحتي يا دكتورة إحنا عاوزين ناخد المدام دلوقت حالًا وهنتكفل إحنا برعايتها...

أجابته بجدة وصوتٍ أعلى:

مش هينفع تخرج قبل ساعة ونصف من دلوقت، نص ساعة تفوق من البنج، وساعة يخلص فيها المحلول المتعلق ليها ونتطمن على ضغطها.... غير كده هيكون خطر على حياتها ده لو عندك فكرة اسمه تسمم حمل...وبعد إذنك بقى ماتتكلمش بصوت عالي وروحوا إدفعوا باقي فاتورة المستشفي..... عن أذنكم..

دخلت د. إسراء غرفة كاميرات المراقبة لتراقب تحركات حمدي والرجل الآخر، شاهدت الأسلحة التي بحوزتهما، تذكرت ما قالته مرام لها، أخرجت هاتفها بسرعة لإبلاغ الشرطة وأعطتهم العنوان.

أنهت المكالمة، أرجعت رأسها للخلف ناظرة إلى أعلى بعينٍ مغمضة، زفرت أنفاسها التي حبستها أثناء المكالمة، نظرت مرة أخرى إلى كاميرات المراقبة، جحظت حدقتها عندما شاهدت في الكاميرا المثبتة أعلى

غرفة مرام أحدهم ممسكًا بها وتتألم، مجبرًا إياها على السير معه، اتصلت بأمن المستشفي كي يمنعوهم من الخروج، ثم أسرعت لهم، فقابلتهم أمام مكتب الاستقبال. كان حمدي موجهًا مسدسه نحو طارق، والآخر يمسك مرام من تحت إبطها مشهرًا مسدسه تجاه فرد الأمن الذي حاول اعتراضه فابتعد. حاولت د. إسراء أن تهدىء من روعهم لكسب بعض الوقت، لكن طارق ترجاها أن تبتعد عن طريقهم حتى لا يمسوا مرام بأذى. تراجعت للخلف بتفهم هيٍ وفرد الأمن، فمروا أمامهم في سلام، بينما لا تزال مرام تصرخ من الألم...

وصلت قوات الشرطة بعد عشر دقائق، قابلتهم د. إسراء وأخبرتهم أنهم رحلوا منذ قليل، ثم اصطحبتهم إلى غرفة الكاميرات لتريهم ما حدث، أخذ الضابط مواصفات سيارتهم مستعينًا بالكاميرا المثبتة أمام البوابة، وبلغ جميع النقاط والكمائن عن مواصفاتها...

ساعدتهم الطبيبة أكثر، استدعت سائق سيارة الإسعاف الذي نقل مرام، وأخذوا منه عنوان الشاليه...

توجهت الشرطة إلى الشاليه، بينما تبعتهم د. إسراء بسيارة الإسعاف حرصًا على سلامة مرام، فهي تعرف أن حالتها حرجة ولا زال الضغط العالي يهددها في هذه المرحلة بشدة. وفي غضون عشر دقائق، وصلوا جميعًا إلى الشاليه، وبالفعل وجدوا السيارة واقفة بالخارج...

مكتبة عابث الإلكترونية

ترامت إلى سمع حمدي والرجال أصوات السيارات في الخارج. نظر أحدهم من أعلى عبر النافذة. فوجد سيارتي شرطة وسيارة إسعاف، هرع إليهم وأخبرهم، فقسموا أنفسهم اثنين يطلقان نيران من الأعلى، وحمدي مع أحد الرجال في الأسفل. يحكمون سيطرتهم على طارق ومرام، التي أوشكت على أن تفقد وعيها ورأسها يكاد ينفجر. خاصة بعدما علمت بوفاة الجنين...

أطلق أحدهم من الأعلى رصاصة تجاه أفراد الشرطة، فجاءت في باب السيارة، اختبأ أفراد الشرطة خلف السيارات، ورتبوا انتشارهم. حث أحد الضباط الخاطفين عبر مكبر الصوت على تسليم أنفسهم، وأن لا جدوى من ذلك... فرد أحدهم بطلب تأمين خروجهم دون ملاحقة وإلا سيقتلون طارق ومرام، فرفضت الشرطة طلبهم. مؤكدين لهم أن القبض عليهم مسألة وقت، ولا تفاوض مع خاطفين...

أطلق أحد الرجال من خلف النافذة في الأعلى رصاصة أخرى، فأصابت أحد العساكر في كتفه، لمحه أحد الضباط من خلف السيارة، فأطلق عليه رصاصة استقرت في رأسه ولقى مصرعه في الحال، في هذه اللحظة استغلت الشرطة ارتباكهم بعد مقتل أحدهم، وداهموا الشاليه، فوجدوا طارق خلفه أحد الرجال يمسكه من الخلف، ومرام أيضًا يمسكها حمدي، وكل منهم يصوب سلاحه تجاههم، بينما الرجل الثالث يقف في الأعلى على درجات السلم...

أشار الضابط إلى قوته بعدم استخدام السلاح خشية إصابة طارق أو مرام... فاكتفوا بأخذهم وضع الاستعداد فقط. بادر حمدي بالحديث قائلًا:

- أي حركة أو رصاصة هتطلع منكو، الاتنين دول هيتقتلوا... أمنوا خروجنا وماحدش فيكو يلاحقنا ولا يطاردنا، وزميلنا اللي قتلتوه فوق ده إحنا مسامحينكو فيه... والمسامح كريم.

بدأت مرام ترى الأشياء من حولها بألوان غريبة، أغمضت جفونها ببطء وغابت تدريجيًا عن الوعي، سقطت على وجهها مغشيًا عليها قبل أن يرتبك حمدي محاولًا رفعها مرة أخرى، فسقط منه مسدسه.

في هذه اللحظة أطلق الضابط رصاصتين تجاه حمدي: واحدة في ركبته والأخرى في معصمه، فسقط متأثرًا بإصابته واضعًا يده الأخرى على ركبته، في اللحظة نفسها ضرب طارق بخلفية رأسه الرجل الذي يمسكه من الخلف، تقدم خطوة نحو حمدي وركل رأسه بقوة.. ثم ارتمى على مرام التي ارتطم وجهها بالأرض وهي تسقط. احتواها بجسده ليحميها من أي رصاصة من الطرفين قد تصيبها...

أطلق أحد أفراد الأمن رصاصة أصابت فخذ الرجل الذي كان يمسك طارق من الخلف، خرّ على ركبتيه وأطلق رصاصه صوب طارق، فأصابته في كتفه الأيمن. أخذ الرصاصة في خشوع مستمرًا في احتواء مرام أكثر وحجبها عنهم تمامًا. صوب أفراد الأمن وابلا من الرصاص

مكتبة عابث الإلكترونية

نحو الرجل الذي يقف على درجات السلم. فصعد أربع درجات وأطلق رصاصتين، إحداهما أصابت حمدي - عن طريق الخطأ - نفس الركبة التي أصيب فيها، والأخرى أصابت طارق في جمجمته... قنصه أحد رجال الأمن برصاصة في قلبه أردته قتيلًا... ولمح أحد الضباط الرجل الذي كان يمسك طارق من الخلف محاولًا التقاط مسدس حمدي الملقى بجانبه، فأصابه بطلقتين في جبهته فلقى مصرعه، بينما حمدي غاب تمامًا عن الوعي...

هلعت د. إسراء بالخارج خوفًا على مرام بعد سماعها طلقات النيران، أسرعت مع رجال الإسعاف فوجدتها ملقاة على وجهها غائبة عن الوعي تنزف، وفوقها طارق مصابًا وغائبًا عن الوعي هو الآخر، وقد اختلطت دماؤهما...

تم نقلهما في سيارة الإسعاف، ومعهم حمدي الذي لازال على قيد الحياة متأثرًا برصاصتين في الركبة ورصاصة في معصمه... وتركوا باقي الجثث لحين حضور فريق التحقيق...

*****

جلست شاردة على السفرة أمامها الطعام، أدنت الملعقة أسفل فمها لخمس دقائق، شاردة الذهن لا تأكل، مهمومة مقبوضة النفس تفكر في أشياء كثيرة متضاربة وغير واضحة.

بسمة، الفائقة الجمال، صار الآن جمالها ذابلًا شاحبًا من شدة القلق والتفكير، شعرت في هذه اللحظة بوخزة قوية في قلبها، لا تعرف لها سببًا محددًا، قبل أن تنتبه ليوسف الذي ظل لدقيقتين لا يردد سوى كلمةٍ واحدة وهو يبكي " بابا.. بابا.. بابا... " شعرت حينها بوخزة أقوى، حدثت نفسها:

- في اية يا يوسف يا حبيبي؟ انت حاسس بحاجة زى ما انا حاسة؟ أخر مرة قلت فيها "بابا" بالطريقة دي كان في مصيبة، انت كده قلقتني أكتر وخليت قلبي يوجعني أكتر..

شعرت بأن روحها تنسحب من جسدها روبدًا روبدًا، اتصلت به فوجدته مغلقًا، فزاد قلقها أكثر...

*****

بعد ساعتين من نقلها للمستشفى، فتحت مرام عينها تنظر يمينها ويسارها، تصرخ بصوتٍ عال:

- طارق... طارق.

دخلت الممرضة لتطمئن عليها، سألتها مرام في قلق:

- أنا فين؟ وطارق فين لو سمحتي؟

مكتبة عابث الإلكترونية

أجابتها الممرضة بينما تغير لها المحلول المعلق أنها لا تعرف شيئًا عما تقول.. فانفعلت مرام ونزعت من يدها الجلوكوز ورفعت الغطاء من عليها مهرولة ناحية الخارج في غضب ممزوج بقلق شديد، مرددة اسم طارق باحثة عن أي شخص يخبرها أين هو. هرولت وراءها الممرضة تلاحقها في قلق...

خرجت مرام مسرعة من الغرفة، فوجدت أمامها د. إسراء، التي حاولت أن تهدئ من روعها حتى تستطيع التحدث إليها. أشارت للممرضة بيدها أن تدعها، وأن تحضر فقط كرسيًا بعجلات لترتاح عليه. شكرتها مرام في عجالة على ما فعلته معها في غرفة العمليات، وعادت تكرر سؤالها عن طارق... فأجابتها د. إسراء أن طارق بخير، وهو الآن تحت تأثير التخدير، وأبلغتها أنها تُحضر لها مفاجأة سارة جدًا. نظرت لها مرام غير فاهمة، دفعت الكرسي حاملًا مرام إلى إحدى الغرف، حيث توجد ممرضة بجانب طفل رضيع، حملته د. إسراء وأعطته لمرام، فهزت الأخيرة رأسها متسائلة، فأجابتها د. إسراء أن هذا الطفل هو ابنها، وأنه لم يكن قد توفي مثلما أخبرتهم...

شعرت مرام بالدهشة الممزوجة بالفرحة، لم تستطع التماسك، فسندتها الطبيبة المبتسمة حتى جلست على أحد الأسِرّة. كادت أن تفقد الوعي مرة أخرى، ونزلت دموعها من الفرحة، لكن سرعان ما بدأت تستجمع قواها. أخبرتها د. إسراء أنها فعلت ذلك خشية على الطفل من بطش هؤلاء الرجال المسلحين، وحتى لا يخطفونه ويستخدمونه كورقة ضغط عليهم..

نظرت مرام إلى أعلى مبتسمة في امتنان لله، وشكرت د.إسراء على صنيعها، ثم تذكرت طارق وألحت على د. إسراء أن تراه أو تجعل الدكتور الذي يشرف على علاجه يأذن لها بالدخول لتراه وتبشره بهذه المفاجأة، التي ستغير مجرى حياتهما.

بالفعل اتصلت الدكتورة إسراء بالدكتور المعالج لطارق، لكنه رفض بشدة لأنه في حالة حرجة، حيث أن الرصاصة التي أصابته في جمجمته قد استقرت في الفص الأمامي، ورغم العملية فلا زال يدخل في حالات من الهياج استلزمت إعطائه مخدر، لا يكاد يفيق منه حتى يعود إلى نومه مرة أخرى، مما كان له أسوأ الأثر على حالته. لكن د. إسراء ألحت متحججة بأن دخول مرام له سوف يكون له تأثير إيجابي عليه وعلى مريضتها، حيث إنها ستبشره بابنهما... فوافق أخيرًا على مضض لكنه اشترط عليها ألا تحاول إفاقته، وإن أفاق فلا تتكلم معه أكثر من دقيقتين. فوافقت مرام على الفور...

في الغرفة المجاورة يستلقي حمدي على أحد الأسِرة، حيث تم بتر ساقه اليسرى نتيجة لإصابته برصاصتين في ركبته بنفس المكان، أيضًا تم بتر كفه الأيمن لأنه أصيب في معصمه برصاصة هتكته بالكامل، وفي انتظاره المحققون حيث إنه بصدد اتهام بتسهيل تهريب أعضاء بشرية والتستر على متهمين بنفس التهمة...

*****

مكتبة عابث الإلكترونية

غرفة هادئة.... صمت مخيف مريك، يكسر هذا الهدوء صوت جهاز المؤشرات الحيوية الذي يشير إلى تسارع ضربات القلب واضطراب تنفسه.

دخلت مرام بالملابس الخاصة بالعناية المركزة، لم تستطع أن تتحكم في دموعها التي سالت عند رؤيتها طارق ملقى على السرير يخرج من صدره اليائس عشرات الأسلاك المرصلة للأجهزة التي بجواره، كان وجهه شاحبًا.. بمجرد أن جلست بجانبه نظر صوبها من تحت جفني عينيه المثقلتين، وكأن قلبه قد شعر بوجودها، حرك شفتيه ليتكلم.. فرحت.. لكن سرعان ما انقطعت هذه الفرحة عندما أغلق عينيه مرة أخرى ولم يستطع الكلام، ظلت تبكي في صمت، ناظرة لأعلى تدعو الله أن ينقذه مما هو فيه. مرت هكذا دقيقة كاملة، إلى أن فتح عينيه مرة أخرى. مد يده المرتعشة لها، فقبلت راحته وهي تبكي، أخذت تمسد له شعره ثم أخبرته بصوتٍ متحشرج أنه سوف يكون بخير في غضون أيام قليلة. وبشرته أن ابنه على قيد الحياة، وحكت له عن سبب ما فعلته د.إسراء بإيجاز. فابتسم طارق ابتسامة خفيفة ممتزجة بدمعتين لم تخرجا من جفنيه، لكنها فهمت من ابتسامته ودمعتيه كلامًا كثيرا موجزًا، وأدركت أنه لا يستطيع أن يتفوه به. فهمت أيضًا أنه يريد أن يرى ابنهما... الآن قبل بعد قليل... فأخبرته أنه سوف يراه غدًا أو بعد

غد... لكنها سوف تريه إياه من الخارج عبر الزجاج الفاصل بين غرفة العناية المركزة والردهة الخارجية...

ابتسم لها وأغمض عينيه، وكأنما انتابته غيبوبة، فدخلت بسرعة الممرضة التي كانت تراقب مرام من الخارج عن كثب. أخرجت مرام التي بكت بحرقة وهي ترجع بظهرها وتنظر له بكل الحزن العميق الذي سكن قلبها لرؤيته هكذا...

مرت نصف ساعة، وفتح طارق عينيه مرة أخرى، ليجد الممرضة تسجل بياناته الحيوية وتراقب حالته في حذر. شعر بحشرجة داخل صدره، وروحه تلح عليه إلحاحًا لتغادره، نظر للممرضة وطلب منها بصوتٍ واهن..

- أنا عاوز بسمة ومرام مع بعض... عاوز أشوفهم وآخدهم في حضني قبل ما أموت... حاسس.. حا... حاسس إن في حجر كبير على صدري... مش قادر اتنفس...

أغمض عينيه مرة أخرى في هدوء.. فخرجت الممرضة للدكتور أخبرته في لهفة ما قاله طارق، رمق طارق من خلال الفاصل الزجاجي، واطلع على آخر بياناته الحيوية، ثم خرج ليخبر مرام في أسى:

- مدام مرام. جوز حضرتك جوة عاوز يشوفك انتي وبسمة بنتك... البسوا الزي الخاص بالعناية المركزة عشان أدخلكم...

مكتبة عابث الإلكترونية

فطنت مرام سريعًا أنه قد طلب رؤية بسمة، فظن الطبيب أنها ابنتهم... نظرت لطارق في حنان عبر الشباك الزجاجي، فوجدته يميل برأسه نحوها، ينظر بعيون تائهة، بدا على وجهه الألم، تحدثت معه مستخدمة إشارات يدها مع تحريك شفتيها بطريقة تفصيلية، فهم طارق منها أنها ستقوم بالاتصال ببسمة لتخبرها أن تأتي بسرعة، فأومأ لها رأسه إيماءة خفيفة مبتسمًا كطفل، غاب بعدها عن الوعي.

لم يكن من السهل على مرام أن تتصل بزوجة حبيبها الأولى كي تخبرها أنه يريد رؤيتها وهو في هذه الحالة، ترددت للحظة، لكن هذا مطلب قُرة عينها طارق، ولا تستطيع أن تعصاه مهما كانت المبررات...

خرج الطبيب بسرعة من الغرفة، بعد أن اطلع على آخر بياناته الحيوية، سأل مرام إن كانت جاهزة لتدخل هي وبسمة، فأخبرته أن بسمة ليس ابنتهما ولكنها زوجته الأخرى في القاهرة، استدرك الطبيب الأمر بسرعة وأخبرها أن تتصل بها، فربما لا تلحقه، لأن حالته حرجة جدًا ولا تحتمل الانتظار، وربما لا يستطيع أن يقاوم كثيرًا، فالمخ متورم جراء الإصابة وضغط الدماغ في ازدياد...

جزعت مرام من وقع الكلمة وهرعت إلى غرفة د. إسراء كي تأخذ منها الشريحة، وقد شعرت بالألم الشديد في أسفل بطنها فقد بذلت مجهودًا كبيرًا.

- ألو... آيوة يا بسمة... انتي عارفاني؟

- لا مش عرفاكي انتي مين؟ لا إستني إستني.... إستني... يا حبايب قلبي!! إنتو خلاص انجوزتو؟!! وكمان بتتصلي بيا من تليفون جوزي يا مرام؟ بتتحدي...

قاطعتها مرام وهي تبكي بحرقة...

- أسكتي..... اسمعيني كويس يا بسمة... طارق حالته حرجة جدًا وطلب يشوفك.. خدي العنوان وتعالي في أسرع وقت، طارق طلب يشوفك قبل ما يموت. ومن غير أي أسئلة أو تفاصيل تانية خدي العنوان...

أغلقت مرام الهاتف، واتصلت بأخيه شريف، وأبلغته بنفس الأمر وأعطته العنوان هو الآخر، فترك محله للعمال على الفور وأخذ سيارة أحد عملائه وذهب لأبيه وأمه وهديرليأخذهم...

أما بسمة التي كتبت العنوان بينما تنهمر دموعها، اتصلت مباشرة بوالدها وأخذت يوسف وقابلته وتوجها إلى العنوان...

*****

الخط المشير على دقات قلبه كان أحيانًا يستقيم لثانية أو اثنتين، لكن سرعان ما يعود ليتعرج من جديد، إشارة إلى تعلق طارق بالحياة، مقاومًا ضيق في التنفس وضعفًا يتسلل بداخله، وحياة ينست من روح

مكتبة عابث الإلكترونية

تلح على الفراق، لكنها ترفض أن تغادر هكذا دون أن يحضن بسمة ومرام وابنيه منهما...

خرج الطبيب من الغرفة، بينما انتهت مرام من ارتداء الملابس الخاصة بالعناية المركزة. أخبرته في انهيار أنها مستعدة للدخول، طالبة منه أن تريه ابنهما الذي لم يره قط. فكر الطبيب في دخول الطفل لكنها قطعت تفكيره بإلحاح قائلة له أن هذا مطلب إنساني، فوافق لكن شريطة ألا تتأخر عن ثلاث دقائق...

دخلت مرام تحمل طفلها، شعر بهما طارق وابتسم عند رؤيته، سألها بصوتٍ ضعيف يكسوه الأنين:

- ده... ابننا يا مرام؟

- آه يا حبيبي. ابننا اللي ياما حلمنا إننا نشوفه يا طارق، مش إحنا طول عمرنا كنا بنحلم إن يكون في حاجة مشتركة بيننا؟ أهو ربنا بعتهولنا أهو..

قالتها مبتسمة محاولة - عبثًا - إخفاء دموعها...

اكتفى طارق بابتسامته الهادئة التي تحبها مرام، ارتسمت على عينيه وصفحته يقطعها خرطوم الأكسجين المثبت إلى فتحتي أنفه... مد يده المرتعشة فأطبق ابنهما على سبابته بقبضته الصغيرة الرقيقة فاتسعت

ابتسامة طارق، وابتسمت معه مرام برغم انفجار دموعها. سألته ماذا يريد أن يسميه، أجابها على الفور بنبرة رخيمة..

- باسم...

استنبطت مرام بسهولة أنه اختار هذا الاسم نسبةً إلى بسمة. لم تأبه كثيرًا بالتفكير في الأمر، ونظرت له بحنان بعد أن أومأت رأسها بالموافقة... وعلى الفور دخل الطبيب ليخرجها من الغرفة...

*****

خرجت مرام من الغرفة شبه منهارة، بينما ظل الطبيب يراقب إشارات الأجهزة ووعي طارق والعلامات العصبية التي بدأت في الظهور، رأى أن حالته تسوء أكثر فأكثر بمرور الوقت، تأكد له أن طارق يفصل بينه وبين وفاته ساعات معدودة، مع أقصى دعم طبي ممنوح له بالفعل، فليس في يده المزيد ينقذه به. وبينما ينظر إلى طارق، وجده يطلب منه بصوتٍ ضعيفٍ واهن دفترًا وقلمًا وهاتفًا محمولًا مزودًا بكاميرا، ليسجل فيديو لعائلته وخصوصًا بسمة التي ربما لن تلحقه...

رفض الطبيب رفضًا قاطعًا، وأخبره انه لن يمكنه الكتابة على الإطلاق، وغير مسموح بدخول هاتف محمول في غرفة العناية المركزة، ثم خرج. لكنه وقف عند باب الغرفة لثوانٍ، ثم استدار ونظر لطارق مبتسمًا وأومأ له قائلًا:

مكتبة عابث الإلكترونية

- أنا هجيبلك كاميرا ديجيتال.. بس بشرط.. الموضوع مايخدش أكتر من دقيقة..

نظر له طارق نظرة تنم عن امتنان، ذهب ليحضر له الكاميرا، وأدار تصوير الفيديو. تحدث طارق فيه بصوت مُنهك، رسالة مقتضبة لمرام وباسم، وبسمة ويوسف، ليشاهدوها في حالة لم يلحقوه. أيضًا قال رسالة موجزة لكلٍ من والده ووالدته وأشرف وهدير، ولم ينس ندى وجودي...

*****

بعد مرور ساعتين ونصف الساعة، التفتت مرام بعينيها، فرأت بسمة الشاحبة الوجه تدخل من باب الاستقبال، متكئة على ذراع أبيها الذي يحمل يوسف. كانت غير قادرة على السير، تخطو بخطوات ثقيلة كامرأة سبعينية، قابلها الطبيب ورافقها لغرفة العناية المركزة، بينما تجلس مرام على الكرسي أمام غرفة طارق تحمل باسم. مرت بسمة، نظرت إلى مرام التي كانت تنظر لها هي الأخرى، أطلن النظرة لثانيتين، ثم استكملت سيرها نحو طارق.

ألحت عليها أسئلة كثيرة في قرارة نفسها... ما الذي أتى بطارق إلى الساحل الشمالي؟ ماذا حدث له بالضبط؟ لماذا توجد مرام هنا في المستشفى؟ ومن هذا الرضيع الذي تحمله؟

لم يطل إلحاح أسئلتها كثيرًا، توقف قلبها عن النبض عند دخولها غرفة طارق، وجدته شاحب الوجه، جفناه مطبقان، هذا الذي طالما مدَّ قلبها بالحياة، أفجعتها رؤيته هكذا نائمًا على فراش الموت.. لماذا سينبض قلبها إذن، ولمن سينبض بعده؟

فتح طارق عينيه بتثاقل، نظر لها في أسى عندما وجد وجهها النضر المشرق الجميل وقد صار شاحبًا، مثل زهرة جميلة قد أنهكها الخريف القاسي. قال لها بصوتٍ ضعيف مبحوح وبابتسامة لم تغادر محياه:

- روحي كانت متعلقة جوايا، مش عاوزة تخرج غير لما تشوفك يا حبيبة قلبي.. سامحيني يا بسمة عن أي حاجة هتعرفيها عني بعد ما اموت، عن أي حاجة كنت مخبيها عليكي.

نظرت له في تأسٍ، شعرت بسخونة تسري في عروقها، غطت وجهها بكفها وأجهشت بالبكاء في حرقة، ثم نظرت له مرة أخرى وقالت:

- بعد الشر عنك يا حبيبي، انت هتعيش وهتبقى أحسن من الأول إن شاء الله يا حبيب..

قاطعها رافعًا كفه المرتعش..

- أنا عارف ومتأكد من اللي بقوله يا بسمة، أنا حاسس إني خلاص هموت ونفسي بيطلع مني بالعافية، قربي عليا أكتر انتي ويوسف... عـ. عاوز أخدكو في حضني...

مكتبة عابث الإلكترونية

لم يلبث أن أكمل جملته، حتى ارتمت هي ويوسف برفق في حضنه... اخترق قلبها خنجرًا عندما رأت طارق الذي طالما حضنها بقوة، لا يستطيع الآن أن يبذل مجهودا بسيطا ليرفع يده ويحتويها، كان حضنه يسع لها وليوسف معًا. الآن يحوي ويحتوي على أنابيب ومجسات تخترق شعر صدره الكث الذي طالما مشت بأناملها بينه.. لكن كل هذا لا يمنع أنهما لا زالا يشعران فيه بالأمان... استطرد حديثه:

- أنا عارف إني قصرت في حقك كتير يا بسمة بس أنا عارف إنك هتسامحيني... لإني عارف ان قلبك كبير، سامحيني يا حبيبتي على أي حاجة عملتها، بعد ما أموت وتقعدي مع نفسك شوية وتفكري بقلبك الكبير ده، أنا متأكد إنك هتقدّري. لكن يعلم الله أنا بحبك قد إيه يا بسمة. بحبك وبحب يوسف..

حاول لمس خدها بيده، لكنه لم يستطع رفعها، فأمسكتها بسمة ووضعتها على خدها مثلما أراد. نظر بعينٍ نصف مغمضة للطبيب الذي يقف على مقربة منهم وتكاد أن تدمع عينيه من الموقف، قال له:

- آآآآخ.. آخر طلب يا دكتور... عاوز مرام وابني يدخلوا لو تسمح.. عاوز أموت وهما كمان في حضني...

شعرت مرام الواقفة بالخارج تراقب بصبر الموقف عبر النافذة الزجاجية أن طارق يريدها، لم تنتظر حتى يخبرها الطبيب أن طارق يريد رؤيتها أو يأذن لها بالدخول، قلبها هو الذي أخبرها بذلك، فدخلت مهرولة وهي تحمل ابنها، كانت بسمة ويوسف مرتميان في حضنه

ويضمهما بيده اليمنى، مدَّ إليها يده اليسرى، فارتمت في حضنه هيَّ الأخرى...

عندما ضمهم الأربعة، رمق السقف لثوانٍ ثم أغمض عينيه، طالما أراد أن يفعل هذا منذ زمنٍ بعيد، ابتسم ابتسامة خفيفة، بينما تبكيان بحرقة شديدة، قال لهما في هدوء بصوتٍ متهدج:

- خلو بالكو من بعض... كان كل هدفي في الدنيا إني أخليكو أسعد زوجتين في العالم. سامحوني لو كنت عملت في أي واحدة فيكو حاجة وحشة... بحبكم قوي والله، إنتو الاتنين بحبكم... وبحب ولادي منكم.. خلو بالكم من بعض...

أطبق عليهما بذراعيه ولازالتا تبكيان بصوتٍ متهدج وأنين متقطع، أطبق عليهم الأربعة بقبضته الضعيفة، أخذ نفسًا عميقًا، ثم زفره في بطء.. و.. ارتخت يداه وسقطتا.... واستقام للأبد... الخط الذي يشير إلى.... نبضات قلبه....

انخرطت مرام وبسمة في البكاء وعيونهما تطفح ألمًا وحزنًا، جسداهما يرتعشان كشجرتين تتمايل أغصانها بعد أن ضربتهما ريح صرصر عاتية. ملأ صوت نشيجهما الغرفة التي انقطع فيها صوت مؤشرات القلب، بالتزامن مع وصول إخوته ووالدته ووالده، الذين نظروا لطارق غير مستوعبين أنه مُمَدَد على السرير هكذا مفارق الحياة... بكوا بحرقة على فقدان فلذة كبدهم...

مكتبة عابث الإلكترونية

عام ٢٠٣٥ م

في منزل طارق... مازال الأثاث كما هو، رغم أنه صار قديمًا، مُصِرّين ألا يغيروه، فقد كان طارق يجلس عليه في يوم من الأيام.. كل قطعة في هذا الأثاث لها قصة معه، فهذا الكرسي الذي طالما جلس عليه وهو يقرأ كتابًا يحبه، ويحتسي فنجان قهوته في الصباح، وهذه الأريكة التي نام عليها منتظرًا ميعاد أخذ بسمة للدواء عندما كانت مريضة، وتركها تنام بمفردها في هذا اليوم على سرير غرفة النوم كي ترتاح...

على مدار ٢٢ عاما تحرص بسمة على أن تكون ملابس طارق نظيفة، مرتبة ومنظمة في الدولاب، خشية أن يفاجئها طارق بأنه يريد قميصًا معينًا، خشية أن يفاجئها بمشوار يتطلب قميصه الأبيض مع رابطة عنقه الحمراء...

على مدار ٢٢ عامًا حرصت بسمة على أن تكون جميع أحذيته لامعة وموضوعة بنظام في مكانها..

في السفرة التي اشتراها معها في يوم ما، وحملها قطعة قطعة، بينما كانت تشفق عليه من ثقلها... يجلس عليها يوسف طارق الشيمي "٢٥ عامًا"، ندا معتز قطب "٢٥ عامًا"، باسم طارق الشيمي "٢٣ عامًا" و أخيرًا جودي محمد عزالدين "٢٤ عامًا"...

متجمعين أمام لاب توب يوسف، يشاهدون الفيديو الذي صوره لهم طارق في غرفة الإنعاش... ورسائله لهم، بينما تقف بسمة محنية الظهر

في المطبخ لتُعد لهما الغداء، وتساعدها لتضع الأطباق أمامهم مرام التي تسير بخطا ثقيلة بعد أن هَرِمَت. تجمعوا يتناولون الغداء وهم يتبادلون أطراف الحديث، وقد جمعهم حبهم لطارق وحب طارق لهم، وحبهم لبعضهم البعض... مثلما أوصاهم بالضبط.... وكأن روحه لاتزال حاضرة تحيطهم..

تمت بحمد الله تعالى

مكتبة عابث الإلكترونية

شكر خاص

إلى الكاتب الرائع / أحمد عبد المجيد..

ذلك الصديق الصدوق، دمث الخلق الذي لم يبخل عليَّ قط بمجهوده أو بوقته، وعانى مشقة قراءة روايتي لمدة شهرين ونصف على سبع مراحل، ولم أرَ منه إلا سعة صدر وترحيب ونقد بنَّاء أفادني...

امتناني العميق لرجلين قلما أجد مثلهم في حياتي:

أ. أشرف العشماوي　　أ. مصطفى الفرماوي

شكراً جزيلاً لأصدقائي الكُتاب الذين قرؤوا روايتي وأخبروني عن رأيهم وشجعوني فأكملت... أو دعموني معنويًا وأفادوني فتعلمت، أريد أن أخبرهم أن صداقتهم تعني لي العالم بأسره:

محمد عبد القوي مصيلحي - عمرو الجندي - شريف عبد الهادي - أمل زيادة - محمد صادق - محمد نجيب عبدالله - محمد الصفتي - أحمد القرملاوي.

مكتبة عابث الإلكترونية

ما بين مطرقة الماضي وسندان الحاضر، يمضي نحو مستقبلٍ مجهول؛ هروبًا من عقدة ذنب قد ارتكبها من قبل، مارًا بأحداثٍ كثيرة، ومفارقاتٍ غريبة، وطُرق متضاربة، مثيرة ومليئة بالمفاجآت والصَّدَف، مغمض العينين مُسيّرًا، منفِّذًا ومطيعًا لتوجيهات القدَر له، ثم يصاب في النهاية بالصدمة عندما يكتشف دوره الرئيسي في ذلك!!.. وأنه كان بطلاً محوريًا وهامًا لكل هذه الأحداث والمفارقات، وليس (كومبارس) كما كان يظن...

فهناك دائمًا منطقة غامضة في حياتنا تُسمّى (المنطقة الرمادية) وهي التي نفعل فيها كل شيء.. سنندم عليه فيما بعد.. وقد نعيش سنواتٍ كثيرة في هذه المنطقة.. فكيف ندركها؟!!.. ومتى؟

تصميم الغلاف : أسامة علام

ISBN 9789776436626

مكتبة عابث الإلكترونية